تاريخ أوروبا

فى العصر الحديث

اعـــــداد

دكتور / عبد المنعم إبراهيم الدسوقى الجميعى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

الطبعـة الثالثة

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧

قد اختلف معك فى الرأى، ولكنى على استعداد لأن أدفع حياتى ثمناً لحقك فى الدفاع عن رأيك "فولتير"

رقم الإيداع

١٩٢٨١ / ٢٠٠٧



مقدمـــــــة

باسم الله وعلى هدى من نوره وتوفيقه نقدم الطبعة الثالثة من كتابنا **«العالم الأوربى فى التاريخ الحديث والمعاصر»**، وقد أضفنا فيها بعض الإضافات حتى يتم اللحـــاق بـــبعض الأحداث الجارية التى طرأت على أوربا فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وتفكيك يوغوسلافيا ومشاكل البلقان وأزمة كوسوفا.

وغنى عن البيان أن هذه الفترة الممتدة من القرن السادس عشر وحتى نهايـــة القـــرن العشرين قد حفلت بأحداث هامة فى تاريخ البشرية، خاصة وأنها واكبـــت مطلـــع العـــصور الحديثة بصفة عامة كما أنها شهدت أول حركة استعمارية أوربية للوطن العربى وأعنى بهـــا حركة الاستعمار البرتغالى فى الخليج، كما أنها حققـــت تقـــدماً هـــائلا فـــى حقـــول الفكـــر والاستكشاف وانتصار العقل والتنوير على التقليد والتوكيد وأصبح العالم فيها وحدة متـــشابكة لايستطيع شعب من شعوبه أن يعيش بمعزل عن الآخر. ولما كان التاريخ الأوربى الحـــديث والمعاصر لايزال يحتل مكانا بارزا فى المناهج الدراسية بأقـــسام التـــاريخ فـــى الجامعـــات المصرية والعربية فقد سايرنا فى هذه الدراسة خطط هذه الجامعات حتى تكون مرجعا أساسيا لطلابنا يمكن عن طريقه الاستغناء عما كتبه غير المبرئين من عوامل التعصب أو الاستعلاء. ورجاؤنا أن تحقق هذه الدراسة الهدف منها، وأن يجد فيها طلابنا تفسيرا للحاضر فى ضـــوء الماضى، وأن يتعرفوا على التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى حدثت فى العالم.

ومما لاشك فيه أن جهود الأوربيين خلال هذه الفترة قد كشفت عـــن كنـــوز التـــراث الإنسانى الخالد واضافت إليه ألوانا من المعارف والفنون مما أيقظ العقول ودفعها للبحث عن المزيد من المعرفة والخير للبشرية.

سدد الله خطانا، ووفقنا إلى تحقيق غاياتنا أنه سبحانه وتعالى ولى التوفيق.

د./ عبد المنعـــــم الجميعى

القاهرة : المهنـــدسيـــن
٢٠ أغسطس ٢٠٠٧

تمهيـــد

المدخل إلى التاريخ الأوربى الحديث

لكل عصر من العصور التاريخية سماته الخاصة، وتقسيم التاريخ الى عصور، لايعنى تجزئة الأحداث التاريخية او فصل بعضها عن بعض بقدر ما يعنى التعمق فى دراسة هذه الأحداث، ودراستها بطريقة اكثر تخصصا ودقة.

وإذا كان الاتفاق قد تم بين علماء التاريخ فى العصر الحديث على تقسيم التاريخ الى عصور قديمة، ووسيطة، وحديثة ثم اضافوا اليه الفترة المعاصرة، فليس معنى ذلك ان هذه التقسيمات حتمية بل هى اجتهادية، ومن هنا فالاراء تختلف حول التحديد الدقيق لها، واحيانا تتشابك فى تحديد الخط الفاصل بين عصر واخر، وقد شبه احد المؤرخين[١] عملية انتقال العصور بمراحل نمو الإنسان وانتقالها من مرحلة لأخرى، فإذا كان يصعب على العلم الحديث بكل وسائله التقنية والعلمية أن يحدد لنا ساعة معينة أو يوما بعينه لانتقال الإنسان مثلا من مرحلة المراهقة إلى مرحلة الشباب فمرحلة الرجولة والشيخوخة إذ أن كل مرحلة من هذه المراحل تتصل نهايتها ببداية المرحلة التابعة لها وتنساب فيها حتى تبرز سمات جديدة على الإنسان وحتى نقترب من هذه الرؤية أكثر يجب أن نوضح ماهو المقصود بالعصر التاريخى؟

المقصود بالعصر التاريخى هو الحقبة الزمنية التى تتفق فيها أسس الحياة أو تتشابه، وإن اختلفت فان الخلاف بينها يكون بسيطا.

ومن هنا فليس من السهل تحديد الخط الفاصل بين العصور الوسطى والعصور الحديثة خاصة وأن الانتقال من عصر إلى أخر يحتاج دائما إلى تمهيد طويل تتبلور خلاله مميزات وسمات ذلك العصر وقد يستغرق ذلك فترات غير محدودة تتداخل خلالها الأمور وقد تختلط ببعضها فتمتد جذور عصر من العصور فى أعماق العصر الذى سبقه لدرجة يصعب معها تحديد تاريخ محدد نثبت به ميلاد عصر ونهاية عصر اخر.

---

(١) أنظر عبد العزيز الشناوى: أوربا فى مطلع العصور الحديثة.

ومع ذلك فإنه يمكننا القول بأن حدوث تغيرات جذرية ومؤثرة فى حياة البشر تؤثر فى شئونهم الداخلية وعلاقاتهم الخارجية، وتتغير بسببها ظـروفهم الـسياسية أو الاقتـصادية أو الثقافية أو الاجتماعية هى بداية عصر ونهاية أخر.

ونتيجة لتفاوت هذه التغيرات من حيث قيمتها وتأثيرها فقد اختلف المؤرخون فى تحديد حدث معين يمكن القول عنه أنه بداية الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، وان كان قد اتفق معظمهم على ان فترة الانتقال يمكن تحديدها زمنيا بقرن ونصف مـن منتـصف القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر حيث كانت الخيوط قد تجمعت، وتطـورت إلـى طور جديد من التقدم بزغ فيه فجر جديد كانت من مظاهره ازدهار فى الفنون، وخصب فـى الخيال، وحرية فى الرأى. ونزعات تجديدية كبيرة. وفيما يلى نعرض للآراء التى قيلت فـى هذا الموضوع:

١-يرى بعض المؤرخين أن رحلة كريستوف كولومب الأولى إلى العالم الجديد عـام ١٤٩٢م هى بداية العصر الأوربى الحديث، ويدللون على وجاهة رأيهم أن هذا الاكتشاف قـد أدى إلى نمو النشاط التجارى فى أوربا، وتكوين طبقات أوربية جديدة، ونمو الأسواق، وتغيير التركيبة الأساسية للإقتصاد الأوربى، وظهور العديد من طرق التجارة العالمية التى لم تكن معروفة من قبل للأوربيين. وتدفق المعادن النفيسة واكتشاف المناجم الغنية بكنوز الأرض والاستحواذ عليها والتعرف على الحاصلات الجديدة فى أمريكا ونشرها بين قارات العـالم الأخرى كما أنه حطم الفكرة التى كانت تروجها الكنيسة بأن المنطقة التى تجـاوز حـدود أوربا من ناحية البحر وحدود أفريقيا الشمالية هى بمثابة مأوى للـشياطين وتحـذر مـن مخاطر اقتحامها.

٢-يرى البعض أن سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين ٨٥٧هـ/١٤٥٣م هو بدايـة التاريخ الأوربى الحديث ويستندون فى ذلك إلى أن هذا الحادث وما ترتب عليه من هجـرة العديد من العلماء من القسطنطينية إلى أوربا، ومعهم علومهم ومخطوطاتهم النادرة وكتبهم القيمة وتدريسها فى مدارس أوربا وإحيائهم للتراث اليونانى والرومانى بها قد ساعد علـى بزوغ عصر جديد فى أوربا، وإلى الانكباب على هذه الحركة العلميـة والاهتمـام بعلـوم الإنسان وظهور طائفة الإنسانيين.

وقد يكون ردنا على هؤلاء أن حركة بعث وإحياء هذا التراث كانت قد بدأت فعلا في إيطاليا قبل اكثر من قرن من سقوط القسطنطينية، ولم يكن سقوط القسطنطينية سوى استمرار لهذا العصر، يضاف إلى ذلك أن إيطاليا كانت خصبة بمفكريها قبل سقوط القسطنطينية إذ برز فيها جمع من هؤلاء في القرن الثالث عشر منهم "دانتي" الشاعر الايطالي الذي نشأ في مدينة فلورنسا و "نيقولا دي ريترو" الذي أراد في القرن الرابع عشر أن يعود بروما إلى سالف مجدها في عصر الرومان.

٣- هناك من يقول أن التاريخ الأوربي الحديث يبدأ بسقوط الأندلس. ذلك الحادث التاريخي الذي كان بمثابة نقطة تحول خطيرة في تاريخ الأوربيين حيث قام "فرديناند" حاكم أرجونة و"ايزابيلا" حاكمة قشتالة بإسقاط آخر المعاقل الإسلامية هناك في عام ١٤٩٢م وإجبار المسلمين على التنصير أو الفرار، وتشجيع البابوية للأسبان والبرتغاليين بالضغط على المسلمين في الشمال الأفريقي ومحاولة نشر المسيحية بينهم بالقوة والقضاء على الهوية الاسلامية هناك.

٤- من المؤرخين من يذكر أن تاريخ أوربا الحديث يبدأ بالكشوف الجغرافية التي أظهرت حب الأوربيين للمغامرة وزادت من معلوماتهم الجغرافية حول كروية الأرض ومكنتهم من السيطرة على زمام الأمور البحرية في البلاد الشرقية واحتكارهم لتجارتهم، ووصولهم إلى الهند بلاد التوابل عن طريق جديد ليس فيه من يطالبهم بدفع رسوم أو مكوس وهو طريق رأس الرجاء الصالح، هذا إلى جانب تمكن الأوربيين من تحويل طرق التجارة العالمية من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي.

٥- يرى بعض آخر أن النزاع بين فرنسا وأسبانيا على التوسع في شبه الجزيرة الايطالية، وإدعاء كل منهما لحق وراثة العرش فيها ثم قيام التنازع بين الوحدات السياسية في إيطاليا بسبب التنافس بينها، والتجاء بعضها لفرنسا والبعض الآخر لأسبانيا، ورغبة كل من الدولتين في تحقيق إطماعها الاستعمارية على حساب إيطاليا، وقيام الحروب بينهما يمكن اعتباره بداية التاريخ الأوربي الحديث.

وعلى الرغم من الأسانيد التى أثبتها هؤلاء المؤرخون لترجيح آرائهم حول هذا الموضوع فإنه يمكن القول أن عصر النهضة "Renaissance" أو ما يسمى بحركة البعث الجديد الذى حدث فيه العديد من التغيرات الجديدة والأحداث التاريخية المهمة فى حياة أبناء القارة الأوربية فى النواحى الأدبية والفنية والعلمية والسياسية هو الذى يمكن اعتباره البداية الحقيقية للتاريخ الأوربى الحديث ففى هذا العصر انقلبت الموازين فى أوربا العصور الوسطى تماما فبعد أن كانت الكنيسة هى وحدها المسيطرة على مقدرات أمور الثقافة والتعليم فى أوربا، حيث تتقيد المدارس والجامعات بما تمليه عليها أفكار الكنيسة دب الضعف فى الكنيسة نتيجة لاستمرار صراعها مع الإمبراطورية واتسعت دائرة المعارف والعلوم الإنسانية، وتحررت العقول وبرزت شخصية الفرد، فبعد أن كانت الحركة العلمية والفنية تقتصر على جدران القصور فى منتديات الأمراء أنتج الفنانون روائعهم الهائلة التى يصورون فيها الطبيعة وما فيها من سحر خلاب، وبدأت الجامعات تدلو بدلوها فى هذا المجال فساهمت فى بعث التراث القديم وإذكاء الحركة العلمية والأدبية بوجه عام، فأخذت روح النقد فى النمو، وبدأ المثقفون ينتقدون الكنيسة وآراءها.

وأخذ الأدباء يخرجون عن التقاليد السابقة فعبروا عن خفايا النفس البشرية وما فيها من أحاسيس بعد أن كانوا يحصرون أفكارهم داخل نطاق العقيدة فتحدثوا عن الحب والغزل والمرأة وبدأ النزوع إلى التفكير الحر أو ما يطلق عليه الروح الفردية "Individualism" وهى ابتعاد الفرد عن التقيد بكل ما يرتضيه ويعتقده وأصبح الفرد لا يعتنق إلا ما يتفق مع فهمه وفكره بهدف الوصول إلى الحقيقة وتوفير أسباب السعادة والحياة الحرة. وظهرت مفاهيم وآراء جديدة وصل ببعضها الأمر إلى إعلان العصيان على آراء الكنيسة والدعوة إلى تغييرها فقام "أرنولدو" بالدعوة إلى إصلاح الكنيسة والاعتراض على أملاك رجال الدين وملابسهم الفاخرة ونادى بإقامة حكومة حرة مستقلة عن سلطات الكنيسة بعد أن ضرب رجال الدين أسوأ المثل فى الجشع والميل إلى ملذات الدنيا.

وقام "يواكيمو" بحركة دينية فى جنوب إيطاليا حذر فيها العالم المسيحى مما ينتظره من أيام سوداء نتيجة لمفاسد الكنيسة ومعايبها. ورفع الأسقف الأسبانى "الفارو بلايو عقيرته" بقوله "إن الذئاب تسيطر على الكنيسة وتمتص دماء الشعب المسيحى".

كما هاجم الراهب " سافونا رولا **Savonarola**" فى أسلوب يفيض بالحماسة الدينيـــة والفصاحة والعنف رجال الكنيسة وعلى رأسهم البابا، وهاجم أيضا الاتجاه العام للنهضة ومـــا صاحبه من فوضى وانحلال، ودعا إلى السير على تعاليم المسيحية الـــصحيحة والاستمـــساك بالفضيلة، وترك حياة الفسق والمجون التى يحياها البابا "اسكندر السادس"، بقوله " أن الدين لم يكسب من أباطيل الحياة الزائفة كالحياة والمباهج سوى قتل العقيدة الخالـــصة، وان الكنيـــسة نفسها هى المسئولة لتأثرها وخضوعها لمادية العصر" كما أعلن عن سخطه على رجال الدين الذين أصبحوا رمزا للكسل الطفيلى الذى يعيش على مجهود غيره وطالب تلاميـــذه بدراســـة الكتاب المقدس والتعليق عليه. وقد استطاع "سافونا" رولا أن يجد السبيل إلى قلوب ســـامعيه، فكان أهل فلورنسا يتقاطرون على مواعظه، وكانت كلماته تؤثر فيهم فيذرفون الدمع غزيـــرا ومن الكتب الدينية التى كتبها سافونا رولا "رسالة عن التواضع" و "رسالة عـــن الـــصلاة" و "رسالة عن حب يسوع المسيح" و "رسالة عن حياة الأرامل" ونتيجة لهجوم سافونا رولا علـــى البابوية أصدر البابا فى ١٣ من مايو عام ١٤٩٧ قرار الحرمان ضده متهما أياه بنشر عقائـــد فاسدة بين الناس وعدم إطاعته لأوامره.

وعلى الرغم من ذلك فان "سافونا رولا" لم يعبأ بهذا القرار وكتب رســـالة فنـــد فيهـــا بطلانه وأعلن ضرورة مقاومة سلطة البابا الذى يعمل ضد تعاليم الكنيسة، والذى وصل إلـــى كرسى البابوية عن طريق الرشوة.

وعلى الرغم من وساطة البعض للعفو عن "سافونا رولا" والدفاع عنـــه فـــى رســـالة خاصة أرسلوها إلى البابا فان البابا أصر على تسليم الراهب الثائر إليه.

وبعد مشاورات ومداولات تمكن أعداء "سافونا رولا" من تقديمـــه إلـــى المحاكمـــة، وإعلان إعدامه شنقا مع حرق جثته، وقد تم ذلك بالفعل فى ٢٣ من مايو عام ١٤٩٨م وعلـــى الرغم من تخلص البابا وأنصاره من "سافونا رولا" فان حركته ظلت رمـــزا يحمـــل معنـــى الإصلاح الدينى فى أوربا إلى ان ظهر "مارتن لوثر" بدعوته الإصلاحية فى ألمانيا، كمـــا أن مهاجمته للبابا وللمفاسد التى ترتكب باسم المسيحية قد أسهم فى تحطـــيم الزعامـــة البابويـــة للكنائس الأوربية.

أما عن "مارتن لوثر" فقد قاد الثورة ضد الكنيسة فى المانيا، كما قادهـــا "كلفـــن" فـــى سويسرا وفرنسا، وانفصلت كنيسة إنجلترا عن روما، وقامت الحـــروب الدينيـــة بـــين اتبـــاع

الكاثوليكية والبروتستانتية. وعلى الرغم من ذلك فقد ظل البابوات على عنادهم يؤكدون سلطانهم الاستبدادى على الأرض.

وإلى جانب ذلك فبعد أن كانت اللغة اللاتينية هى لغة العلوم والآداب فى أوربا، ومن يجهلها لايستطيع مسايرة هذه العلوم نافستها اللغات القومية وتغلبت عليها وصرعتها، حتى اقتصرت على جماعة معينة من رجال الكنيسة، وأصبحت اللغات القومية هى لغة التخاطب ثم لغة الثقافة والأدب، واستقرت هذه اللغات كأداة للتعبير عن كافة الحاجات والمشاعر الإنسانية.

وبعد أن كانت طرق التجارة بين الشرق والغرب تقتصر على تحكم دول البحر المتوسط فيها نجحت رحلات البرتغاليين البحرية فى الالتفاف حول أفريقيا واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وتحويل التجارة إلى الدول المطلة على المحيط الأطلسى، وإنشاء الشركات التجارية وتأسيس المصارف والبنوك، وربط آسيا بأوربا عن طريق مائى جديد مما ساعد فى السيطرة على تجارة الشرق.

وبعد أن كانت الكشوف العلمية تتقيد بأفكار الكنيسة وآرائها أصبحت حدود العلم لاتقف عند حد فاكتشفت كروية الأرض كما اكتشفت مجموعات جديدة من الكواكب الفلكية وأمكن التعرف على معلومات جديدة عن النبات وعلم التشريح والأرض وما فى باطنها والبحار وما فيها من ثروات يضاف إلى ذلك أنه نتيجة لظهور المكتشفات العلمية عرفت الطباعة التى ساعدت على انتشار العلوم والآداب، ونشر آثار العصور الوسطى مع تراث العصور القديمة وثقافة عصر النهضة.

ومن المعالم الجديدة أيضا كان تغيير هيكل المجتمع الأوربى من النظام الاقطاعى "Feudal System" الذى كان مسيطرا على حياة المجتمع الأوربى إلى ظهور الطبقة الوسطى ونشأة المدن، ومنافسة التجارة والصناعة للزراعة مما أدى إلى إيجاد حالة من التوازن بين أفراد المجتمع.

يضاف إلى ذلك أنه بعد أن كان الأباطرة يسيطرون على مصائر الشعوب نمت الاتجاهات القومية **National State** ونشأت الدول التى تأسست بناء على مقومات موضوعية من أهمها طبيعة السكان وظروف بيئتهم وعلاقتهم الاجتماعية، واتحادهم فى لغة أو ثقافة معينة، وكانت إنجلترا وفرنسا وأسبانيا من أسبق الوحدات السياسية فى الظهور على حين تأخرت ألمانيا فى تحقيق وحدتها القومية حتى القرن التاسع عشر.

والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل نبتت النهضة الأوربية من فراغ أو ان هناك عوامل أثرت فى قيام وتشكيل هذه النهضة؟

الواقع أن رجال عصر النهضة لم يتخلوا عن تراثهم سواء اكان القديم ام الوسيط فقد اهتموا بدراسة التراث اليونانى واللاتينى وقاموا بمحاكاته والتعليق عليه ومقارنة بعضه بالاخر ثم استلهموا منه الروح الحديثة واتخذوا منه نماذج قاموا بمحاكاتها رغبة منهم فى الوصول إلى المزيد من الحقيقة والمعرفة.

يضاف إلى ذلك أنهم استفادوا من الحضارة العربية الاسلامية التى زحفت على أوربا منذ أواخر القرن الحادى عشر واقتبسوا منها وأضافوا إليها أيضا. وربما تساءل البعض من اين وصلت الحضارة العربية الإسلامية إلى هؤلاء؟

الواقع أن هناك عدة محاور نفذت منها الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا نذكر منها:-

١-شبه جزيرة أيبريا حيث حكم العرب هذه المنطقة حوالى ثمانية قرون من عام ٧٣٢ إلى عام ١٤٩٢م وكانت خلال هذه الفترة مركزا لامعا للحضارة والعلوم والفنون مما دفع طلاب العلم من غرب أوربا للرحيل إليها والارتشاف من مناهل حضارة المسلمين هناك وتأثرهم بما اطلعوا عليه من علوم الطب والرياضة والفلك والجغرافيا وما لمسوه من تقدم فى صناعة الحرير والورق والسكر.

٢-أدى فتح العرب صقلية عام ٨٧٨ ونشرهم للحضارة الإسلامية فيها أن نقل عنهم الأوربيون الكثير من علومهم وفنونهم، وأبرز الأدلة على ذلك أن "نيقولا بيزانو" أول رواد النهضة قد استمد مبادئه من مملكة صقلية ذات الطابع العربى.

٣-الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، والتى ساعدت على انتقال العديد من الأوربيين إلى بلاد الشرق والكتابة عما شاهدوه فى هذه البلاد، واقتباسهم للتأثيرات الفنية الإسلامية ونقلها إلى بلادهم، وجمعهم للمخطوطات القديمة ودراستها.

٤-فتح القسطنطينية وما أعقبه من وفود العديد من الأوبيين إلى هذه المدينة التى كانت تذخر بالتراثين البيزنطى والاسلامى، ومحاولتهم أحياء هذا التراث وجمع ما تبعثر منه.

٥-قدوم بعض الطلاب الأوربيين إلى بلدان العالم الإسلامى للدراسة فى جامعاتها مثل الأزهر فى القاهرة والمدرسة المستنصرية فى بغداد.

٦-ارتياد عدد من الرحالة الايطاليين لبعض مناطق العالم القديم فعلى سبيل المثال نجد الرحالة البندقى "ماركو بولو" يقوم برحلة إلى آسيا ويزور بلاد الصين ويكتب مشاهداته عنها مما فتح أذهان الإيطاليين تجاه تلك الأصقاع والحضارة الموجودة بها.

٧-انتقال التحف الإسلامية وتقاليد الفنون والصنائع الإسلامية إلى أوربا عن طريق الأوربيين الذين كانوا يسافرون للحج إلى بيت المقدس، وكانت تتاح لهم بذلك الفرصة للتعرف على أنواع الصناعات والفنون الإسلامية، كما كانوا يحملون معهم أيضا عند رجوعهم إلى أوطانهم كثيرا من التحف الفنية الإسلامية أحيانا بدافع الإعجاب بجودة صناعتها وحسن زخارفها، وأحيانا أخرى باعتبارها تراثا مباركا من الأراضى المقدسة.

٨-العلاقات التجارية بين أوربا والشرق الاسلامى كانت ذات أثر كبير فى اقتباس المظاهر الفنية الإسلامية. ولقد قامت المدن الايطالية بدور كبير فى هذا المجال إذ كان التجار الايطاليون يحملون المتاجر الإسلامية إلى أوربا، وكانت هذه المتاجر تشتمل على مختلف التحف الفنية الإسلامية، مثل المنسوجات الحريرية المطرزة بالرسوم الجميلة والزخارف العربية، والأدوات النحاسية المكفتة بالذهب والفضة وأوانى الخزف والزجاج والبلور الصخرى والمخطوطات الإسلامية المزوقة بالتصاوير وغير ذلك من منتجات الفنون الإسلامية المزينة بالزخارف المختلفة من صور وكتابات وحليات هندسية ونباتية وحيوانية.[١]

ومما سبق يمكن القول أن تاريخ أوربا الحديث بمقدماته السياسية والروحية قد بدأ فى إيطاليا ثم انتقل منها إلى باقى دول أوربا وأن فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة وهى ما يطلق عليها فى أوربا باسم "عصر النهضة الأوربية" كانت نقطة تحول أحدثت ثورة فى شتى مناحى الحياة فى أوربا. بسبب التغيرات الجوهرية التى أحدثتها فى تاريخ الحضارة البشرية والتى قامت عليها المدنية الحديثة. هذا عن تاريخ أوربا الحديث وبالنسبة للتاريخ المعاصر "Contemporary History" فانه يمكن القول إذا كان المؤرخون يختلفون

---

[١] حسن الباشا: تاريخ الفن فى عصر النهضة، ص ٣٢.

فى تحديد بداية التاريخ الحديث فكيف يتفقون فيما يتصل بدراسة التاريخ المعاصر، خاصة وان معظم الدول لازالت تختلف فى تحديد الوقت الذى يسمح فيه بالاطلاع على الوثائق الرسـمية، هذا بالإضافة إلى أن العديد من المؤرخين يتحفظون على الدراسات المعاصرة بحجة أن الكثير من الوثائق لاتزال فى طى الكتمان. الواقع أنه لم توضـع تعريفـات دقيقـة لتـاريخ أوربـا المعاصر، وأن كان هناك شبه اتفاق أن الذى يكتب فى التاريخ المعاصر يمكنه ان يرجع إلـى عصر الثورة الفرنسية وبالتحديد عام ١٧٨٩.

وهناك رأى آخر يقول أن ذلك التاريخ يبدأ بالثورة الصناعية ١٨٧٠ وعلى أى حـال فانه يمكن القول أن أوربا لم تعد حاليا محور الحوادث التاريخية فقد ظهرت بعد الحرب الثانية حركات التحرر في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وكان المؤرخون قبل ذلك يكتبون عن هذه القارات من وجهة نظر أوربية، ولكن الأحوال تبدلت وبدأ معظمهم يكتب من وجهـات نظـر مختلفة، ويبحث ماضى هذه الدول نفسها من داخلهـا وتركيبتهـا الاقتـصادية والاجتماعيـة والثقافية غير متأثر بتطور الحضارة الأوربية ومذاهبها.

وقد تتغير كل هذه الأمور فى عصر العولمة الذى بدأت ملامحه تتخذ أشكالا مختلفـة قد تتضح معالمها فى بدايات الألفية الثالثة من تاريخ العالم.

الفصل الأول

معابر الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا

انحصر العالم في العصور القديمة ، الوسطى في قارات ثلاث هي أوربا وآسيا وأفريقيا ، وكانت بلاد العرب ملتقى هذه القارات الثلاث خاصة بعد أن ظهر الإسلام ، وقامت على أكتاف العرب دولة إسلامية كبرى امتدت من المحيط أو كما يسمى بحر الظلمات غربا إلى حدود الصين والهند وإقليم الخليج شرقا ، وبعبارة أخرى فإن الدولة العربية الإسلامية استوعبت في منطقة الشرق الأدنى أجزاء واسعة من شمال أفريقيا وجنوب أوربا ، كما امتدت شرقا لتضم أجزاء واسعة في جنوب آسيا وغربها ووسطها ، هذا فضلا عن بلاد وأقاليم امتد إليها نفوذ العرب تحت مظلة الإسلام في غرب أفريقيا وشرقها ووسطها ، وهذه المناطق تشمل موقعا جغرافيا فريدا في ذلك الجزء المتوسط من العالم القديم حيث تتلاقى طرق المواصلات العالمية بين الشرق والغرب حاملة ثمرات الجهد الإنساني في الإنتاج الفكري والأدبي والثقافي والتجاري وغيره ٠

وقد تلقت أوربا آثار الثقافة العربية الإسلامية في العصور الوسطى في بداية الأمر عن طريق التجارة حيث كانت تنقل البضائع من آسيا إلى أوربا الشرقية والشمالية ٠ ثم شقت الحضارة الإسلامية طريقها إلى غرب أوربا بعد ذلك عن طريق عدة معابر أبرزها ثلاثة هي :

الأندلس ، وصقلية وجنوب إيطاليا ، وبلاد الشام والحروب الصليبية٠

وعن طريق هذه المعابر تمكنت أوربا من إحياء ثقافتها مرة ثانية ، وازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون ، وقد أكد ذلك "ألكسندر كوريه" Alexandre Koyre أحد أعمدة علماء الغرب المشهورين بقوله "إن العرب كانوا أساتذة الغرب اللاتيني ومثقفيه ، وأنهم لم يكونوا مجرد واسطة بينه

وبين الشرق اليوناني كما شاع القول • فلولا "ابن سينا" ولولا "ابن رشد" لكان ظهور "القديس توما" أمرا مستحيلا ، وأي مصير كان ينتظر المخطوطة الوحيدة من كتاب "إقليدس" لولا وجود العرب الذين ظلوا حتى القرن السادس عشر مرجعا في قرطبة يرحل إليه الأوربيون ؟ ولم يكن هناك من علم إلا العلم الذى في الكتب العربية ، كما أكد ذلك "روجر بيكون" Roger Bacon بقوله إن كل الثقافات الأدبية والعلمية في القرون الوسطى المسيحية كانت موسومة بخاتم الإسلام وعلامته •

ولكى تتضح هذه الصورة سنتعرض للمعابر التى وصلت منها الحضارة العربية إلى أوربا •

أولاً : الأندلس :

فتح العرب الأندلس في عام ٧١١م فكانت بذلك أول بلد يقتطعه العرب من أوربا المسيحية ويضمونه إلى دولة الإسلام ، ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٤٩٢م حكم العرب هذه المنطقة وتركوا بصمات حضارتهم عليها خاصة وأن العرب اختلطوا بأهل شبه جزيرة أيبريا وتعايشوا معهم واختلطت دماء المسلمين بدماء المسيحيين هناك عن طريق المصاهرة والزواج ، ونشروا دينهم ولغتهم وحضارتهم •

ونتيجة لذلك بدأت في الأندلس عملية امتزاج اجتماعي واسع النطاق بين مختلف العناصر ، ونتج عن امتزاج العرب بأهل البلاد الأصليين أن ظهر جيل جديد يعرف باسم "المولدين" ، كما اعتنق عدد من الإسبان الدين الإسلامى فعرفوا "بالمسالمة" ، هذا إلى جانب الطائفة التى احتفظت بديانتها المسيحية وعرفت باسم "المستعربين" لأنهم اختلطوا بالعرب وتأثروا بهم في لغتهم وسلوكهم وعاداتهم وملابسهم ونواحى حياتهم المختلفة ، ثم الأقلية

اليهودية التى كانت تعيش في إسبانيا قبل الفتح العربى والتى كان لها إسهام كبير في نقل العديد من عناصر الثقافة العربية إلى هذه البلاد ٠

. وقد عاشت هذه العناصر والأجناس المختلفة من عرب ومسالمة ومولدين ومستعربين ويهود جنبا إلى جنب يأخذ كل فريق عن الآخر ، وتؤثر كل جماعة في الجماعة الأخرى وتتأثر بها ٠

يضاف إلى ذلك أن المستعربين الذى كان تأثرهم باللغة العربية واضحا لم يقتصر دورهم على ترجمة الكتب الدينية بل كانوا وسيلة لنشر الثقافة العربية الإسلامية في شمال إسبانيا المسيحى فقد كانوا من راغبى الهجرة إلى المناطق المسيحية خاصة مملكتى قشتالة وأراجوان ٠

ونتيجة لذلك كانت إسبانيا نقطة التقاء هامة بين الحضارة الإسلامية الوافدة والحضارة اليونانية ، كما كانت مركزا لدائرة تشع على أوربا علوم وآداب وفلسفات وفنون العرب الأصيلة المبتكرة منها ، والممتزجة في بعض مكوناتها بحضارات إنسانية سابقة عليها ، فأشرقت شمسها بطريقة مباشرة وغير مباشرة على غرب أوربا ، ونقلت إليه جزءاً من التراث الذى ورثته عن العرب ، واحتفظت به بشغف في أرضها سواء أكانت قد طبعته بطابعها الخاص أو لم تطبعه ٠

وقد بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها بالأندلس في النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى عندما أصبحت "قرطبة" عاصمة الخلفاء الأمويين من أعظم المدن الثقافية في كل أوربا ، فكانت خزانة قصر الخليفة بها ما يزيد عن الأربعمائة ألف كتاب ، وكان كبار رجالات أوربا يفدون إليها للتزود من علومها ٠ واستمر نور المدنية الإسلامية ساطعا في الأندلس وبخاصة في الجوانب الثقافية والاقتصادية والفنية حتى امتد ليضئ غرب أوربا في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فأقبل الإسبان على استخدام اللغة العربية بل

فضلوها على اللاتينية وأصبحت الأندلس المركز الرئيسى لحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ، فاتجه كثير من أعلام النهضة الأوربية في القرن الثانى عشر إلى الأندلس للاستزاده من المعارف والعلوم العربيـــة ، وإلـــى جـــانب ازدهار الثقافة والعلم في الأندلس فقد اقترن حكم الأمويين هناك والـــذى زاد عن مائتى وثمانين سنة بأنه أزهى عصور الحضارة العربية فـــي إسـبانيا ، فتقدمت الصناعة تقدما باهرا ، وظهر نظام ممتاز للرى والمنشئات المائيـــة ، ودخلت منتجات زراعية من الشرق مثل الأرز وقصب الســـكر ، والنخيـــل والمشمش والرمان ، كما اشتهرت الأندلس بزراعـــة أنـــواع مختلفـــة مـــن الخضروات والفواكه لدرجة أن كثيرا من أسمائها دخلت في الإسـبانية مثـــل الباذنجان Berenyenas والخرشوف Alcarchofa والزعفـــران Azafran الـــخ. وقامت تجارة رائجة بين قرطبة والعديد من بلدان المسلمين ، ونشطت صناعة الحرب ذلك كله إلى جانب ازدهار العلم والفن ، فعذوبة الأشعار التى اشـتهر بها العرب انتقلت إلى الأندلس وغدا الشعر هناك معروفا بعباراته الجذلـــة ، كما ارتبط به الموسيقى والغناء . هذا بالإضافة إلى علم الفلك والتاريخ قـــد نظم شعرا ، ولقد أنجبت الأندلس عدداً كبيراً من العلماء والفقـــهاء والأدبـــاء والشعراء والمؤرخين والأطباء وغيرهم ، ممـــن أثـــروا الحركـــة الفكريـــة بمؤلفاتهم ، ووصلوا إلى العقل الأوروبي وأثروا فيه . ومن هـــؤلاء نذكـــر الفقيه "أبو محمد علي بن حزم القرطبى" (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م) الذى تظـــهر أصالته واعتزازه بنفسه ووطنه في كتاباته التي سبقت عصره . نذكر منـــها كتاب "طوق الحمامة في الألفة والآلاف" الذى يتناول فيه صفة الحب ومعانيـه وأسبابه وأعراضه . فنجده يعرض عن ذكر ما كتبه الأقدمون مـــن أشـــعار الغزل وبكاء الأطلال ويسلك طريقاً مستقلاً يبين نضجه وأصالته ، وقد اهتـــم الأوروبيون بهذا الكتاب واعتبروه أول دراسة نفسية تحليلية لعاطفـــة الحـــب والمحبين ، وترجموه إلى لغات عديدة . أما كتابه "الفصل في الملل والأهواء

والنحل" ، فهو عباره عن دراسة نقدية للأديان والمذاهب والفرق الدينية المختلفة ، ومقارنة بعضها بالبعض الآخر ، ويلاحظ أن هذا النوع من الدراسة ، وهو التاريخ المقارن للأديان لم يوجد في أوروبا إلا في القرن الماضى ، وهذا يرينا أصالة هذا الكتاب وإسهامه في الحضارة الإنسانية .

وما يقال عن "ابن حزم" يقال أيضاً عن معاصره وصديقة "أبى مروان ابن حيان القرطبي" (ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م) الذى يعتبر أعظم مؤرخ أنجبته إسبانيا الإسلامية والمسيحية في العصر الوسيط . فلقد ثبت من الأخبار التى أوردها في كتابيه "المقتبس" و"المتين" أنه على دراية واسعة ومعرفة دقيقة بكل ما يتعلق بتاريخ الأندلس وتاريخ الممالك الإسبانية المسيحية ، بل وأيضا بعض جوانب من التاريخ الفرنسي .

والواقع أن كتابات "ابن حيان" بالنسبة للباحثين الحديثين هى بمثابة خزانة علمية لهذا التراث الإسباني العربي بمختلف صوره وأشكاله ، ولا يمكن لأى باحث أن يستغنى عن قراءتها والرجوع إليها .

ومن أبناء "قرطبة" أيضا الجراح الشهير "أبو القاسم خلف الزهراوي" (ت٤٠٣هـ/١٠١٣م) الذي ينسب إلى منية الزهراء فى ضواحى غرب "قرطبة" وقد اشتهر في أوروبا باسم Abulcasis ويعتبر كتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف" ، موسوعة طبية مزودة برسوم الآلات الجراحية . ويعتبر "الزهراوى" بهذا العمل أول من جعل الجراحة علماً مستقلاً بذاته ، وقائماً على أساس من العلم بالتشريح . وقد ترجم هذا الكتاب من قديم إلى اللاتينية والعبرية . كما نشر في "حيدر أباد" بالهند كذلك أنجبت "إشبيلية" أسرة "بنى زهر" التى كانت لها شهرة وزعامة ومؤلفات في عالم الطب على عهد المرابطين والموحدين ، حتى صار اسم "ابن زهر" علماً معروفاً في الأوساط العلمية الأوروبية باسم Avenzoar .

أما في ميدان الفلسفة فحسبنا أن نذكر "أبا الوليد محمد بن رشد القرطبى" (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م) الذى اشتهر بشروحه لكتب أرسطو وصارت فلسفته تدرس في جامعات أوروبا مثل جامعة "باريس" وجامعة "بادوا" Padova في إيطاليا ٠ وقد بلغ من حب الأوروبيين لشروحه أن تخيلوا أرسطو بعمامة كما يقولون ، وذلك لأن كتاباته امتازت بالعمق في التحليل والقوة في الشرح والأمانة في الترجمة ٠ وقد أطلقوا عليه اسم المعلم الأكبر ويسمونه Averroes وقد وضعه الشاعر الإيطالي دانتي في ملحمته الشعرية "الكوميديا الإلهية" في منطقة اللمبو Limbo بين الفردوس والجحيم أى ما يقابل الأعراف في الإسلام ، ووضع معه "ابن سينا" و"صلاح الدين" من المشرق ، لأنهم من فضلاء الناس وتقديراً لأعمالهم ٠ ولقد ترجم "ميخائيل سكوت" أعمال "ابن رشد" إلى اللاتينية في مدرسة "طليطلة سنة ١٢٣٠م" فكان أول من أدخل فلسفة "ابن رشد" إلى أوروبا[١] ٠

لقد كانت بيئة الأندلس ملائمة لتلقى فنون المعرفة إذ اشتهر الأندلسيون بحب اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات ، وأخذت مصانع الورق في طليطلة تزود الأندلس بالأدوات الكتابية ، واستدعى النساخ من جميع أنحاء العالم ، وأصبح تجليد الكتب صناعة زاهرة ، وفي قرطبة وعلى ضفاف الوادى الكبير كان الأوربيون يفدون إليها لمشاهدة القصور الملكية ذات الحدائق والرياض والتى أطلق عليها المنيات والتى كانت أشهرها منية الرصافة التى بناها "عبد الرحمن الداخل" ٠

وفي إشبيلية بلد الجمال والحدائق الرائعة الغناء التى كانت تربطها شبكة من القنوات المائية التى ما زالت محتفظة بأسمائها العربية في

---

(١)موسوعة العالم الإسلامى ص ٦٢ ٠

اللغة الإسبانية مثل الساقية Acequia بمعنى الجدول الصغير والناعورة Noria والبقاع Vega كانت وفود الأوربيين تتجه إليها لطلب أدوات الترف والزينة وفرق الموسيقى والغناء ٠

أما في طليطلة فكانت الطريق الذى انتقل عنه كنوز المعرفة التي وصلت إلى أوروبا من الشرق ، فكما عرف العرب من اليونان بعض علوم الغرب القديمة ، عرف الغرب علوم الشرق عن طريق العرب في العصور الوسطى ، هذه كانت حالة الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس حتى القرن الحادى عشر الميلادى ٠

والجدير بالذكر أن التبادل الحضارى والثقافى بين الحضارتين ، الغربيه والشرقية في الأندلس لم يخضع للجانب السياسى أو العسكرى فلم تتوقف الصلات بينهما رغم النزاع الذى نشب بين الإسبان والمسلمين وانقلاب موازين القوى هناك ، فقد كان للأندلس الإسلامية حتى في عصور ضعفها واضمحلالها نفوذ كبير على إسبانيا المسيحية ، ولم يمنع تغيير موازين القوى لصالح الممالك النصرانية في إسبانيا والبرتغال من الاستفادة من ثقافة المسلمين والأندلسيين والاضطلاع بدور حمل عناصرها ونقلها إلى مختلف بلدان أوروبا ٠ فبعد سقوط طليطله في عام ١٠٨٥ على يد الفونسو السادس ملك قشتالة ظلت هذه المدينة محتفظة بصبغتها العربية ، فازداد تدفق طلاب العلم من مختلف بلدان غرب أوربا إلى إسبانيا للاستزادة من الدراسات الإسلامية وبلغت حركة التبادل العلمية أوج ازدهارها، فنشطت حركة الترجمة عن العربية نشاطًا كبيرا فتم ترجمة الكثير من مؤلفات العرب في مختلف الفنون إلى اللاتينية ، كما ترجم عن العربية العديد من مؤلفات اليونانيين مثل كتب "جالينوس" و"أبقراط" و"أفلاطون" و"أرسطو" و"اقليدس" وغيرهم [١] .

---

(١) سعيد عاشور : المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية ص ٥٢

وظلت طليطلة مركزا ثقافيا يجتمع في جنباته علماء المسلمين والمسيحيين واليهود ، وفي بلاط ملوكها المسيحيين بدأت حركة إحياء علمية . فبدأت هذه النهضة في عهد "ألفونسو السادس" واستمرت في عهد "ألفونسو السابع" الذى قام بحماية هؤلاء العلماء ورعايتهم وتشجيعهم على الاستمرار في جهودهم العلمية القائمة وقتذاك على الترجمة عن العربية فترجموا الكثير من الكتب العربية إلى اللغة القشتالية أولا ثم إلى اللغة اللاتينية بعد ذلك .

ولما تولى "ألفونسو العاشر" الملقب بالعالِم العرش الإسبانى دفع هذه الحركة العلمية دفعة قوية إلى الأمام وفي عهده استخدمت اللغة القشتالية (الإسبانية) بدلا من اللاتينية وتم الاستعانة في ذلك بعدد كبير من العلماء من مسلمين ومستعربين ويهود ، وأشرف "ألفونسو العاشر" على كل هؤلاء بنفسه ووضع لهم الخطط التى يسيرون بمقتضاها وبهذا الأسلوب استطاعت هذه المدرسة أن تصب كل تلك الأصول العربية واللاتينية في قالب قشتالى ، وأن تخرج إنتاجا أدبيا وتاريخيا خالدا على مر العصور[1] .

وقد نشطت حركة الترجمة في العديد من مناطق الأندلس منها برشلونة وطرزونة بالإضافة إلى طليطلة التى كان لها شأن كبير في هذه الحركة ، إذ أنشأ Raimune "ريموند" رئيس أساقفة طليطلة مركزا كبيرا للترجمة من العربية في النصف الأول من القرن الثانى عشر ، وفيه تمت ترجمة كثير من المصادر العربية إلى اللاتينية .

وخلال هذه الفترة قام "روبرت الشسترى" بترجمة القرآن الكريم لأول مرة إلى اللاتينية كما ترجم "الخوارزمى" في الرياضيات فضلا عن بعض

---

(١) جمال الشيال ومختار العبادى : معابر انتقال الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا ص ٣٣٦ .

المؤلفات العربية في الفلك والكيمياء وقام "جيرارد" بترجمة أكثر من سبعين مؤلفا تناولت مختلف ألوان المعرفة وبخاصة الرياضيات والطبيعة والكيمياء والطب ٠

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد برز في أوائل القرن الثالث عشر "ألفرد" الإنجليزى وميخائيل سكوت الاسكتلندى ، وهرمان الألمانى وجميعهم عملوا في ترجمة المراجع العربية بإسبانيا ٠ وهكذا كانت الأندلس بمثابة المعبر الأول الذى عبرت عليه الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا ٠

ثانيا : صقلية وجنوب إيطاليا :

ساعد موقع صقلية الجغرافي بين ساحل إيطاليا الجنوبي والساحل التونسى إلى جعلها حلقة اتصال حضارى وسياسى بين أفريقيا وأوروبا ، وإلى اعتبارها معبرا رئيسيا لنقل التراث الفكرى والحضارة الإسلامية إلى أوروبا ليس فقط خلال مدة حكم المسلمين لها والذى زاد عن قرنين ونصف من الزمان (٨٢٧-١٠٩١)، والذى حظيت خلاله خاصة في عصرى الأغالبة والفاطميين بحكم إسلامى مزدهر ، انتشرت خلاله الحضارة الإسلامية في مدنها المختلفة حيث انتشرت المساجد والقصور والحمامات والمستشفيات والأسواق والقلاع ، هذا إلى جانب الصناعات التى أدخلوها كصناعة الورق والحرير والسفن والفسيفساء ذات الرخام الملون ٠ كما استخرجوا المعادن المختلفة كالكبريت والنفط والنوشادر والرصاص والحديد ، وشاركوا في أمور الزراعة والتجارة ونشروا عاداتهم وثقافتهم ولغتهم بين الناس ، وإنما استمرت هذه العلاقة خلال فترة حكم النورمانديين لها (١٠٩١-١١٩٤) ثم في فترة تبعيتها للإمبراطورية الألمانية ، أيضا إذ بلغ التأثير الحضاري الإسلامي ذروته في عهد الإمبراطور فردريك الثالث (١٢٠٨-١٢٥٠) واستمر حتى خروج المسلمين النهائى من صقلية ثم من جنوب إيطاليا في نهاية القرن الثالث عشر الميلادى وتجمعهم في شمال أفريقيا ٠

ومن يتتبع أخبار الحركة الفكرية في صقلية خلال هذه الفترة يمكنه القول أنها استمدت ثقافتها العربية الأولى ، واقتبست تراثها الفكرى من علماء بلاد المغرب والأندلس ، كما أن هذه الحضارة ازدهرت ازدهارا كبيراً وعاش فيها مسيحيو الغرب مع المسلمين جنبا إلى جنب ، فمن المعروف أن الفتح العربى لصقلية ، والذى كان يضم بجانب الجند العلماء والفقهاء انطلق أساسا من تونس ، وأن قائد الجيش الفاتح لصقلية كان الفقيه "أسد بن الفرات" ، كما أن العديد من فقهاء القيروان قد نزلوا إلى صقلية بعد فتحها للقيام بواجبهم الدينى والعلمى بالجزيرة ٠

وبالإضافة إلى انتقال العلماء المغاربة إلى صقلية فإن بعض أهالى صقلية انتقلوا بأنفسهم للتعلم على أيدى علماء المسلمين في المغرب مما يؤكد أن القيروان لعبت دوراً أساسيا في توجيه الفكر والثقافة في صقلية ٠

يضاف إلى ذلك أن بلاد الأندلس مثلت رافدا ثقافيا مهما لصقلية ، فقد ساهمت في ازدهار الثقافة والعلوم العربية في هذه الجزيرة ونتيجة لذلك بروز علماء صقليون في شتى العلوم والمعارف وقادوا الحركة الثقافية داخل بلادهم ثم نقلوها خارجها ، حيث كان الغرب يفيد من حضارة الإسلام وثقافته ، علما بأن الحضارة الإسلامية لم تنته بانتهاء حكم المسلمين للجزيرة وإنما وجدت من حكم النورمان خير مشجع لها فظلت الثقافة العربية قائمة حيث شمل بلاط الملك روجر الأول (١٠٩٢-١١٠١) العرب هناك بعنايته واهتم بالمحافظة عليهم وعمل على حمايتهم ، وترك لهم قضاتهم وعين منهم الكثيرين في الوظائف الحكومية ، كما عين فرقة منهم في جيشه واحتضن الثقافة العربية وكتب مراسيمه بالعربية إلى جانب اللاتينية ، وصك على إحدى وجهى النقود كتابات بالعربية ، وعلى الوجه الآخر كتابات لاتينية ويونانية ٠ وهكذا سارت صقلية في أيامه مملكة نصف إسلامية في دينها ونظامها الإدارى والعسكرى ، وقد سار خلفاء روجر على طريقته فكان بلاط "روجر الثانى"

(١١٠١-١١٥٤م) يجمع بين الثقافتين العربية واليونانية واللاتينية ، كما كـان الملك روجر يتكلم ويقرأ العربية ويلبس الملابس الشرقية ، ويساير بلاطه مـا كان متبعا في العديد من القصور الإسلامية[١] ، وقد بلغ من تسامح هذا الملـك وحبه للعدل والمساواة أنه كان يضرب نقوده باللغـات العربيـة واللاتينيـة واليونانية . وقد امتلأ بلاطه في مدينة بالرمو Palermo بعدد مـن شـعراء المسلمين وعلمائهم وكان يرجع إلى مستشاريه العرب في العديد من شـئونه ، كما استدعى إلى بلاطه العالم الجغرافي الكبير "محمد الإدريسـى" (١١٦٤-١١٦٥) وكلفه بعمل خريطة للعالم فلبى الإدريسى طلبه ورسم لـه خريطـة للعالم المعروف في عصره على دائرة فضية مسـطحة Planisphere طولـها ثلاثة أمتار وعرضها متر ونصف . كذلك ألف له كتاب "نزهة المشتاق فـي اختراق الآفاق" لوصف هذه الخريطة ، ويعرف هذا الكتاب أيضـاً بالكتـاب الروجاري أو كتاب روجار لأنه هو الذى طلبه منه .

وقد اهتم العلماء والمستشرقون بهذا الكتاب العظيم وعملوا على نشـر أجزائه وترجمتها إلى اللغات المختلفة . وحسبنا أن نشير إلى الطبعة العلميـة الحديثة التي أخرجها المستشرقون الإيطاليون لهذا الكتاب في سبعة أجزاء .

وهكذا نرى أن الملك روجار الثانى كان على حد قول العالم الإيطـالي "ميشيل أماري" ، سلطاناً عربياً يحمل تاجاً كملوك الإفرنـج ، وأن تسـامحه الدينى أدى إلى امتزاج الثقافات العربية واليونانية واللاتينية ، فصارت صقلية معبراً من المعابر الأساسية التى عن طريقها انتقل تراث الحضارة الإسـلامية إلى أوروبا مما كان له أثره في قيام حركة النهضة المعروفة باسـم حركـة الرنيسانس Renaissance في أواخر العصور الوسطى .

---

(١) سعيد عاشور : المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية ص ٥٥ .

ثم خلف روجار الثانى ابنه وليم الأول (١١٥٤-١١٦٦م) الذى سار على سياسة أبيه وجده في حماية المسلمين وتشجيع الدراسات العربية الإسلامية ، وكانت علامته مثل علامة أبيه "الحمد لله وشكراً لنعمته" .

ثم خلفه ابنه وليم الثانى (١١٦٦-١١٨٩م) الذى تشبه بملوك المسلمين، وأتقن اللغة العربية قراءة وكتابة ، واختار من رعاياه المسلمين وزراءه وحراسه وجواريه تاركاً لهم حريتهم الدينية ، وكانت علامته "الحمد لله حق حمده" .

وبعد وفاة "وليم الثانى" تولى مقاليد الحكم في صقلية "فردريك الثانى (١١٩٤-١٢٥٠م) ابن "هنرى السادس" امبراطور ألمانيا . وبهذا صار إمبراطوراً على ألمانيا وعلى مملكة الصقليتين التى تشمل بلاد نابولي وجزيرة صقلية . وبذلك انتقل الحكم في صقلية من الأسرة المالكة النورماندية إلى أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية . وقد تفرغ الإمبراطور فردريك للدراسة والاستفادة من الثقافات السائدة في عصره وهى العربية واليونانية واللاتينية. ولا شك أن التراث الحضارى الضخم الذى تركه العرب والنورمان في صقلية وجنوب إيطاليا ، كان له أثر قوي في تكوين شخصية هذا الملك . وقد تجلى ذلك بوضوح في اهتمامه بالثقافة العربية ، وترجمة مآثرها العلمية ، وجنوحه إلى السلم في حل مشاكله السياسية ، وإقامة علاقات ودية مع ملوك مصر والشام من الأيوبيين .

وكان فردريك الثانى شغوفاً بالعلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، وكثيراً ما كانت تعترضه فيها مشكلات علمية ولا يجد من العلماء المحيطين به من يقدم له حلا شافياً لها . فكان يرسلها إلى أصدقائه من ملوك المسلمين لعرضها على علماء بلادهم والإجابة عنها من ذلك مثلاً ، المسائل الرياضية والفلكية التي أرسلها إلى الملك الكامل والتي أجاب عنها العالم الرياضى المصري علم الدين قيصر الأسفونى (نسبة إلى قرية أسفون بالصعيد) فبعث

بها الملك الكامل إليه مع كتاب في علم الفلك على سبيل الهدية . كذلك أرسل فردريك مجموعة من الأسئلة الفلسفية إلى الفيلسوف الصوفي الأندلسى "ابـــن سبعين" وهي مسائل عن الكون والنفس والعلم الإلهى .. الخ ، أجاب عنـــها "ابن سبعين" وقد عرفت باسم "المسائل الصقلية" .

ولما ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب عرش مصـــر ، ســـار علـــى سياسة الود والصداقة التى اتبعها والده الكامل نحـــو صقليـــة وتبـــادل مـــع الإمبراطور فردريك الثاني السفارات والهدايا ، نذكر السفارة المصرية التـــى رأسها الشيخ "سراج الدين الأرموي" الذى أقام مدة في صقلية ، وألف كتاباً في المنطق للإمبراطور فردريك .

ثم خلف الإمبراطور فردريك ولده مانفرد Manfred الذي لم يكـــن أقـــل عناية من أبيه بالثقافة العربية ولاسيما العلوم الرياضيـــة والطبيعيـــة . وقـــد عاصر هذا الإمبراطور دولة المماليك الأولى في مصر والشام علـــى عـــهد السلطان بيبرس ، وتوطدت بينهما أواصر الصداقة والمودة كما كان الحال في عصر الأيوبيين ، فيروى المؤرخ "جمال الدين بـــن واصـــل" أن الســـلطان "بيبرس" اختاره على رأس سفارة إلى الإمبراطور مـــانفرد ســـنة ٦٥٩هـــ (١٢٦١م) وأرسل معه هدية من جملتها عدد من الـــزراف ، وجماعـــة مـــن أسرى عين جالوت من التتار بخيولهم وعدتهم ، فأعجب الإمبراطور بالهديـــة وأحسن إلى الرسل وأكرمهم . ويصف "ابن واصل" مقابلته للإمبراطور بقوله "فأقمت عنده مكرماً بمدينة من مدائن أبوليا (جنوب إيطاليا) يقال لـــها برلـــت Barletta ، واجتمعت به فوجدته متميزاً ، محباً للعلوم العقلية ، يحفظ عشـــر مقالات من كتاب إقليدس في الهندسة . وبالقرب من البلد التي كنت نازلاً بها مدينة تسمى لوجارة Lucera أهلها كلهم مسلمون من أصل جزيرة صقليـــة ، وتقام الجمعة فيها ، ويعلن فيها بشعائر الإسلام ، وهى على هذه الصفة مـــن عهد أبيه وكان قد شرع في بناء دار علم بها ليشغل فيها بجميع أنواع العلـــوم

النظرية • وأكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة مسلمون ، ويعلن في معسكره بالأذان والصلاة"[١] •

وهكذا خلف العرب وراءهم في صقلية تراثا ضخما من الحضارة العربية، كما تركوا في الجزيرة في خزانات الكتب عددا كبيرا من المؤلفات في مختلف ألوان العلوم والآداب •

وهكذا كانت صقلية هى المعبر الثانى الذى انتقلت عن طريقه الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا ، فقد أسهمت صقلية بنصيب مباشر في حركة الترجمة عن العربية حيث كانت في "سالرنو" حركة نشطة لترجمة العلوم العربية والإغريقية إلى اللاتينية ، فقد تم ترجمة الكثير من الكتب العربية خاصة في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ففي عام ١١٥٠م ترجم أيوجينوس البالرمى Eugenius of Palermo كتاب بطليموس السكندرى في المرئيات العربية ، وفي سنة ١١٦٢ ترجمت عن العربية إلى اللاتينية كتابات أخرى في الفلك والرياضيات •

ولا شك أن قسطنطين الأفريقى كان له دور كبير في حركة الترجمة وكان من أهم أعماله ترجمة كتاب على بن عباس المجوسى المعروف بكامل الصناعة أو الكتاب الملكى وسمى باللاتينية Liber Regius وكانت ترجمة هذا الكتاب فتحا في الطب اللاتينى خاصة وأنه كان أول شرح واضح للعلم الطبى عامة •

وهكذا أفادت أوروبا من الحركة العلمية التى قام بها العلماء في صقلية ، وكان أثرها في النهضة الأوروبية من الأمور التى يصعب تجاهلها •

---

(١) موسوعة العالم الإسلامى ص ٦٩-٧٠ •

ثالثاً : بلاد الشام والحروب الصليبية

كانت بلاد الشام هى منطقة اللقاء الثالث بين الشرق والغرب في العصر الوسيط إبان الحروب الصليبية ، فعلى الرغم من أن هذه الحروب ، التى بدأت في عام ١٠٩٧م وسقط آخر معاقلها على يد السلطان المملوكى "الأشرف خليل قلاوون" في عام ١٢٩١م كانت في مظهرها ترتدى الرداء الدينى فإنه كانت هناك عوامل أخرى سياسية واجتماعية واقتصادية أقوى من العامل الدينى ، فقد أسهمت ظروف تلك الحروب على المزيد من التعارف بين الجانبين ، حيث نشأت صلات حضارية وتجارية بين الشرق الإسلامى والغرب الأوربى استطاع خلالها بعض محاربى الحملات الصليبية أن ينقلوا بعض المعارف عن الزراعة والملاحة والصناعة وغيرها من شرق البحر المتوسط إلى أوربا ، بمعنى أن هذه الحروب ، استخدمت كمعبر انتقلت عليه المدنية الإسلامية إلى أوروبا ، كما برز منها جوانب مثمرة ومفيدة فى العلاقات بين العرب والأوربيين فأخذ كل فريق من الآخر بعض سماته الحضارية ٠

وإذا تتبعنا بعض المؤشرات الحضارية التى تأثر بها الفرنج خلال الحروب الصليبية ، نجد أنها كثيرة ومتنوعة :

فمن الناحية الاجتماعية ، نجد أن الصليبيين ، نظرا لقلة عدد النساء الفرنجيات اللاتي صحبن المقاتلين ، أقبلوا على الزواج من المواطنات المسيحيات من الموارنة والأرمن وبعض الأسيرات المسلمات ٠ وقد نشأ عن هذه الزيجات جيل من المولدين عرفوا باسم بولانى Pulani ، وقد غلب على هؤلاء في طبائعهم وعاداتهم الطابع الشرقى ٠ كذلك أخذ الصليبيون يكيفون حياتهم في الشرق حسب مقتضيات الحال والمناخ ، فارتدوا الملابس الشرقية الفضفاضة واسعة الأكمام ، وأطلقوا لحاهم ، وأكلوا الأطعمة الشرقية ، وسكنوا القصور والبيوت ذات الطراز الشرقي حيث الأحواش أو

الأفنية الداخلية التى تتوسطها النافورات والورود والأزهـار ، وتحيـط بـها الغرف والقاعات ذات المشربيات المحلاة بالزخـارف المخرمـة المفرغـة المنوعة ، كذلك استخدموا في ولائمهم وجفلاتهم الراقصات والمهرجين كمـا يفعل المسلمون ٠

أما من الناحية الاقتصادية ، فنجد أن الصليبيين ، استفادوا من المشرق الإسلامى استفادة كبيرة لدرجة أن بعض المؤرخين اعتبر الحركة الصليبيـة حروبا اقتصادية ٠ ففي ميدان الزراعة نقل الصليبيون عن المسـلمين إلـى أوروبا نباتات وحاصلات وأشجار جديدة لم يعرفوها من قبل وسموها بأسمائها العربية مثل السكر والأرز والليمون والقطن والسمسم ٠٠ الخ ٠

وفي ميدان الصناعة ، عرفوا كثيرا من المصنوعات الإسلامية ونقلوهـا إلى بلادهم مثل المنسوجات الحريرية الموشاة التي اشتهرت بها الشام وتعرف باسم البروكار Brocart والأقمشة القطنية التي **كانت** تصنع بدمشـق وسـميت باسمها "الدمشقيات Damask ، وأقمشة الموصل Musilin ومنسوجات العتابيـة في بغداد Tapis ٠ هذا إلى جانب صناعة الورق والصابون والخزف والزجاج والأصباغ والحلي والعقاقير ٠٠ الخ ٠

أما التجارة ، ، فقد انتعشت بين الشرق والغرب بشكل لم يعـرف مـن قبل ٠ فكانت قوافل المسلمين ترد إلى الموانئ الصليبية على سـاحل الشـام تحمل سلع الشرق كاللؤلؤ والأحجار الكريمة والعاج والعطور والبهار (Spices) وكان على تجار المسلمين عند دخولهم تلك الموانئ أن يدفعوا ضريبة علـى بضائعهم وكانوا يعاملون في تلك الموانئ معاملة طيبة ، ولهم فيها خانـات أو فنادق ينزلون فيها ببضائعهم ودوابهم ٠ ومن الطريف في هذا الصـدد ، أن حركة التجارة بين الجانبين ظلت مستمرة ولم تتوقف حتى في أوقات الحروب بينهم ، وقد نص على ذلك الرحالة المعاصر ابن جبير عند قوله "واختـلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع ، وأهـل الحـرب

مشتغلون في حربهم ، أما الرعايا والتجار فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلما أو حربا" ٠

وكان من نتائج ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، أن ظهرت المدن التجارية في أنحاء أوروبا ، وهي ظاهرة جديدة أدت إلى اجتذاب الفلاحين إلى المدن وانهيار النظام الإقطاعى ٠٠ كذلك ظهر نظام المصارف في تلك المدن التجارية ، وكثيرا ما عاونت هذه البنوك الطبقات الحاكمة بالقروض المالية وتحالفت معها ضد رجال الإقطاع ٠ وقد نتج عن هذه المعاملات المالية إصدار صرف يعرف بالصك أو الشيك ، وكذلك السفاتج جمع سفتاجة بمعنى الحوالة ، وهي أنظمة مشرقية الأصل ٠

وهكذا شهدت الفترة بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ازدهارا في العلاقات التجارية ين العرب وأوروبا بشكل لم يكن معروفا من قبل ٠

ومن الناحية المعمارية العسكرية ، نلاحظ أن العمارة الإسلامية أضافت إلى التراث الفني العالمي نظماً لم تكن معروفة من قبل مما جعل لها في العصور الإسلامية طابعا مميزا ٠ ومن أمثلة ذلك أشكال العقود ، وأنظمة المساجد والمدارس والقصور والحمامات والأضرحة ٠ كذلك ابتكر المسلمون المداخل ذات المرافق أو المنعطفات المتعددة في المدن والحصون الإسلامية ٠ والغرض من ذلك التحكم في العدو المهاجم من باب الحصن عبر هذه الممرات الضيقة الطويلة الملتوية ٠ ومن أمثلة هذه المداخل عند المسلمين مدينة بغداد التي كانت أبواب أسوارها الخارجية لا تقع في سمت واحد مع أبواب أسوارها الداخلية ، بل مزورة عنها ويفصل بينهما دهاليز **ومنعطفات ملتوية لأغراض دفاعية ، ولذا أطلق على بغداد اسم "الزوراء" ٠**

وقد طبق هذا الأسلوب الحربي بشكل أفضل في قلعة الجبل (المقطم) بالقاهرة في عهد صلاح الدين الأيوبى ، في القرن السادس الهجري ، وفي

قلعة حلب في القرن السابع الهجري ، وفي قـــلاع المرابطيــن والموحديــن بالمغرب ٠

ولقد انعكس هذا الأسلوب المعماري العسكرى على الحصون والقـــلاع التى شيدها الصليبيون في الشام أو في أوروبا بعد ذلك مثـــال ذلــك حصـــن الأكراد Crac de chevalliero في شمال شرق طرابلس الـــذى أعــاد فرســان الاسبتارية تشييد قلعته على مثل هذا النظام الرائع الذى ما زالت آثاره باقيـــة إلى اليوم ٠ كذلك ابتكر المسلمون نظام "السقاطة" التى انتقلت إلى الغرب باسم ماتشيكولي Machicoli وهى عبارة عن شرفة صغيرة من الحجارة أو الخشـب تبرز من الحائط ولها فتحات من أسفل ، وتقام فوق أسوار الحصن ، فيستطيع المدافعون من خلال هذه الفتحات إلقاء المقذوفات أو السائل الحار أو العـــذرة على المهاجمين ، وقد استعار الصليبيون نظام هذه السقاطات وطبقـــوه فـــي قلاعهم في شمال الشام وفي أوروبا ٠ ومن أمثلة ذلك قلعة جابار التى شـيدها ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، على نهر السين عقب عودته من الأراضى المقدسة ٠ هذا إلى جانب نقلهم عن العرب فكرة استخدام الحمام الزاجل فـــي إرسال الرسائل العسكرية إلى القوات المحاربة ٠

أما من ناحية التأثير الثقافي ، فإنه يبدأ منذ أن أخذ كل فريق يتعـــرف على الفريق الآخر ، ويحاول أن يكتب عنه حاضره وماضيه ٠ ولقد أنجـــب عصر الحروب الصليبية نخبة من المؤرخين المعاصرين شرقيين وغربييـن ، كل يمثل وجهة نظره في تلك الحروب ، فتوفرت من هذه الحقبـــة الصليبيـــة مادة خصبة لم يتوفر مثلها من قبل ٠

وقد عكف المؤرخون الأوروبيون في العصر الحديث على جمع هـــذه المادة الوفيرة في موسوعة علمية باسم "مجموعة مؤرخي الحروب الصليبيـــة Recueil Des Historiens des Croisades (PARIS 1841 - 1906) (١٨٤١-١٩٠٦) وهي تضم ما كتبه المؤرخون المشارقة في خمسة مجلـدات

تحت عنوان : Historiens Orientaux وما كتبه المؤرخون الغربيون في خمسة مجلدات أيضا تحت عنوان : Historiens Occidentaux ومن بين كتاب المسلمين الذين كتبوا عن العلاقات بين المسلمين والصليبيين نذكر الرحالة الأندلسي محمد بن جبير الذى زار الشام في أواخر القرن السادس الهجرى (١٢م) ووصف التعارف المشترك بين المسلمين والمسيحيين في الإمارات الصليبية .

وهناك كانت آخر عاصر ابن جبير وأمدنا بمعلومات هامة عن علاقات المسلمين بالصليبيين بالشام ، وهو اسامة بن منقذ (ت٥٨٣هـ/١١٨٨م) أحد فرسان بني منقذ والذى كانت له مع الصليبيين مشاكل وحروب وصداقات ونوادر أوردها في "كتاب الاعتبار" وتتضمن صورا مقارنة بين عادات المسلمين والفرنجة ، شاهدها أو عاينها بنفسه ، لقد كان أسامة موضع إطراء معاصريه وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبي الذى كان معجبا بشجاعته وشعره .

أما المؤرخ الحموي جمال الدين بن واصل (ت٦٩١هـ/١٢٩٧م) فقد أورد في كتابه "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" بعض المعلومات الهامة عن لويس التاسع ملك فرنسا أثناء حملته على مصر ، وعن الإمبراطور منفرد بن فردريك الثاني حينما قابله كسفير للسلطان الظاهر بيبرس .

وهناك مؤرخ حموي آخر اسمه محمد بن على بن نظيف قدم لنا في كتابه "التاريخ المنصورى" صورا لبعض الخطابات المرسلة من الإمبراطور فردريك الثاني إلى أحد الأمراء يروي له فيها بعض أخبار دولته وما جرى فيها من أحداث عقب رجوعه من حملته في فلسطين (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) .

أما المؤرخون الأوروبيون الذين وصفوا حروبهم في المشرق وكتبوا عن المسلمين وبلادهم فهم عديدون أيضا ، نذكر منهم وليم الصوري William

(١١٣٠-١١٨٤م) الذى اتصل بالملك عموري الأول وصار مربيـا of Tyre **لأولاده ، وظل يتدرج في المناصب حتى صار كبيرا لأساقفة صور ٠ ومـن أهم مؤلفاته كتاب في تاريخ الحروب الصليبية منذ قيامها سنة ١٠٩٦م حتـى آخر أيامه ١١٨٤م بعنوان "تاريخ الأعمال التى تمت في بلاد ما وراء البحـو"** Historia reum in partibus transmarinis gestarum **، والكتاب يتضمن معلومات مفيدة عن مصر وأحوالها الداخلية في أواخر العصر الفاطمي ، وكذلك عـن تجارتها في البحر الأحمر مع بلاد الهند" ٠**

ولا يفوتنا أخيرا أن نشير إلى المـؤرخ الفرنسـي دى جوانفيـل De Joinville (القرن ٧هـ/١٣م) الذى صحب الملك لويس التاسع في حملته على مصر وأسر معه فيها ، وكتب عنه كتابا بعنوان "القديس لويـس" وأورد فيـه معلومات هامة عن مصر والمماليك ٠

وهكذا نرى أن الحروب الصليبية ، وإن كانت قد سفكت فيـها دمـاء غزيرة إلا أنها كانت مهمة لهذا اللقاء الحضارى بين الشـرق والغـرب ، إذ انمحت الصورة القديمة التي كانت في مخيلة الصليبيين عن المسلمين ، فلـم يعودوا يرونهم جنودا جبناء ، أو قساة غلاظ القلـوب ، بـل شـهدوا مـن حضارتهم الراقية وشجاعتهم في القتال وورعهم في الصلاة وسماحتهم فـي معاملة أهل الأديان الأخرى ، ما أطلق ألسنتهم بالإعجاب والتقديـر ، وقـد صدق المؤرخ الإنجليزى هرنشو Hearnshaw حينما عبر عن هذا الإعجـاب بقوله : خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلـوس عنـد أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة عندما رأوا المسلمين على حضارة دنيوية ترجح خضارتهم رجحاناً لا تصح معه المقارنة بينهما" ٠

وعلى الجانب الآخر من العالم الإسلامي ، فقد انعكست العلاقات الثقافية والتجارية بين المسلمين وأوروبا ، على التواصل الحضاري بين الحضـارتين الإسلامية والغربية ، إذ كانت القسطنطينية نقطـة الالتقـاء والمعـبر لـذاك

التواصل والتفاعل ، فحين كان المسلمون يواصلون ضغطهم على القسطنطينية باعتبارها مفتاح الطريق إلى أوروبا الشرقية ، هجر قسم من علماء بيزنطة ، المدينة مزودين بكتبهم الكلاسيكية وبحصيلتهم الثقافية نتيجة الاتصالات الثقافية مع العالم الإسلامي ، وخاصة مع الأندلس وبلاد الشام وانساحوا في أوروبا ، وعلى الأخص منطقة البحر المتوسط ، فأسهموا في التعجيل بالنهضة الأوربية[1] .

وهكذا كانت الحروب الصليبية ميدانا للكسب الحضارى ففيه بدأت محاولات الغرب المنظمة للاقتباس من حضارة العرب وكانت كفة العرب في هذه العلاقات هى الراجحة فقد كانوا يملكون من مقومات الحضارة المادية والعقلية ما يستطيعون أن يقدموا منه لأوروبا ، بينما لم تكن أوروبا حتى القرن السادس عشر تملك من المقومات التى تمكنها من أن تضيفه لتراث العرب . لهذا أخذ الأوروبيون من العرب أكثر مما أعطوا ، فاقتبسوا الكثير من علوم العرب وفلسفتهم وعمارتهم وفنونهم العسكرية وصناعتهم وتجارتهم وحياتهم الاجتماعية وتأثرت لغاتهم وآدابهم ومجتمعاتهم إلى حد كبير باللغة العربية والآداب العربية والحياة العربية ، يضاف إلى ذلك أن العرب كانوا يملكون مفاتيح التجارة التى يحتاجها الأوروبيون مثل التوابل والعقاقير وغيرها من منتجات الشرق المعروفة .

وقد حرص العرب على استمرار علاقتهم التجارية مع أوروبا نظرا لأنهم كانوا يحصلون على أرباح كثيرة منها هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا لا يجدون حرجا من الاتصال بهذه الشعوب الأوروبية فقد ملأهم النصر في الحروب الصليبية المتأخرة ثقة في قوتهم ، واعتدادا برجحان تفوقهم ،

(١)موسوعة العالم الإسلامى ص ٧٣-٧٥ .

فقد استطاعوا إخراج الصليبيين من الشرق ، وهاهم يرون سلاطين المماليك ينتزعون قبرص ، والأتراك العثمانيون أصبحوا قوة إسلامية ذات بأس ، والعرب والمسلمون لم يثقوا في قوتهم وكفايتهم لمواجهة أوروبا فحسب وإنما وثقوا في تفوق حضارتهم بعد أن شهدوا نوع الحياة التى يحياها أبناء الغرب في ذلك الوقت في العصور الوسطى ، فقد كان الأوروبيون أقل حظا من العرب في العلم والثقافة والاقتصاد والسياسة وظلت الأمور على ذلك سنين حتى مال الميزان تجاه أوروبا ورجحت كفتهم في ميزان الحضارة والقوة[١]٠

وعلى الرغم من كل ذلك وبالرغم من أن الحروب الصليبية كانت لها أثار سياسية وعسكرية واجتماعية ، كما أنها كانت إحدى مواطن الاتصال بين الحضارتين الإسلامية والغربية فإنها لم تكن ذات تأثير كبير مثل الأندلس وصقلية خاصة في النواحى الثقافة والعملية ٠ ويرجع ذلك إلى أن معظم الأوروبين الذين شاركوا في الحملات الصليبية كانوا قليلى الحظ من الثقافة ، وليس لديهم قدر كاف من الحضارة تسمح لهم باستيعاب العلوم العربية ولم يظهر بينهم عالم بالمعنى الحقيقي سوى "وليم الصورى" الذى يعد من أكبر مؤرخى القرون الوسطى ٠

يضاف إلى ذلك أن الصليبيين لم ينعموا خلال تواجدهم بالشرق بفترة من الهدوء اللازم حتى يتمكنوا من البحث والدراسة والتعمق في العلم ٠

رابعا : حركة الترجمة :

وبالإضافة إلى هذه المعابر الثلاثة ، كانت توجد خطة منظمة لترجمة معارف المسلمين ، ونقلها إلى اللاتينية في العصور الوسطى ، فانصرف الأوروبيون لدراسة علوم المسلمين بحماس بالغ مما ترك أثره الواضح

---

(١)أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ص ١٧-١٨ ٠

في الفكر الأوروبى • فبعد أن ترجم العرب تراث العالم القديم في العلم والفن والأدب والرياضة والفلسفة ، وكل ما وقع تحت أيديهم من معلومات خلفتها الحضارات السابقة ترجموا كتبا في الكيمياء عن مصر القديمة ، وترجموا عن اليونان كتب الطب والرياضيات والفلك والجغرافيا والفلسفة والأدب والموسيقى ، وترجموا عن الفرس كتب الأدب والشعر والتاريخ والأخبار وأحكام النجوم ، وترجموا عن الهنود كتب الطب والفلك والرياضيات والتاريخ والأدب والموسيقى ، وترجموا عن الأنباط كتاب الفلاحة النبطية وبعض كتب السحر والأصنام وغير ذلك • وبذلك اكتمل لديهم تراث الفكر الإنسانى في مجمله ، والحق أن شعوبا عديدة في منطقة شرق البحر المتوسط كان لها اليد الطولى في إرساء حضارة الإنسان فقد تناوبت العمل والابتكار على مسرح التاريخ • فعندما أصبحت الحضارتان المصرية والبابلية في حاجة إلى دفعة جديدة وجدتاها في الحضارة اليونانية ، وعندما ذبلت الحضارة اليونانية وكادت تطمس حضارتهم وجدت الحضارة في العرب تلك القوة الدافعة التى حملت المشعل الذى كاد ينطفئ ، فأضاءوه من جديد ثم نقلوه بدورهم إلى أوروبا[١] • فمن الثابت أن النهضة الكبيرة التى شهدتها أوروبا منذ القرن الثانى عشر والتى كانت أهم بواكير عصر النهضة ارتبطت إلى حد كبير بالتراثين اليونانى والإسلامى عن طريق حركة ترجمة واسعة عن العربية واليونانية •

لقد عرف الغرب العلوم العربية عن طريق الترجمات في العصور الوسطى ، فنلاحظ في القرن الحادى عشر أن قسطنطين القرطاجنى" قضى ثلاثين عاما متنقلا في ربوع الشرق وشمال أفريقيا بهدف دراسة علوم الطب

---

(١) جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمى ص ٤٨٦-٤٨٧ •

العربى ، ثم واصل بعد ذلك في سالرنو ليدرس ما قام بجمعه ، وأخيرا استقر بأحد الأديرة ليترجم المؤلفات العربية إلى اللاتينية ٠

كذلك درس " أبلارد" الإنجليزى أثناء رحلاته إلى إسبانيا والشرق المؤلفات الرياضية والفلكية لدى العرب وترجمها إلى اللاتينية ٠

وأسس أسقف طليطلة مدرسة للترجمة لنقل كتب فلاسفة العرب القدماء إلى اللاتينية وهكذا تلقت أوروبا علوم المسلمين ودرستها واستفادت مما فيها ، وأضافت إليها كذلك وعلى أى حال فإن النهضة الأوربية لم تكن من صنع حضارة واحدة ، خاصة وأن الأفكار العظيمة التى تحدث تحركات كبرى بين البشر تكون دائما نتيجة لجهود جيل أو أجيال من الرجال ، والجيل كله بل الأجيال المتوالية كلها هى التى تصنع التغيير العظيم الحاسم ، فحركة التجديد الغربى أو التنوير لم تكن عمل بلد واحد أو منطقة بعينها بل هى ثمرة عمل جماعى مشترك أنجز سلسلة ضخمة من المنجزات تعاون فيها أبناء أجيال عديدة كان منهم العرب الذين بذلوا جهودهم بعد أن استفادوا من غيرهم من الحضارات الأخرى لدرجة أنهم أصبحوا بمثابة المجموعة الحضارية الأم التى عم إشعاعها جميع أرجاء المعمورة ، وتهيأت أسباب التقدم الحضارى لبقية أجزاء العالم الأخرى ٠

* *

الفصل الثانى

عصر النهضة الاوربية

عصر النهضة وصف يطلق على تلك الحقبة التى نشطت فيها حركة احيـاء العلـوم والمعارف والآداب والفنون فى إيطاليا ثم انتقل منها ببطء إلى ألمانيـا وفرنسـا وبريطانيـا والأراضى المنخفضة وأسبانيا ثم إلى بقية دول أوربا . ويرجع بداية ظهور عصر النهضة فى ايطاليا إلى عدة أسباب من أهمها:

١-موقع إيطاليا الجغرافى فى البحر المتوسط مكنها من أن تؤدى دور الوسيط فـى الناحيـة الاقتصادية بين الشرق الاسلامى من ناحية وباقى دول اوربا من ناحية أخرى مما سـاعد الايطاليين على أن يكونوا على اتصال وثيق مع مدن هامة فى الشرق مثـل يافـا وعكـا والقسطنطينية.

٢-ما خلفته الأمبراطورية الرومانية من الكنوز الدفينة من الآداب والعلوم هذا إلـى جانـب تراث روما السياسى القديم عندما كانت موطنا للامبراطورية الرومانية القديمة.

٣-تواجد مقر البابوية فى ايطاليا والمتمثل فى البابا وكرادلته وسيطرته الدينية والدنيوية، جعل الايطاليين يشعرون بسيطرة بلادهم الدينية على باقى جهات أوربا.

٤-تأثر الايطاليين بالثقافة العربية الإسلامية، واقتباس الكثير منها لاسيما فى مجـال العلـوم الرياضية والفنون.

٥-الهدوء النسبى الذى تمتعت به إيطاليا وبخاصة فى القرن الخامس عشر المـيلادى فبينمـا كانت الدول الأوربية تخوض حروبا واسعة فيما بينها كانت إيطاليا تنعم فى رخاء وسـلام مما مكن أبناءها من التفرغ للبحث والاطلاع والاندفاع بعجلة التطور إلى النمو والازدهار.

٦-بروز العديد من الفنانين العظماء الذين تشربوا هذه الروح الجديدة واستطاعوا أن يجسموها فى إنتاجهم، ويعبروا عنها فى أعمالهم، وقد حاول كل من هؤلاء الفنانين الإسهام فى تمثيل جانب من النهضة وبذلك صار رائدا من روادها.

٧-احتدام التنافس بين المدن الايطالية، جعلها تتسابق فى المجالات الأدبية والفنية، مما شجع القرائح على الابداع فى شتى المجالات وأنجب كوكبة من العلماء والفلاسفة والأدباء والمفكرين.

٨-توفر بعض المطابع فى المدن الإيطالية ساعد على انتشار الفكر والثقافة.

٩-وجود العديد من المخطوطات الإغريقية واللاتينية فى المكتبات الايطالية، وتملك بعض المثقفين الايطاليين لزمام هاتين اللغتين مكنهم من فك طلاسم كثير من المخطوطات والتعرف على محتوياتها.

١٠-اتساع النشاط الفكرى بين الايطاليين، وقلة الحواجز الطبقية بينهم جعل لايطاليا قصب السبق فى تبنى النهضة الأوربية.

وعلى كل حال فقد اتخذت النهضة الأوربية فى بداية أمرها أشكالا متنوعة اختلفت مظاهرها من بلد إلى آخر ففى إيطاليا اتخذت مظهرا فنيا وثقافيا وعلميا وأدبيا، كما تمثلت فى الانغماس فى اللهو والملذات والترف.

وفى المانيا كان مظهرها الإصلاح الدينى. وفى فرنسا وجه الأدباء جل اهتمامهم إلى الإبداع القصصى والتحليل النفسى، وتحقيق المؤلفات القديمة، والتعليق عليها وفى بريطانيا برز الاهتمام بالمسرح والأدبيات، وكان من أبرز أدبائها "وليم شكسبير".

أما فى أسبانيا والبرتغال فقد تغنى الأدباء بالفروسية، وبالصفات التى يتحلى بها الفارس. ومع كل ذلك فإنه يمكن القول بأن لعصر النهضة سمات عامة ومظاهر تعبر عن روح العصر بأكمله.

وعن بوادر النهضة فى ايطاليا فقد بدا المفكرون والمثقفون يهتمون ببعث وإحياء الدراسات الأغريقية واللاتينية واتخاذها مصدرا للإلهام والوحى، فدرسوا مؤلفات "أرسطو" و"سقراط" و"فرجيل" ووضعوا القواميس التى تساعد على تفهمها كما بدأوا فى التنقيب عن المخطوطات والآثار والاستفادة منها، وقد عرف هؤلاء باسم الانسانيين **Humanists** لأنهم صوروا الحياة الانسانية بصراحة وصدق، وكان حبهم للثقافة واضحا وكان من أبرز هؤلاء، الايطالى "بترارك" الذى أعجب بالطبيعة وتذوق مناظرها الجميلة التى تؤثر فى الإنسان والذى كرس حياته لدراسة اللغة اللاتينية باعتبارها لغة الأدب الرفيع التى عرفت أيام قيصر وشيشرون، وكتب بها بعض قصائده كقصيدة افريقيا التى تحدث فيها عن الحروب بين روما

وقرطاجنة، وأستمر فترة من الزمن لا يقرأ مؤلفات "دانتى" المكتوبة بالايطالية حتى لا يتــأثر بها ويقلده فى الكتابة بتلك اللغة.

وقد مثلت كتابات "بترارك" الذى يعرف بأب الحركة الإنسانية روح عــصر النهــضة فشاعت عنه أفكارا جديدة منها ضرورة أن يهتم الناس بحياتهم الدنيوية، ومنها نقده للكنيــسة، ومطالبته بإقامة وحدة سياسية بين الولايات الايطالية، حتى تصبح أمة قائمة بذاتها وبعيدة عن نطاق الإمبراطوية. ومنها دعوته للأمراء ورجال السياسة فى إيطاليا بالكف عن منازعــاتهم. ومنها أيضا كراهيته للحكم الاستبدادى المطلق.

ومع أن البعض مثل "كولادى رينزى" قد حاول وضع آراء "بترارك" السياسية موضع التنفيذ أثناء حركته التى حاول بها توحيد إيطاليا وجعل روما العاصمة للجمهورية الإيطاليــة الحديثة، إلا ان هذه الحركة لم يتحقق لها النجاح ولم تتحقق أفكار "بترارك" على بساط الواقــع فى حياته.

وعن النهضة الفنية فقد تجلت فى أبرز مظاهرها ومعانيها فى إيطاليا حيث كان الميل كله منصبا على التعبير عن المثل الأعلى فى النحت، وعلى احياء الفــن الكلاســيكى فــى جوهره. فبرع الإيطاليون فى دراسة الفنون الجميلة والتصوير واهتموا بالآثار القديمة وأخذوا فى محاكاتها والارتفاع بمستواها مع مسايرة روح العصر الذى يعيشون فيه فدب فى الفنــون الكثير من روح التغيير وتحرر الكثير من الفنانين من قيود التقاليد واتجهوا إلى الإسراف فــى الاهتمام بأمور الدنيا بصراحة بالغة والارتفاع بمستوى الفنون فاخرجوا إنتاجــا فنيــا ملائــا بأحاسيس الناس، كما صوروا الطبيعة وعبروا عنها تعبيرا فنيا رائعا، وقد ساعد على تطــور هذه النهضة الفنية العديد من الحكام والأمراء الذين تباروا فى رعاية الفنون وتنافــسوا علــى امتلاك العديد من النفائس الفنية مما مهد الطريق أمام الكثير من الفنانين الذين أمــاطوا اللثــام عن جمال آثار الماضى، ونهضوا بالفنون أمثال " ليوناروْ دافنشى" و " ميخائيل انجلــو" و رافائيل". وفيما يلى نعرض لهؤلاء ودور كل منهم فى النهضة الفنية.

١- ليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci [١٤٥٢-١٥١٩]

ولد دافنشى فى بلدة فيشى الجبلية فى ١٥ من أبريل ١٤٥٢م وامتــاز بتعــدد ملكاتــه واتساع ثقافته، فقد برع فى الطبيعة والميكانيكا وفى تصميم آلات الحرب والنحــت والرســم

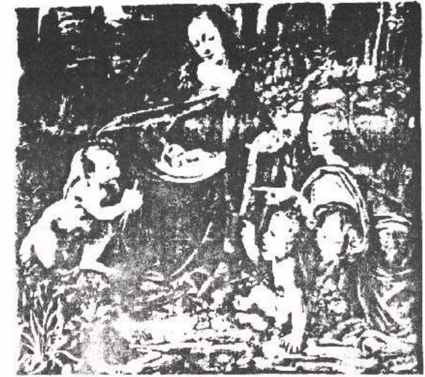
والتصوير والمعمار وعلم وظائف الأعضاء والرياضة والأدب وعلوم الطبيعة وعلم التشريح والجغرافيا. هذا إلى جانب كونه موسيقيا وشاعرا، مما دفع البعض إلى وصفه بأنه كان موسوعة علمية ضمت شتى العلوم التطبيقية وبأنه النابغة الفذ الذى لم يماثله فى نبوغه أحد من معاصريه.

وقد احتمل "دافنشى" المشاق فى سبيل البحث عن الحقيقة العلمية دون كلل أو ملل. كما امتاز فنه بالعمق والبناء الهندسى والرقة. هذا إلى جانب القدرة على التعبير عن مكنون النفس البشرية، ومع أن لوحات "ليوناردو" الأولى ليست معروفة كلها، فان من أعظم اعماله صورتيه الشهيرتين عذراء جروتو **Virgino the Grotto** أحداهما فى متحف اللوفر فى باريس، والأخرى فى المتحف الوطنى فى لندن، وصورة العشاء الأخير **Last Super** فى كنيسة سانتا ماريا فى ميلانو، والتى دل فيها على ابداعه، وتعمقه فى إدراك النفس البشرية وانفعالاتها وردود أفعالها وذلك فى المنظر الرائع الذى جمع المسيح وحوارييه الأثنى عشر – على مائدة وضع عليها الخبز وأقداح الشراب. وهو يعلن لهم أن أحدهم سوف يخونه فما كان من تلاميذه إلا أن اتجه بعضهم إليه وبعضهم إلى بعض متسائلين متألمين خائفين. وقد ظهر وجه المسيح بصفائه الروحانى وهدوئه فى حين كانت صورة الانزعاج تبدو على وجوه اتباعه.

ولدافنشى أيضا رائعته الشهيرة " موناليزا" أو "الجيوكندا" فى متحف اللوفر فى باريس وهى صورة لسيدة شابة جميلة كانت زوجة لضابط يكبرها سنا أسمه " فرانشسكو جيوكندا" وكان هذا الضابط قد أصيب فى رجولته أثناء الحرب مما جعله غير قادر على ممارسة الحياة الزوجية معها مما حرمها متاع الزوجية فى ربيع حياتها ويبدو أن هذه المرأة قد راق جمالها لحاكم فلورنسا.

وقد قام دافنشى بوضع كل طاقاته وإمكاناته ومواهبه الفنية خلال رسمه لهذه الصورة التى استغرقت منه أربع سنوات ١٥٠٢ – ١٥٠٦ فخرجت معبرة عما تحمله موناليزا من مشاعر دفينة وعواطف عميقة حزينة ووداعة ممزوجة بجاذبية نادرة.

وتعد الموناليزا اشهر الانجازات الفنية لدافنشى، حيث أنها تعد من أجمل صوره بلا منازع، فهى بألوانها الطبيعية الخلابة تمثل الجمال الايطالى فى أسمى مظهر له.



« العذراء بين الصخور » أتمها ما بين عامي ١٤٥٢ و ١٥١٩ وتوجد حاليا بمتحف اللوفر في باريس



« الجيوكوندا » احدى اللوحات الخالده لليوناردو

موناليزا ـ زوجة فرنسسكو جيوكندواحد صاغ جسر مدينة فلورنس استهوى جمالها الفنان ـ ليوناردو ـ فحرص على ان يسجل صورتها في مدى اربع سنوات كانت توافيه في خلالها يوميا بمرسمه وجاءت الصورة من ابدع ماوصل اليه خياله في ادراك معنى الجمال صادقة التعبير عما تكنه دخيلة المرأة الشابة التي خاب املها في زواجها من فرنسسكو العجوز وكانت ابتسامة موناليزا فتنة المصور ومصدر الهامه فكان يستأجر بمرسمه الفرق الموسيقية والمازحين ليستعين بهم على حفظ تلك الابتسامة الصادقة بينما يشتغل بتصويرها

ولما مات ليوناردو بين ذراعي الملك فرنسوا الاول في سنة ١٥١٩ دفع الملك ١٢,٠٠٠ فرنكا ذهبا الى ورثة الفنان ثمنا لصورة الجيوكوندا التي ظلت وقتا طويلا بقصر الملك في فونتابلو ثم انتقلت الى متحف اللوفر حيث هي الآن .

وهذه اللوحة لا تزال موضع أعجاب الكثيرين حتى الآن ينبهرون بروعتها، ويصر بعضهم على أن فيها سحرا غامضا يتمثل فى تلك الابتسامة الغامضة التى تحمل سرا كامنا فى نفس صاحبتها ويسعى حاليا الهواة من الأثرياء لاقتنائها، كما سعى اللصوص لسرقتها ولكنها ما زالت محفوظة فى متحف اللوفر فى فرنسا حيث شاهدها ويشاهدها الملايين من الناس.

وإلى جانب ذلك فقد ترك "دافنشى" بعض مؤلفاته التى تدل على موسوعيته وسعة علمه وتعدد مواهبه ومن هذه المؤلفات كتاباه البديعان " قواعد علم التصوير" وفيه تحدث عن التصوير وفنونه، و " مذكراته" التى تناول فيها بحوثا فى التشريح والجيولوجيا والنبات والميكانيكا وغيرها.

وقد توفى "دافنشى" فى عام ١٥١٩م، بعد أن دفع النهضة الفنية فى بلاده خطوات رائدة، ووضع بصماته فى صنع عصر كامل وكان له الفضل فى تأسيس منهج جديد فى التصوير جعله نابضا بالحياة، ووصل بتسجيله للواقع إلى ابدع ما يمكن الوصول إليه وهو المثل الأعلى فى الجمال فكان عبقرية جامعة يندر أن توجد مثلها موهبة تمتلك كل تلك الملكات والمهارات التى أمتع البشرية بها.

٢- مايكل انجلو Michel Angelo [١٤٧٥ - ١٥٦٤]

ولد فى السادس من مارس ١٤٧٥ فى كابريزه وتلقى أولى دروسه فى التصوير عام ١٤٨٨ كما عرج إلى دراسة النحت الاغريقى ووجد فيه غايته.

ويعد انجلو عبقرية ملهمة، وشخصية من ابرز شخصيات الفن ومن أبرز رواد النحت فى عصر النهضة حيث طغت أعماله الفنية على جميع أعمال معاصريه، خاصة وأنه مزج فى فنه بين الآراء الافلاطونية المحدثة وتعاليم سافونا رولا وروح دانتى، وإلى جانب ذلك كان متعدد الثقافة واسع الافق، وأما طابعه فيتلخص فى انه استطاع ان يرتفع بفنه حتى أصبح مضرب الأمثال فى الجمع بين سمو الخيال، وجمال الاقتباس هذا إلى جانب روعة الإنشاء. فقد نظم الشعر وبرع فى التصوير وهندسة البناء، واشتهر بوفرة انتاجه الفنى، الذى أعطاه طابعا من الألم والقوة والرقة والجمال والسمو فى آن واحد. كان الغاية عنده أن يظهر الجسم البشرى إظهارا جميلا ساميا، مليئا بالقوة نابضا بالحياة.

ومن أشهر أعماله نحته للمجموعة الرخامية الشهيرة التى تمثل العذراء والطفل واتمامه مبنى كنيسة القديس بطرس فى روما. وقيامه بعمل تمثال موسى عليه السلام فى روما الذى يعد من أعظم أعماله وقد أظهر فيه بوضوح قوة العضلات وقبضة اليد وجمال اللحية وملامح الوجه التى بدأ عليها الغضب والألم والانفعال لما حاق بشعب إسرائيل من العذاب لدرجة أن وصفه البعض بأنه أروع آيات الفن فى العالم ومما يقال عن انجلو بعد نحته لهذا التمثال أنه صاح به أن ينطق ثم سقط مغشيا عليه.

وإلى جانب ذلك قام "انجلو" بنحت تمثال داود من الرخام وقد نصب هذه التمثال أمام قصر أمارة فلورنسا. كما قام بنحت ورسم سقف كنيسة بالفاتيكان، هذا بالاضافة إلى رسمه للعديد من اللوحات الحائطية التى يقدر عددها ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ لوحة. وقد عبر انجلو فى تماثيله عن روح العصر الذى عاش فيه، واستمد فنه من الظروف المهيئة أمامه ومن المعانى التى أحسها بنفسه، وكرس له كل وقته لدرجة أن كان يعمل معظم وقته وهو مستلقيا على ظهره فوق منصة عالية حتى أخرج للبشرية فنه الرائع الذى أحبه لدرجة العشق وإذا قارنا فنه بتراث الأغريق نجد أن الفارق بينهما يتلخص فى عنف انجلو فى الاخراج، وتخيره للمواقف الصعبة، ومواقف الاضطرار والضغط راغبا فى ذلك اظهار قوة الإنسان وجمال بنيانه. وقد توفى انجلو فى عام ١٥٦٤ بعد حياة فنية مليئة بالجمال بمعناه الفلسفى ودفن فى احدى كنائس فلورنسا.

٣- رفائيل سانتى Raffaello Santi [١٤٨٣ - ١٥٢٠]

يميز عصر النهضة بظهور عدد عظيم ممن توافرت فيهم الكفايات والعبقريات الملهمة فى عالم الفن من هؤلاء "رفائيل" الذى يعد ثالث العمالقة الكبار فى فن النحت والتصميم والرسم فقد درس أعمال دافنشى ومايكل انجلو وتلقى الكثير عنهم فى أثناء وجوده فى فلورنسا، كما استفاد منهم فى أعماله الفنية، فقد استفاد من دافنشى طريقة توزيع الضوء والظل فى لوحاته، كما تأثر بعبقرية مايكل انجلو فى توضيحه لمعالم الجسم الانسانى ثم فاقهما فى الابتكار والابداع واختلف عنهم فى بعض الأحيان وقد رسم رافائيل لوحات عديدة للعذراء مريم. كما دعاه البابا يوليوس الثاني سنة ١٥٠٨ للتوجه إلى روما حيث قام بتزيين قاعات الفاتيكان وزخرفة بعض غرفه وإلى جانب ذلك له روائع فنية أخرى تدل على عبقريته مثل



رافائيل



عذراء الكرسي والمسيح الطفل - رافائيل

"مدرسة اثينا" و " السر المقدس" الذى لخص فيه تاريخ الكنيسة وقد شغل رفائيل فى السنوات الخمس الأخيرة من عمره منصب الرئيس الأعلى لبناء كنيسة القديس بطرس، وتعمق فى دراسة الآثار ومعرفة أسرار الفن القديم.

وقد توفى رافائيل فى عام ١٥٢٠ عن سن لا يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره بعد أن ترك انتاجا ضخما فى ميدان التصوير والعمارة. وعلى كل حال فان دافنشى وانجلو ورافائيل يشتركون معا فى إبراز معالم النهضة الفنية فى إيطاليا لدرجة جعلتها فى طليعة ما قدمه الفنانون للبشرية من ابداع فقد اخرجوا لها إنتاجا فنيا افتخرت به العديد من الأجيال وعدته نبراسا لها فى محاكاته. ومجمل القول أن رفائيل كان فنانا لانظير له عاش قليلا ولكنه انتج كثيرا. يضاف إلى ذلك أن عصر النهضة حفل بالعديد من المفكرين الذين طرحوا افكارهم وآراءهم فى شتى ميادين الحياة وفى الفكر السياسى وأصول الحكم وكان من أبرز هؤلاء "نيقولا ميكافيللى"، و"دانتى" وفيما يلى نعرض لأبرز أعمال كل منهما.

أولا: نيقولا ميكا فيللى Miccolo Machiavelli [١٤٦٩ – ١٥٢٧]

ولد ميكافيللى فى مايو ١٤٦٩ بمدينة فلورنسا المدينة الايطالية الشهيرة (التى كانت دولة قائمة بذاتها) من عائلة نبيلة[1] وعاش زمن سافونا رولا وآل مديتشى**Medici**.

وقد درس ميكافيللى العلوم السائدة فى عصره فتعلم اللاتينية ودرس الآثار الرومانية واليونانية، وكذلك التاريخ ثم برز اهتمامه فى الدراسات السياسية والتاريخية فقرأ السياسات لأرسطو، وقرأ خطب شيشرون وكتبه السياسية كما قرأ الانيادة لفرجيل، وكان حريصا منذ صباه على تثقيف نفسه ثقافة تاريخية وسياسية.

وقد خدم ميكافيللى فى حكومة فلورنسا لمدة ١٨ سنة وخلالها كلف بعدة مهام دبلوماسية، والتقى بالكثير من الأمراء والسفراء والحكام، ومن هذه اللقاءات عرف الكثير عن الحكم وطبائع الحكام ولقد اشتهر ميكافيللى فى عالم السياسة بمؤلفه الشهير " الأمير **The Prince**" الذى كتبه عام ١٥١٢ موضحا فيه الاستبداد من الناحيتين النظرية والعملية

---

[1] كان والده يعمل فى القضاء، ويمتلك بعض العقارات.

وأهداه إلى حاكم فلورنسا لورنزودى مديتشى **Lorenzo de Medici** والذى يمكن اعتبـاره وثيقة تاريخية لدراسة الأخلاق السياسية فى إيطاليا فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر.

كما برزت آراؤه السياسية أيضا فى كتابه المسمى " المقالات أو الخطط" وبالنسبة لكتاب الأمير فقد استمده من ظروف إيطاليا المضطربة والمنازعات والخصومات التى تلاحقها وهو عبارة عن آراء ونصائح للحاكم لكى يخرج إيطاليا من الفوضى إلى حياة الاستقرار وقد صور فيه اميرا وطنيا يستطيع انقاذ إيطاليا من الانقسام الذى تعانيه ويتمكن من توحيدها والقضاء على الغزو الخارجى الذى يتهددها. وأن يتبع من أجل تحقيق هذه الأهداف أى وسيلة ولو كانت دما يراق أو عهودا تمزق أو أعراضا تستباح، فدعا إلى مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" عن طريق تركيز السلطة فى يد حاكم قوى فى فترة مؤقتة تنتهى إلى الحياة الديمقراطية وقد أبرز ميكافيللى فى كتابه عدة نظريات سياسية منها أن خير حكم يرجوه لبلاده هو الحكم الاستبدادى المستنير الذى لا يهتم بالفضيلة أو الرذيلة ولايعبأ بالأخلاق أو المثل إذا كانت ستقف عقبة فى طريق النجاح وأنه يجب الفصل بين الأخلاق والسياسة، لأن السياسة لامكان فيها للأخلاق، ولا مانع للحاكم. من استعمال البطش والقسوة والخداع من أجل تحقيق الأهداف السياسية العليا للبلاد، ومن أجل اقرار الامن، ومنع الفوضى والاضطراب وضرب مثلا على ذلك بقوله إذا وجد قاطع طرق يعيث فى الأرض فسادا أو يعتصم فى منطقة نائية فلا غبار مطلقا على الحاكم الحريص على مصلحة شعبه من أن يؤمن هذا اللص ويتعهد له بالمحافظة على حياته ثم يغدر به فالنتيجة تبرر الوسيلة، وحذر ميكيافيللى الأمير من المداحين والمنافقين الذين يزينون له الأمور على غير حقيقتها وطالبه بالاعتماد على نصح مستشاريه المخلصين ثم يحكم بما يسمع بنفسه.

كما أوضح ميكيافيللى أن الإنسان ولد شريرا لا يفعل الخير إلا مجبرا وحاول أن يؤكد ذلك بدراسته لتاريخ الإنسان عامة عبر عصوره المختلفة، وأنه لايمكن الاعتماد على الطبيعة الانسانية فى إصلاح نفسها لذلك يجب على الحاكم أن يتخذ نفس هذا السلاح فلا يحافظ على العهود والمواثيق، وقواعد الأخلاق والدين، بل يجب عليه ، أن يتخذ كل أسلحة الغدر والشر، والمبادئ المنافية للآداب الإنسانية لإقرار الأمن فى المجتمع، وطالما أنه غير مجبر على تنفيذ وعوده فلا داعى لأن يقوم بتنفيذها، وعلى الرغم من ذلك فان ميكافيللى ينصح الحاكم بأن

يحاول دائما أن يكسب ثقة شعبه وصداقته لأنه الملجأ والملاذ فى أوقات الشدائد، بمعنى انــه يستخدم الشدة حتى يهابه الناس ويخشون بطشه، بشرط الا يترك الجراح تسيل دما بل يــصلح ما يمكن إصلاحه بمعنى أنه يجب على الأمير أن يكون أسدا وأن يكون ثعلبا أيضا.

والكتاب أيضا يشتمل على دراسات لتجارب الماضى والحاضر فيتطرق إلــى الحكــم اليونانى والإمارات الإيطالية منذ العصور الوسطى وحتى عصر النهضة وبه إرشادات يقدمها للأمير كى يستفيد منها فى أثناء حكمه، فتنصحه بأن يعمل لخير شعبه حتى يــأمن كراهيتــه، وفى نفس الوقت يكون طاغية وغادرا حتى يستطيع الاستمرار فى حكمــه، ويرهبــه النــاس ويخشون بأسه، ولما كان المال ضروريا لاستمرار الحاكم فى منصبه، فقد رأى "ميكا فيللــى" ضرورة توفر المال لدى الحاكم حتى يستطيع تدبير مصالح شعبه، فى حين كان يرى أن يظل الشعب محدود الثروة حتى يتحفز للعمل والإنتاج ورفع مستوى معيشته، لأنه لو تــوفر لديــه المال يركن إلى الكس والخمول.

وعلى الرغم من دفاع "ميكافيللى" عن استبداد الحاكم لشعبه فقد كان يــرى أن الحكــم الجمهورى الديمقراطى والحرية السياسية هما المثل الأعلى للحكم عنده.

ونادى "ميكافيللى" بتوحيد إيطاليا وطرد البرابرة الذين اعتدوا عليهــا فــى الــشمال، وطالب بضرورة تكوين جيش قوى يستطيع حماية الأمن الداخلى، وحذر من الاعتمــاد علــى جيوش دول أجنبية فى الدفاع عن الوطن، أو الاعتماد على جنــود مرتزقــة لأن هــؤلاء لا يقاتلون بحماس فى سبيل قضية يدافعون عنها بل أن هدفهم هو جمع المال فحسب، وكثيرا ما ينقلبون على مستأجريهم ويعيثون فى بلادهم فسادا، فإذا فشلوا فى مهمتهم تركوا الأمير يهلك، وإذا انتصروا انقلب رئيسهم على الأمير، وقد ضرب العديد من الأمثلة على ذلــك ومنهــا أن الجمهورية المسلحة التى يدافع عنها أبناؤها يكون خضوعها للاجنبى أصعب مــن خــضوع الجمهورية المحمية بجيش مأجور من المرتزقة.

وطالب "ميكيافللى" الأمير بالا يكون جاهلا بفنون الحرب حتى يظل محترما من جنده وأن يكون محاربا قادرا على احتمال الشدائد محتقرا للمأكل والمتعة وسائر أنواع الترف حتى ينال محبة جنده ومواطنيه.(1)

---

(1) نيقولا ميكافيللى: كتاب الأمير - تعريب محمد لطفى جمعة، القاهرة، مطبعة المعارف ١٢

وينصح "ميكافيللى" الأمير بأن يختار رجاله ومعاونيه من أصحاب المواهب العقلية الذين يصدقونه النصح حتى تصبح حكومته مثالية ويلتف حولها الشعب.

يضاف إلى ذلك أنه نسب إلى البابوية كل المصائب التى لحقت بايطاليا. ومما يؤخذ على كتاب "ميكافيللى" أنه ركز مقومات الدولة فى دعامتين هما الجيش والسياسة وأغفل مقومات مهمة أخرى مثل الدين والاقتصاد والثقافة.

يضاف إلى ذلك أنه سخر من الاديان بقوله " أن وضع دين جديد أمر سهل وميسور" كما أنه كان متشائما حين تغافل عن المقومات الانسانية وأخضع كافة الأمور، للسياسة، وحين طالب الشعب بأن يكون أداة مسخرة فى يد الحاكم.

ومما سبق يتضح أن "ميكافيللى" كان مؤرخا بلا قلب وقد بلور أفكاره فى كتابه "الأمير" كما يلى:-

١- أن يفصل الحاكم بين السياسة والأخلاق القومية، وان مصالحه وحدها هى التى يجب أن تراعى.

٢- أن يتخذ الحاكم كل الإجراءات اللازمة للوصول إلى غايته ولا مانع من استعمال البطش والخداع والخبث والجريمة من اجل تحقيق أهداف بلاده السياسية.

٣- أن توحيد ايطاليا والدفاع عنها يلزمه بناء جيش قوى من الإيطاليين أنفسهم، والابتعاد عن استخدام المرتزقة من الجنود، واعتبار الشعب أداة اساسية فى تحقيق أهدافه العليا.

٤- ضرورة فصل الكنيسة عن الحكومة حتى يمكن توحيد ايطاليا.

ونتيجة لذلك ظلت الميكافيلية لمدة تزيد على الأربعة قرون عالقة فى ذهن العالم خاصة فى شمال أوربا على أنها مرادفة لشئ شيطانى وخبيث، كما ظل "ميكافيللى" رمزا شهيرا للسياسى المتآمر والماكر والمنافق المجرد من الأخلاق والعديم المبدأ والمستهتر والذى تنحصر كل فلسفته فى أن الغاية تبرر الوسيلة، وأصبح كتاب الأمير ضروريا للطغاة كى يعلمهم كيف يحصلون على السلطة ويحتفظون بها، ففى ايطاليا وفرنسا وروسيا وأسبانيا اتخذت فلسفة "ميكيافيللى" دستورا للعمل. والواقع أن "ميكيافيللى" تجاهل أمورا كثيرة، مثل الدين الذى اعتبره جزءا من جهاز الدولة، أخضع الاخلاق للمصلحة السياسية، وقد نقلت افكار "ميكافيللى" إلى لغات عديدة منها العربية فقد عرفت مصر كتاب الأمير - أول ما عرفته فى

عصر محمد على حيث قام بترجمته – ترجمة ركيكة صعبة الفهم – مترجم سورى هو الأب انطون رفائيل زاخورة[1] بناء على أوامر محمد على.

والجدير بالذكر أن محمد على بعد أن قرأ الكتاب[2] فى عام ١٨٢٨ قال عنه " اعترف بأننى قد وجدته أقل بكثير مما كنت أتوقع، ومن الشهرة التى له".

وفى بدايات القرن العشرين عرفت مصر الترجمة الثانية لهذا الكتاب قام بها الأستاذ محمد لطفى جمعة، وقد طبعت فى عام ١٩١٢، وأسلوبها أكثر دقة ووضوحا وأقرب إلى الفهم من أسلوب الترجمة الأولى.

ومما سبق يتضح أن "ميكافيللى" ذلك السياسى الذى لعنه الساسة قد تتلمذ عليه الكثيرون منهم أما عن كتاب " الخطط" فقد وضع فيه "ميكافيللى" رؤيته التى تصورها لإنشاء دولة قومية موحدة فى إيطاليا على غرار ما حدث فى بعض الدول الأوربية الأخرى، وعد الدول فوق كل شئ خاصة وأنه كان يعتقد أن مصلحة الشعب مرتبطة بازدهار الدولة وتطورها.

وعلى كل حال فقد انتشرت آراء "ميكافيللى" فى بعض دول أوربا بعد وفاته فى عام ١٥٢٧ حيث حاول بعض ملوك أوربا تطبيقها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وحاولوا على فترات متباينة فى تاريخ بلادهم أن تكون الميكافيلية نبراسا لحكم بلادهم نرجع أن اصبح اسم ميكيافيلى علما على كل سياسى متشدد لا تقف الأخلاق أمامه عندما يقوم باقتراف افظع الآثام من أجل تحقيق غايته ونتيجة لذلك حرقت كنيسة روما كتابات ميكيافللى ووصمت ما كتبه باللعنة.

ومع كل ذلك فينبغى ان نذكر ان أفكار ميكافيللى يمكن ان تصلح لعصر بعينه، ولمجموعة معينة من الظروف، ولايمكن أن تكون نبراسا للحكام على مر العصور، بمعنى انه يمكن اعتبار كتاب الأمير أداة لازمة للاتّجاهات السياسية التى استعان بها الايطاليون وغيرهم فى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

---

(١) مخطوطة هذه الترجمة كانت موقوفة على مكتبة مسجد سيدنا الحسين ثم نقلت منها إلى دار الكتب المصرية حيث حفظت تحت رقم ٤٣٥ تاريخ.

(٢) ترجم هذا الكتاب إلى التركية أيضا لعدم اتقان محمد على اللغة العربية.

ثانيا: دانتى اليجييرى Dante Alighieire [١٢٦٥-١٣٢١هـ]

أما عن الشاعر السياسى دانتى والذى يعد من القمم العالية فى مجال الأدب العالمى فقد كان خير شاهد على نهاية عصر وميلاد عصر جديد خصوصا وانه عاش فى مفترق الطرق بين عصرين فتأثر بتقاليد العصور الوسطى وساهم فى الوقت نفسه بدور مهم فى إقامة العصر الحديث.[1] ونتيجة ذلك عرفت دول العالم قدره، فترجمت مؤلفاته إلى لغاتها كما وجد العديد من الكتاب فى مؤلفاته مادة غنية للدراسة وقد ولد دانتى فى مدينة فلورنسا عام ٩٦٢هـ/١٢٦٥م من أسرة نبيلة فقدت ثروتها وسلطانها وقت ولادته وأصبح حالها متواضعا للغاية، يضاف إلى ذلك أن دانتى فقد والديه وهو لم يكتمل بعد دور الشباب.

وكان دانتى منذ صغره مولعا بسماع القصص ووجد لذة كبيرة فى قراءتها وقد درس اللاتينية القديمة وألم بأثار اليونان والشرق القديم وتراث العصور الوسطى فى جامعتى بادوا وبولونيا، كما درس الفلك والرياضيات والفلسفة وعلوم الدين وإلى جانب ذلك قام بدراسة الشعر، وأحب الأدب حبا كبيرا.

ومن يستعرض حياة الشاعر دانتى يجد أنها تقسم إلى ثلاث مراحل:-

***المرحلة الأولى:** وخلالها أقبل على الشعر خصوصا الغزلى منه، وفيها وصف حبه لمحبوبته " بياتريشى" التى رأها فى التاسعة من عمرها وتعلق بها ولكنها تزوجت غيره وماتت فى شرخ الشباب وقد ظهر ذلك فى كتابه " الحياة الجديدة".

***المرحلة الثانية:** وقد انفردت بتحمسه للعلوم السياسية والفلسفية ورغبته فى إنقاذ إيطاليا من ويلاتها ونكباتها.

* **المرحلة الثالثة:** ويبرز فيها رغبته فى الاصلاح الدينى والسياسى.كما تبرز قدراته ونضوجه وينتمى إلى هذه المرحلة كتاباه الملكية والكوميديا التى سميت فيما بعد بالآلهية.

---

[1] يعد المؤرخ المصرى الدكتور/ حسن عثمان من أبرز الأساتذة المصرين الذين تعرضوا لدراسة دانتى وترجموا العديد من مؤلفاته.

ناقص من أصل المصدر

وقد قسم دانتى الجحيم إلى درجات، ووضع فى كل درجة مجموعات مــن مرتكبــى الخطايا والعقاب الذى يستحقونه، فالآثمون من وجهة نظره هم أولئك الذين اهتمــوا بالمــادة والحياة الدنيا، وبإشباع غرائزهم وشهواتهم وسلطوا العاطفة على العقل.

وعن المطهر فقد صوره "دانتى" على شكل جبل مرتفع، ووضع فى طبقاته المرتفعــة أنواع المخطئين وعقاب كل منهم موضحا ان عقابهم مؤقت ولفترة محدودة ينقلون بعدها إلــى الجنة نظرا لأنهم تابوا عن خطاياهم فى أثناء حياتهم.

أما الفردوس فقد وضع فيه دانتى الأتقياء والصالحين الذين اتبعوا قواعد الفضيلة فــى حياتهم، وجعل هذا الفردوس على شكل طبقات ترتفع تدريجيا حتى تصل إلى الذات الالهية فى النهاية.

وتصور دانتى أنه رأى حبيبته بياتريشى فى الفردوس وارتقى معها فى طبقاته الواحدة بعد الأخرى. ويتضح لمن يدرس الكوميديا الآلهية أن صاحبها استمد موضوعاتها من عناصر وثقافات متنوعة من القديم والحديث ومن المشرق والمغــرب والجنــوب والــشمال، ومن الأسطورة والتاريخ، والسياسة والعلم والدين واللاهوت والفلسفة والطبيعة والمجتمــع والفــن بالاضافة إلى أنه استمدها من ذاته وتجاربه التى كانت ميدانا للصراع الكائن داخله بــين روح العصور الوسطى وروح عصر النهضة والتحرر الفكرى كما يتضح محاولات مؤلفها معرفــة أسرار ما بعد الموت. ومع أنها تتميز بالطابع الخيالى فان أهميتها ترجع لعمق ما فيهــا من أفكار استهوت عقول الكثيرين لدرجة أن العديد من الآدباء يفردون لها مكانا مرموقا فى الأدب العالمى، وخاصة وأن صاحبها أمتاز بتعمقه فى إبراز المعانى الدينية والاجتماعية والــسياسية وشتى أنواع المعارف بأسلوب رشيق، كما تبرز أهميتها فــى أن صــاحبها أول مــن أثبــت صلاحية اللغة الإيطالية فى التعبير عن كل المعانى الإنسانية وما تتطلبه حاجيــات الإنــسان والمجتمع، ويبدو أن دانتى أراد بكتابة الكوميديا أن يعوض نفسه عما ناله من حيــاة العــسف ونكران الجميل، وأن يقيم عالما يسوده الحق والعدل والصفاء والحرية والسلام.

وعلى كل حال فلا يستطيع أحد أن ينكر ولا دانتى نفسه أنـه اســتفاد أثنــاء كتابتــه للكوميديا الآلهية من العلوم الإسلامية التى أعجبت بها أوربا فى ذلك الوقــت وســعى إليهــا زعماء الفكر فيها.

فلدى مقارنة الكوميديا الآلهية بما كتبه محيى الدين بن عربى[1] وأستاذه ابن ميسرة تظهر مشابهات بارزة. وفى هذه المتشابهات من الدقة والتفصيل ما يجعل أن التشابه بينهما لم يكن أمرا عرضيا أو توارد خواطر بل كان من تأثره مباشرة بهذه الكتابات.

يضاف إلى ذلك أن دانتى اعتمد على رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ونقل عنها بعض الأفكار وأن كان قد عالجها بذكاء ويؤكد ذلك أن هناك روحا مشتركة تتخلل القصتين من ناحية المعنى الأخلاقى المنبثق عن التصوف، والرحلة السماوية وما ترمز إليه من تجديد النفس بالايمان وممارسه الفضائل الدينية والتأمل فى جوهر خالق ملكوت السماوات والأرض.

هذا إلى جانب أن الترتيب العام للجنة والمطهر والحجيم عند دانتى يشابه تماما ما هو معروف فى الثقافات الإسلامية عن الجنة والنار.

يضاف إلى ذلك أن تمجيد "بياتريشى" وهو الغاية الصريحة من الكوميديا له سوابق فيما صدر عن متصوفى الإسلام. من تعابير انجذابية، فعروس الصوفى الروحية هى الملاك الحارس لحبيبها، ومن مكانها الأرفع ترعاه وتقوده إلى طريق الفضيلة والكمال، وبعد موت الحبيب يجدها بجمالها المشرق تنتظر لقياه فى الجنة.

وهذه الصورة عن المرأة نجدها أيضا فى الجزيرة العربية وخاصة عند بنى عذرة فى شمال الحجاز، ومن هنا نشأت عبارة " الحب العذرى" كما نجدها فى كتاب " طوق الحمامة" لابن حزم.

ويؤكد اعتماد دانتى على المصادر الإسلامية ان عقله كان متفتحا على آراء عصره، وأن عصره كان مشبعا بالعلم والفن الإسلاميين، وفضلا عن ذلك فإنه من المحتمل أن يكون قد تعرف على هذه المصادر عن طريق أستاذه " برونيتو لاتينى" الذى عاش فى طليطلة كسفير لفلورنسا فى بلاط الملك " الفونسو الحكيم" المتعلق بالحضارة الإسلامية.

والجدير بالذكر أن المستشرق الأسبانى أسين ملاثيوس قد أكد ذلك فى خطاب القاه فى الأكاديمية الأسبانية فى ٢٦ من يناير ١٩١٩ فأعلن صراحة أن دانتى فى الكوميديا الالهية قد تأثر بالاسلام تأثرا عميقا واسع المدى يتغلغل حتى فى تفاصيل تصويره للجحيم والجنة.[٢]

---

(١) صاحب كتاب الفتوحات المكية وأمير المتصوفة الاسلاميين فى الأندلس.

(٢) د./ عبد الرحمن بدوى: دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى، القاهرة، الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية ١٩٦٧، ص ٤٩.

هذا عن أيطاليا، ودورها فى عصر النهضة الأوربية أما عن ألمانيا فقد تميزت النهضة هناك بالدعوة إلى الإصلاح الدينى عن طريق دراسة الكتاب المقدس كما كتب باليونانية، ومحاربة المفاسد التى لحقت بالمسيحية، ولقد تبلور ذلك الاتجاه فيما بعد إلى حركة الإصلاح الدينى The Reformation التى تزعمها " مارتن لوثر" ، فاحتج على صكوك الغفران وتعرض لنظام الكنيسة وطالب بإصلاحه، وقد اكتسحت هذه الحركة معظم الطبقات فى المانيا، وانتهت بحروب دينية صاحبها تدمير الكثير من الفنون الألمانية ولاسيما فن البناء، وأن ساهمت من ناحية أخرى فى بروز فن الموسيقى الذى أخذ يتطور مع الزمن حتى أصبحت ألمانيا صاحبة الريادة فيه.

وبالنسبة لفرنسا فقد ظهرت بوادر النهضة بها فى النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادى، وكانت بدايتها فى الجامعات الفرنسية خصوصا جامعة باريس، وكانت أبرز ملامح عصر النهضة فى فرنسا هى عناية الأدباء بالإبداع القصصى والتحليل النفسى، وقد تجلى ذلك فى كتابة القصص والمذكرات والتحليل النفسى والخلقى وقد برز من هؤلاء رابليه ومارجريت نافار وبرانتوم ومونلوك.

وبالنسبة لإنجلترا فقد اتجهت النهضة فيها إلى جعل الآداب القديمة فى متناول أيدى المثقفين ولم تسهم فى النهضة بإضافة شى جديد إلى تراث الإنسانية إلا فى القرن السابع عشر ممثلا فى أشعار شكسبير Shakespeare وملتون Milton [1] إلى جانب ذلك فقد كان للمسرح الانجليزى دوره فى النهضة حيث قدم العديد من الروائع الأدبية المليئة بالمفاجآت والمغامرات وتحليل النفس البشرية وطباعها.

أما بالنسبة لهولندا فان الدراسات الانسانية بها كانت تهدف أساسا إلى ترتيب ونقد المؤلفات التى جمعها الانسانيون الاوائل، كما تميزت بالعمق والاصالة.

ومما سبقّ يتضح أن ابرز نتائج عصر النهضة فى أوربا هى:-

١-اضعاف سيطرة الكنيسة وتصدع الاقطاع من ناحية، واختفاء النظام الامبراطورى كنظام سياسى من أوربا من ناحية أخرى.

٢-إبرز حرية البحث العلمى وانهاء سيطرة الكنيسة، ورجال الدين عليها.

---

(١) طالب الشاعر ملتون بحرية العقل أمام السلطان، وانفق معظم حياته فى هذا الجهاد محتملا مقاومة الخصوم ومقاومة السلطان جاهرا فى ذلك بالأقوال التى تصل بالحرية إلى أبعد مدى.

٣-بروز الشعور القومى، وولاء المواطنيين للملكية بدلا من الامبراطورية وظهور اللغات الجديدة، وانهاء دور اللغة اللاتينية كلغة وحيدة لمعرفة العلوم والآداب الأوربية.

٤-ظهور الطباعة مما ساعد على انتشار المؤلفات وذيوعها وطبع الكتب القديمة وايجاد وحدة الفكر والثقافة بين شعوب غرب أوربا.

٥- اكتشاف العديد من المخترعات التى كشفت الكثير من الأسرار العلمية، وساعدت على تقدم الأنسان.

٦-بروز دور الجامعات والمدارس وتوقف السيطرة الكنسية عليها، وقيامها ببعث التراث القديم، واحياء الحركة العلمية والأدبية بوجه عام، واقبال عدد كبير من الدارسين على هذه الجامعات.

٧-ظهور حركة الكشوف الجغرافية وارتياد البحار، ونجاح الرحالة الأوربيين فى كشف طرق جديدة حيث استطاع "فاسكو دى جاما" اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح كما استطاع كولمبس اكتشاف الدنيا الجديدة.

٨-التنقيب عن الأثار القديمة ودراستها والكشف عن العديد من الآثار الرومانية القديمة وبعثها من مرقدها.

٩-نمو شخصية الفرد وإبراز دوره وما يصدر عنه من أفكار وأعمال وهدم الحواجز التى تمنع النفس البشرية فى التعبير عن نفسها.

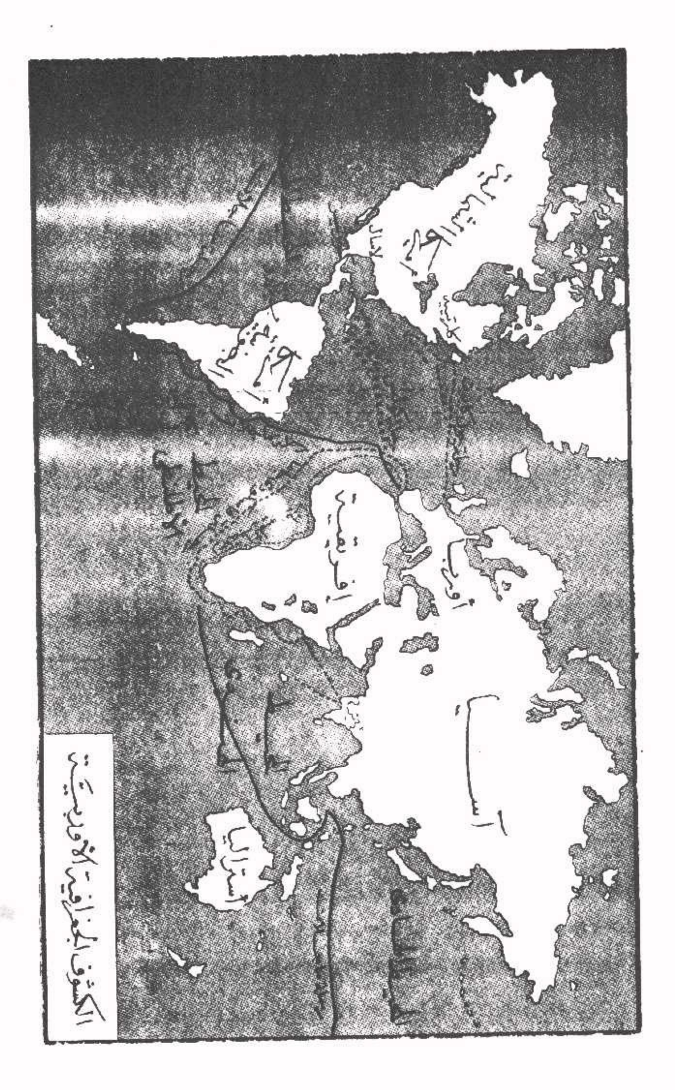
١٠-ظهور طبقة جديدة من ابناء الشعب تجمعت بين أيديها الكثير من الثروات، واقصاء نظام الطوائف عن مسرح الحياة الاقتصادية واحلال التنافس الرأسمالى محله.

١١-خروج الأوربيين على القواعد الخلقية والتعاليم المسيحية وتحللهم من قيودها.

١٢-الاهتمام بدراسة العلوم المتصلة بالظواهر الطبيعية مثل الجغرافيا وعلم الفلك وذلك فى محاولة للتعرف على التضاريس والمناخ والتيارات البحرية، وغيرها، والتى كان من نتائجها تمكن العالم الايطالى " جاليليو" فى اثبات أن الأرض ليست مركز الكون بل الشمس هى محوره الذى تدور حوله الكواكب بما فيها الأرض.

ناقص من أصل المصدر




الكشوف الجغرافية الأوربية
آسيا
أفريقيا
أوربا
أستراليا
أمريكا الشمالية
أمريكا الجنوبية

بين هذه الدول فى الاستيلاء على المستعمرات مما أدى إلى انـدلاع الحـروب بـين الـدول الأوربية نفسها من أجل السيطرة على بقاع جديدة، وكانت الدول السباقة فـى هـذا المجـال البرتغال وأسبانيا ثم هولندا وانجلترا وفرنسا.

٥- تقدم العلوم الجغرافية والفلكية:

نتيجة لتقدم علم الجغرافيا وعلم الفلك، وتطوير البوصلة والتعمق فى أدراك حركـات الكواكب والنجوم واختلاف الأجواء تشجع الملاحون فى اجتياز البحار والمحيطات، والتوسـع فى بناء السفن.

يضاف إلى ذلك عدة عوامل أخرى منها رغبة بعض الأوربيين فى الكـسب المـادى السريع عن طريق الكشوف الجغرافية، وحب البعض الآخر لروح المغامرة والكشف والرغبة فى السطو والتسلط واغتصاب حقوق الآخرين.

وعلى كل حال فقد توجت عملية الكشوف الجغرافية جهودها باكتشاف الأمريكتين فى عام ١٤٩٢م ثم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨م.

ثانيا: فضل البحارة المسلمين على البعثات الكشفية الأوربية:

عرف العرب ركوب البحار منذ الأزمنة القديمة، وبعد ظهور الاسلام ركبوه للجهـاد والتجارة والبحث عن المعادن النفسية.

وعندما اتسعت أرجاء الدولة الأسلامية، ووصلت حدودها إلى أوربا غربا وإلى بـلاد الصين شرقا كثرت رحلات المسلمين العلمية ووصل نشاطهم الملاحى إلى أرجـاء المحـيط الهندى، وأرخبيل الملايو والصين وبحر الروم وبحر القلزم، وسـاهموا فـى تطـوير علـم الجغرافيا وتصحيح الكثير من آراء اليونان القدامى حول تصورهم بأن هناك منـاطق بمثابـة مأوى الشياطين والوحوش ويحذرون من اقتحامها لوجود نار تمنع اجتيازها وتحطم أى سفينة تقترب منها.

ووضع المسلمون خرائط بحرية للاسترشاد بها منذ القرن العاشـر المـيلادى. كمـا اخترعوا البوصلة والاسطرلاب هذا فى الوقت الذى كانت فيه معلومات الأوربيين الجغرافيـة ضئيلة وممزوجة بالخيال وإلى جانب ذلك كانت أوربا تؤمن بأن الأرض مـسطحة، وتحـرق

كنائسها. كل ما يخالف ذلك من علم ومعرفة فى حين اتخذ العرب من تجـــاربهم الشخـــصية أساسا جديدا للجغرافية الملاحية.

ومن أشهر المسلمين الذين جابوا العالم المعروف آنذاك "المـسعودى البغــدادى" (ت ٣٤٦هـــ) صاحب كتاب " مروج الذهب ومعادن الجوهر" والذى ترك لنا خريطـــة امتـــازت بتحديد كل من البحر المتوسط والبحر الأسود وبحر أورال وأنهار النيــل، والـــسند، والكـــانج والأدريسى الاندلسى[١] (ت ٥٦٢هــ) والذى قام بعدة رحلات ما بين آسيا والساحل الغربـــى لانجلترا، وقضى فى صقلية حوالى خمسة عشر عاما قام فى أثنائها برسم الخرائط[٢] والبحث والدرس، كما عمل معلما لبعض الأوربيين.

وقد استعان البرتغاليون بخبرات العرب ألبحرية واستخدام الآلات الملاحية التى كانوا يستعملونها مثل البوصلة والاسطرلاب بعد أن تعرفوا عليها عن طريق يهود الانـــدلس الـــذين نقلوا أسرارها إليهم، وإلىجانب ذلك فقد كانت معرفة البحارة العرب بالطرق البحرية الموصلة إلى الهند هى التى أرشدت البرتغاليين إلى معرفة هذه الطرق، وأبرز مثال على ذلك هـــو أن الملاح العربى الخليجى " أحمد بن ماجد" هو الذى أرشد فاسكودى جاما إلى الطريق الموصل إلى الهند.

ثالثا: أحوال العالم الاسلامى خلال فترة الكشوف الجغرافية:

عانى العالم الاسلامى خلال هذه الفترة من ويلات التمزق والانقـــسام، وافتقـــر إلـــى الوحدة التى تحقق له القوة وتمكنه من مواجهة أعداء الاسلام، وعاش فى ثبات عميق وعزلـــة عن العالم الأوربى وكان من نتائج ذلك هزيمة البحرية الاسلامية فى موقعة "ديو البحرية" عام ١٥٠٩م.

---

(١) ولد فى اشبيلية وتلقى علومه فى قرطبه، وتعد أعماله أعظم عمل عربى فى العصور الوســـطى إذ يمثـــل نقطة الاحتكاك بين الحضارتين الاسلامية والمسيحية.

(٢) رسم الادريسى خريطة للعالم فى النصف الأول من القرن الثاني عشر للتفاصيل أنظر: يسرى الجوهرى: الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية ، الاسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٧٩، ص ١٢٣-١٢٧.

ولقد انقسم العالم الاسلامى خلال هذه الفترة إلى ثلاث قوى متصارعة تحاول كل منها القضاء على الأخرى فهناك الدولة المملوكية فى مصر والشام والحجاز وعاصمتها القاهرة، ويحكمها السلطان "قانصوه الغورى"، وهناك الدولة الصفوية فى بلاد فارس وأعالى العراق وعاصمتها تبريز، ويحكمها الشاه "اسماعيل الصفوى"، وهناك الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى وبعض مناطق شرق أوربا وعاصمتها استانبول ويحكمها السلطان "سليم الأول".

واستمر الوضع الاسلامى على ذلك المنوال حتى استطاع السلطان العثمانى "سليم الأول" هزيمة كل من الصفويين والمماليك وتوحيد العالم الاسلامى تحت السيادة العثمانية التى استطاعت الوقوف فى وجه أعداء الاسلام فترة ليست بالقصيرة وضرب المخططات البرتغالية الهادفة إلى الالتفاف حول الجزيرة العربية والاستيلاء على الأماكن الاسلامية المقدسة، واغلاق البحر الأحمر فى وجه السفن غير الاسلامية.

هذا بالاضافة إلى توغل الدولة العثمانية فى قلب أوربا ونجاحها فى ضم أقاليم أوربية شاسعة وانتزاعها لبعض جزر قراصنة الصليبيين فى البحر المتوسط.

رابعا: حركة الكشوف الجغرافية:

١- الكشوف البرتغالية:

تعد البرتغال أول دول أوربا البحرية التى بدأت حركة الكشوف الجغرافية، ومهدت للهجمات الاستعمارية المتتابعة التى توالت على بلاد الشرق.

وقد يرجع أحراز البرتغال لقصب السبق فى هذا المجال إلى عدة عوامل نذكر منها:-

١- موقعها الجغرافى على المحيط الأطلسى.

٢- رغبتها فى استمرار الحروب الصليبية ضد المسلمين.

٣- استفادتها من الخبرات البحرية لدى أهالى جنوه والبندقية وقيامها بادخال بعض التعديلات على البوصلة باضافة مؤشر يبين اتجاه الرياح مما ساعد على تقدم الملاحة البحرية.

٤- اطلاعها على مجهودات وخبرات علماء المسلمين البحرية وانتفاعها باختراع البوصلة البحرية والتعمق فى ادراك حركات الكواكب.

٥- بنائها للسفن السريعة القادرة على عبور المحيطات والبحار وعلى السير أثناء الرياح.

وترتبط حركة الشكوف البرتغالية بالأمير "هنرى الملاح Henry The Navigator" [١٣٩٤-١٤٦٠م] والذى كان يحتضن فكرة كشف الساحل الأفريقى المواجه لـشبه جزيـرة أيبريا، والرغبة فى الوصول إلى جزر الهند الشرقية للحصول على توابل الشرق الغنية.

وقد أهتم الأمير "هنرى" منذ صباه بالدراسات الجغرافية والفلكية، فكان شغوفا بدراسة الخرائط الجغرافية والاجرام السماوية والطرق البحرية، وحركات الرياح كما عنـى بالعمـل على تطور بناء السفن، هذا إلى جانب أنه يعد المحرك الأول لحركة الكشوف البرتغالية لمـدة تزيد على الأربعين عاما.

وقد اشترك الأمير "هنرى" فى مغامرات حربية ضد بلاد المغرب العربى احتل فيهـا مدينة "سبته" فى عام ١٤١٥م والتى كانت تعد سوقا كبيرا للمغاربة وحاول الانطلاق منها إلى مناطق أخرى بغرض نشر الديانة المسيحية فيها ولكنه منى بفشل ذريع حينما حاول الاستيلاء على طنجة فى عام ١٤٣٧م كما قام بتأسيس معهد أبحاث جغرافى على الطرف الجنوبى من شواطئ البرتغال فى عام ١٤١٨م وبنى قلعة ومرصدا وقصرا لحفظ الخرائط.

كما استقدم إليه صفوة من الفلكيين والجغرافيين وقدم إليهم مجموعات ضـخمة مـن الخرائط والمراجع الفلكية للاستفادة منهم فى رحلاته البحرية، يضاف إلى ذلك قيامه بالعديـد من المحاولات لعقد أواصر الصداقة مع "القديس يوحنا" حاكم الحبشة المسيحى للاستعانة بـه فى انشاء امبراطورية برتغالية فى أفريقيا، وتطويق الجناح الاسلامىهناك. ولذلك فان حركة الكشوف البرتغالية على الساحل الأفريقى كان يدفع اليها العامل الدينى ضد المسلمين.

وقد نجح هنرى فى استكشاف بعض الجزر فى المحيط الأطلسى كما نجح فى ارتيـاد الساحل الغربى لافريقيا عام ١٤١٨ - وقد عرف هذا الطريق البحرى بالطريق البرتغـالى - وأقام نقط حربية حصينة عليه، واتخذ منها مراكز حربية وتجارية تمكنه من الوثـوب إلـى العديد من المناطق الأخرى، كما تمكن من اكتشاف جزر ماديرا **Madeira** فى عام ١٤٢٠ وجزر آزور **Azores** فى عام ١٤٣١.

وبفضل هذه الجهود مهد هنرى الطريق أمام الخطوات الجادة لاكتشاف طريـق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى قرب خط الاستواء وان كان الأجل لم يمهله حتى يرى ثمرات جهوده فمات فى عام ١٤٦٠م.

وعلى كل حال فأنه نتيجة للتنافس الاستعمارى بين البرتغال وأسبانيا، وقيـام بعـض الاضطرابات الداخلية تعطلت جهود البرتغالين الكشفية لفترة استمرت بين عـامى ١٤٧٥ - ١٤٧٩م ثم خطت الكشوف البرتغالية خطوة جريئة حققت بها نصرا مهما عندما أمر الملـك "يوحنا الثاني" بارسال بعثة كشفية بقيادة "بارتلميو دياز **Diaz**" عام ١٤٨٧. فعبـر الـساحل الافريقى، ودار حول القارة السوداء بقصد الوصول إلى الهند عن طريق البحر مباشرة ونجح فى ارتياد الساحل نحو الجنوب حتى وصل إلى الخليج. سماه خلـيج الزوابـع نظـرا لـشدة التيارات البحرية التى وجدها هناك، ولم يستطع " دياز" الاستمرار فى رحلته نظـرا لتمـرد بعض بحارته عليه، فاضطر الرجوع إلى برشلونه مارا بمنطقة الكاب مبشرا بطريق جديد إلى الهند، وعندما أبلغ ملك البرتغال بأن الطريق إلى الهند أصبح قريب المنال بعد اكتشاف هـذا الخليج تغير الأسم الذى أطلقه " دياز" عليه من خليج الزوابع إلى رأس الرجاء الصالح.

وفى حين كان البرتغاليون يتابعون نشاطهم الكشفى دخلت أسبانيا حلبة هذه الكـشوف وبدأت تسعى من جانبها فى الوصول إلى الهند عن طريق الاتجاه إلى الغرب، مما أدى إلـى توتر الموقف بينهما وتوقف حركة الكشوف البرتغالية لمدة تزيد عن عشر سنوات وخشية من مغبة قيام حرب بين الدولتين من أجل السيطرة على المناطق المكتشفة توسط البابا "اسـكندر السادس" فى الأمر، ونتج عن هذه الوساطة عقد معاهدة "توردیسیلاس **Tordesillas**" فـى عام ١٤٩٤م تم بمقتضاها تحديد خط وهمى للتقسيم يفصل بين نطاقات سيطرة كل من الدولتين بحيث تنصب الكشوف البرتغالية شرقى المحيط الأطلسى على بعد ٣٧٠ ميلا غربى جزائـر الرأس الأخضر **Cape Verde**" فى حين تتجه الكشوف الاسـبانية نحـو غربـى المحـيط الأطلسى، وتكون البرازيل من نصيب البرتغال وحدها[1]

ونتيجة لذلك أستمرت البرتغال فى اتمام كشوفها فأرسلت "فاسكودى جاما **Vosco de Gama**" لاتمام ما بداه بارتلميو دياز فى اجتياز طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلـى شرقى أفريقيا والهند، وقد تم له ذلك، ونظرا لأهمية هذا الكشف فسنعرض له ولصاحبه ودوره فى اتمام الدوران حول جنوبى أفريقيا الوصول إلى ساحلها الغربى.

---

(١) عقدت بعد ذلك معاهدة بين الدولتين فى عام ١٥٢٩ كانت فى مصلحة البرتغال فى المحيط الهادى فـاتفق على أن تكون الملقا للبرتغال والفلبين لأسبانيا.
أنظر: أرنولد توينبى: تاريخ البشرية، جـ ٢ - ترجمة نقولا زيادة، بيروت، الأهلية للنشر، ١٩٨٨، ص ٢١٧.

ولد فاسكو دى جاما عام ١٤٦٠م وانتظم فى مطلع حياته بسلك الجندية، ثم أرسلـــه "عمانويل الثاني" ملك البرتغال فى رحلة إلى الهند عــن طريــق رأس الزوابـــع فـــى عـــام ٩٠٣هـ/١٤٩٧م وللأهمية التى يعلقها التاج البرتغالى على هذه الرحلة قام الملك "عمانويـــل" بنفسه بتوديعها. وقد أصطحب "دى جاما" فى هذه الرحلة أربع سفن تضم ما يقرب من مائـــة وخمسين بحارا، كما حمل معه العديد من الخرائط الملاحية والكتب.

وقد سار " دى جاما" من لشبونة محاذيا للساحل الغربى الأفريقى حتى رأس الرجـــاء الصالح، فى محاولة منه لتحديد الأطار الخارجى لقارة أفريقيا على خريطة كانت لديـــه ثـــم واصل رحلته حتى وصل إلى موزمبيق.

وفى العاشر من مارس ١٤٩٨م أبحر "دى جاما" إلى "مومبسا" ووصل إليها بعد جهود مضنية حيث كادت العواصف العنيفة تحطم معظم سفنه، ولما لم يجد ترحيبا من أهالى هـــذه المنطقة أبحر إلى "ماليندى" (كينيا الحالية) وفى "ماليندى" قابل " دى جاما" المـــلاح العربـــى الخليجى المولد "شهاب الدين أحمد بن ماجد"، واندهش من مقدرتـــه علـــى معرفـــة الأمـــور الملاحية، وطرقها وأسرارها كما ازداد اندهاشه عندما رأى المعدات البحرية المتطورة التـــى يستخدمها ابن ماجد على سفينته والتى منها اسطرلاب عربى من المعدن والعديد من الخرائط وبعض الآلات التى سجل بها أرصاده، ونتيجة لذلك طلب "دى جاما" من ابن ماجد أن يرشده إلى الطريق الموصل للهند ووافقه "ابن ماجد" على ذلك، وقاد معه سفينة القيادة البرتغالية حتى أوصله إلى ثغر قاليقوط فى ١٨ مايو ١٤٩٨ وكان هذا الثغر مركز تجارى هندى كبير يتعامل معه الكثير من التجار العرب ونتيجة لذلك رأى " دى جاما" المكانة التى يتمتع بهـــا الرحالـــة العرب والمسلمون فى هذا الميناء، مما دفعه إلى أن يغير اتجاه سيره فسار شمالا حتى وصل إلى " جوا" شمالى " قاليقوط" وعلى الساحل الغربى لشبه جزيرة الهند، وهنـــاك حمـــل ســـفنه بمنتجات هذه البلاد وعاد إلى البرتغال يحمل إلى مليكها بشرى نجاح رحلته الكشفية.

ولقد نتج عن هذه المرحلة عدة نتائج مهمة نذكر منها:

١- أنها كانت بداية لأطماع البرتغاليين فى تجارة الهند وفتحا للعلاقات التجارية السياسية مع الزامورين حاكم قاليقوط مما تسبب فى احتكاكهم بالمسلمين ومنافستهم للتجـــار العـــرب ومحاولتهم طردهم من هذه البلاد.

٢- أنها كانت فاتحة الاستعمار البرتغالى فى الشرق والسيطرة على بعض جزره ومراكـزه وحصونه التى يمكن عن طريقها السيطرة على حركة الملاحة مثل مضيق هرمز.
٣- أنها كانت بداية نقطة تحول التجارة الشرقية من البلاد العربية إلى طريق رأس الرجـاء الصالح - خصوصا بعد موقعة ديو البحرية ١٥٠٩م - ممـا أدى إلـى أحـداث كـساد اقتصادى للدولة المملوكية.

وعلى كل حال فقد قام دى جاما برحلته الثانية عام ١٥٠٢ بهـدف اغـلاق المـدخل الجنوبى للبحر الأحمر، والقضاء على النفوذ التجارى العربى على السواحل الهندية الغربيـة والقيام بعقد معاهدات تجارية لدولة البرتغال مع الأمراء الهنود وبعد وصوله إلى سواحـل شرق أفريقيا قام بضرب مدينة كلوة بالقنابل، وأجبر سلطانها على الاعتراف بخضوعه لملك البرتغال ودفع جزية سنوية له وقام بضرب السفن البحرية الموجودة عنـد مـدخل البحـر الأحمر، وبدأ أعمال القرصنة ضد السفن الاسلامية أمام ساحل الملبار، كمـا قـام بـضرب قاليقوط بمدفعية أسطوله يضاف إلى ذلك أنه أغرق سفينة اسلامية فى خليج عمان كانت تستقل حجاج من الهند إلى مكة المكرمة، وعلى ظهرها مائة حاج حيث أعدمهم جميعا.

وبعد هذه الأعمال الاجرامية عاد " دىجاما" إلى بلاده فى عام ١٥٠٣ م بعد أن ترك أسطولا برتغاليا فى المياه الهندية.

وعلى كل حال فقد نتج عن الكشوف البرتغالية عدة نتائج مهمة نذكر منها:-

١-تمكن البرتغاليين من الوصول إلى الهند عن طريق بحرى جديد لايمر بالأراضى الاسلامية ولا يخضع لنفوذها.
٢-سيطرة البرتغاليين على الساحل الأفريقى الغربى.
٣-قيام العديد من المغامرين بالمزيد من الرحلات الاستكشافية.
٤-انتشار تجارة العبيد المجلوبين من أفريقيا بواسطة السفن البرتغالية إلى أوربا.
٥-القضاء على الحركة التجارية الاسلامية التى كانت تمخر عباب المحيط الهندى، وتـشاهد دائما فى موانئه وانتقال مركز التجارة العالمية من البحر المتوسط إلى المحيط الاطلسى مما أضاع الثراء الذى كان يتميز به المماليك والبنادقة.

٦-انخفاض أسعار المنتجات الشرقية التى كانت تصل إلى أوربا على يد التجار الايطاليين، مما أدى إلى أحداث كساد تجارى للمدن الايطالية المشتغلة بالتجارة.

٧- حصول البرتغاليين على العديد من كنوز الشرق وثرواته. ونتيجة لعدم قدرة التجار العرب والأمراء الهنود على مقاومة النفوذ البرتغالى الزاحف طلبوا النجدة من المماليك حكام مصر والشام فى ذلك الوقت، فأعد السلطان المملوكى قانصوه الغورى أسطولا لوقف زحف البرتغاليين فى أعالى البحار الشرقية، ولكنه لم يتمكن من ذلك، حيث ضرب أسطوله فى موقعه ديو البحرية ١٥٠٩ م وواصل البرتغاليون سيطرتهم وقرصنتهم على البحار الشرقية فقام " الفونسو البوكيرك" بالاستيلاء على " هرمز" فى الخليج العربى، وعلى "سوقطره" عند مدخل البحر الأحمر، وعلى " جوا Goa" كما حاول البرتغاليون اقتحام عدن واختراق البحر الأحمر والوصول إلى الأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل نتيجة لتصدى أمراء المماليك لهم.

وبعد وقوع منطقة المشرق العربى تحت السيطرة العثمانية منذ عام ١٥١٦م وقع عبء الكفاح ضد البرتغاليين على عاتق العثمانيين الذين وأن لم ينجحوا فى انتزاع السيادة البحرية من البرتغاليين ، فأنهم نجحوا فى أحكام سيطرتهم على البحر الأحمر نهائيا، وجعلوه بحرا اسلاميا خالصا.

ولم يكتف البرتغاليون بما حققوه من اكتشافات فى آسيا وأفريقيا، بل ساعدتهم الظروف فى الوصول إلى سواحل البرازيل عندما دفعت الرياح الملاح البرتغالى " كبرال" إلى الغرب فنزل إلى سواحل البرازيل ومن هنا بدأ البرتغاليون فى احتلال هذه البلاد ونشر المذهب الكاثوليكى بين سكانها.

والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل نجح الشعب البرتغالى الصغير العدد فى بسط سلطانه على الممتلكات الكثيرة التى استولى عليها نتيجة لحركة الكشوف الجغرافية؟

الواقع أن الاستعمار البرتغالى لبلاد الشرق لم يكن قائما على أساليب وقواعد استعمارية تحمل فى طياتها الاستيطان والاستقرار بل كان همه وقبل كل شئ هو احتكار التجارة والحصول على أرباحها دون الاهتمام بالتنظيم السياسى أو الحكومى فى البلدان التى استولى عليها مما أدى إلى انهيار صرح هذه الامبراطورية أمام التنافس الاستعمارى الأوربى

خصوصا بعد أن فقدت البرتغال نفسها استقلالها، ووقعت تحت الحكم الأسباني حيث آل عرشها بحكم الوراثة إلى فليب الثاني ملك أسبانيا، فخرجت البرتغال من بلاد الشرق وهى مثخنة بالجراح، وانتقلت السيادة التجارية إلى يد الهولنديين والانجليز.

٢- الكشوف الاسبانية:

لم يتوقف أمر حركة الكشوف الجغرافية على البرتغاليين بل نافستهم أسبانيا فى هذه الحلبة ثم تبعتها دول أوربية أخرى مثل هولندا وانجلترا وفرنسا.

وقد اتجهت الكشوف الاسبانية ناحية الغرب تاركة البرتغاليين جهة الشرق - طبقا لوساطة البابا اسكندر السادس - فأرسلت فى اغسطس عام ١٤٩٢ وبتشجيع ومباركة فرديناند وايزابيلا بعثة كشفية تحت رئاسة الملاح الجنوى الأصل كريستوف كولمبس **Columbus** الذى عرض فكرته عليهما ووعدهما بالمجد والذهب.

والسؤال المطروح هو لماذا نافست أسبانيا البرتغال فى حركة الكشوف؟ وهل كان قصد كولمبس اكتشاف العالم الجديد أو الوصول إلى الهند؟

الواقع أن منافسة أسبانيا للبرتغال كانت برغبة الحصول على نصيب لها من الذهب والفضة عن طريق التجارة الشرقية التى سبقتها إليها جارتها البرتغال، ومحاولة الاتصال بدول الشرق عن طريق الابحار غربا عبر المحيط الأطلسى حتى تتمكن من وقف احتكار البنادقة للتجارة الشرقية، هذا بالاضافة إلى الأسباب الدينية المتمثلة فى الرغبة بتحويل سكان البلاد المكتشفة إلى المسيحية، ورفع رأيه الصليب عليها. أما عن القصد من اكتشاف عالم جديد فقد جاء وليدا للصدفة.

حقيقة لقد كان الأوربيون يقرأون فى ذلك الوقت كتابات الرحالة "ماركو بولو"، ويستمعون إلى القصص المثيرة عن البلاد الغنية بالذهب والجواهر ويؤكدون وجود أراض، وجزر غريبة وعجيبة فى المحيط الأطلسى، ولكن لم يكن فى حسبانهم فكرة اكتشاف عالم جديد وخاصة وأن الغرض من رحلات كولمبس كان اكتشاف جزر الهند الشرقية أو جزر التوابل وعلى كل حال فقد أبحر كولمبس فى المحيط الأطلسى غربا فى عام ١٤٩٢م وبرفقة ما يقرب من مائة بحار بينهم طبيب وجراح ومترجم حتى وصل إلى أرض يابسة فاعتقد أنه

وصل إلىجزر من ساحل الهند مركز انتاج التوابل لذلك سمى سكانها بالهنود، وفى الحقيقة أنه اكتشف جزر الانتيل الصغرى وبعض جزر الباهاما.

وقد أطلق كولمبس على هذه المنطقة أسم "سان سلفادور" ثم توجه بعد ذلك إلى شاطئ كوبا الشمالى، وجزيرة هايتى وسماها "اسبانيولا" أى أسبانيا الصغيرة وعلى الرغم من هذه الرحلة لم يكتنفها العواصف، فقد كان بحارته قلقين من مصيرها.

وبعد حوالى ثمانية شهور من قيام هذه الرحلة عاد كولمبس إلى أسبانيا حيث استقبل استقبالا حافلا حيث انعمت عليه الملكة بلقب ادميرال كما وعدته بأن تعينه حاكما على الأراضى التى اكتشفها من قبل الملك مما شجعه على القيام بثلاث رحلات أخرى اكتشف فيها جزءا من شاطئ أمريكا الوسطى والجنوبية والبحر الكاريبى، ومع ذلك لم يصحح كولمبس فكرته عن الأراضى الجديدة التى اكتشفها بأنها ليست جزءا من آسيا. وفى هذه المناطق عمل كولمبس على نشر المسيحية فى هذه البلاد، وقرب بعض أهالى هذه البلاد إليه بمنحهم بعض الخرز والأجراس الصغيرة التى كان قد أحضرها معه وقد أطلق الأسبان على أهالى هذه المناطق اسم الهنود لاعتقادهم الخاطئ أنهم وصلوا إلى بعض سواحل الهند. وعلى كل حال فيبدوا أن النجاح الذى حققه كولمبس قد زاد من كثرة حاقديه الذين اوغروا صدر البلاط الأسبانى عليه بحجة أنه أضاع أموال أسبانيا فى رحلات لم تجن منها الدولة على ما كان يؤمله الأسبان من توابل الشرق مما أدى إلى اعادته إلى أسبانيا مقيدا بالحديد وايداعه السجن الذى ظل فيه معتقدا أنه لم يكتشف قارة جديدة وأنما نزل إلى ساحل الهند، وهذا هو السبب الذى جعل اكتشاف أمريكا لم ينسب إليه نسل إلى الرحالة الفلورنسى "أمريجو فيزبوتشى **Amerigo Vespucci**" الذى نجح بعد ذلك فى الوصول إلى الشاطئ الشرقى لأمريكا الجنوبية موفدا من ملك البرتغال.

والسؤال المطروح هو ما مدى صحة ما يتردد حول أن العرب وصلوا إلى أمريكا قبل رحلة كولمبس؟

الواقع أن العالم الصينى الدكتور (هوى لزلى) أستاذ علم النبات بجامعة بنسلفانيا الأمريكية كان قد أكد ذلك فى بحثه الذى إلقاه فى الاجتماع الحادى والسبعين بعد المائة لجماعة المستشرقين بمدينة فلادلفيا واستند فيه إلى وثائق محفوظة فى الصين وإلى فصائل

من النبات والحيوان لم تكن من محاصيل الأرض الأمريكية، وذكر من أخبار تلك الوثائق أن اكتشاف العرب لأمريكا تم فى القرن الثاني عشر الميلادى فى رحلة استغرقت مائة يوم.

ومع ذلك فإن المعلومات حول اكتشاف العرب لأمريكا لاتزال محدودة المجـــال وأن كان يتردد بعضها بين الحين والآخر.

وعلى كل حال فقد كان لرحلات كولمبس نتائج مهمة نذكر منها:-

١- أنه فتح أمام الأوربيين الآفاق للهجرة والاستيطان فى العالم الجديد.

٢-أنه فتح آفاقا جديدة لجمع الثروات المعدنية والمواد الخام التى غيرت مجـــرى الاقتـــصاد الأوربى.

٣- أنه أدى إلى تشكيل مجموعة جديدة من الأمم فى نصف الكرة الغربى تختلف تماما عـــن الشعوب الأصلية التى سكنت تلك المناطق.

٤-أن هذا الأكتشاف كان أحد الأحداث الفاصلة فى التاريخ العالمى.

٥- أنه وطد حكم الأسبان الكاثوليك فى أمريكا الوسطى والجنوبية ووضع لهم موطئ أقـــدام للانطلاق لغزو المكسيك وبيرو وغيرها.

٦-أنه أدى إلى نشر المسيحية فى الأراضى المكتشفة التى كان لا يـــدين أصـــحابها بديانـــة سماوية.

ولقد توالت الرحلات الاستكشافية بعد "كولمبس" ففى عام ١٤٩٧ وصل "جون كابوت" **John Cabot** الرحالة البندقى إلى جزيرة "كاب بريتون" **Cape Breton** بجوار شـــاطئ أمريكا الشمالية وبعد وفاة الملك "فرديناند" تولى الحكم من بعده حفيده "شـــارل الأول" الـــذى بلغت الكشوف الأسبانية فى عهده قمة نجاحها، فبعد أن تخلى الملاح البرتغالى " ماجلان" عن جنسيته البرتغالية - بعد أن رفض الملك عما نويل ملك البرتغال أن يعطيه أسطولا للابحـــار عن طريق الغرب - عرض على الملك "شارل الخامس" فكرة الابحار عبر المحيط الأطلنطى لاكتشاف جزر التوابل واعلان ملكيتها لأسبانيا فى نظير امداده بمجموعة من السفن والرجال، وبعد أن وافق ملك أسبانيا على طلبه لا عن عقيدة بنجاح الفكرة ولكن لأن حماســـة الـــشاب وعميق ايمانه بفكرته أخذ بلب الامبراطور ومن هنا أبحر "ماجلان" جنوبا فى المحيط الأطلسى

في صباح ٢٠ من سبتمبر ١٥١٩م فى رحلة إلى آفاق مجهولة، تصحبه خمس سفن عليها ٢٦٥ بحارا وبعد حوالى ثلاثة أشهر استطاع الوصول إلى أمريكا الجنوبية والابحار إلى "ريو دى جانيرو" فى البرازيل، وهناك خرج الأهالى من أكواخهم وأخذوا يرحبون بالأغراب ويتبادلون معهم ما يملكونه[1] ثم دار حول شواطئ أمريكا الجنوبية ودخل إلى محيط كانت المياه والزوابع فيه هادئة فاطلق عليه **Pacific** أى المسالم او الهادئ الذى يعد ماجلان أول من قام باجتيازه.

وواصل ماجلان سيره حتى وصل إلى الشواطئ التى اطلق عليها اسم الفلبيين تكريما لأسم الأمير فليب الذى تولى عرش أسبانيا فيما بعد، والتى بقيت فى حوزة أسبانيا لفترة طويلة.

وعلى كل حال فإن ماجلان لم يعد إلى أسبانيا حاملا أخبار اكتشافاته حيث قتل فى أحد حروبه داخل جزر الفلبيين بنبال مسمومة اخترقت فخذه وأزهقت روحه.

*** النتائج التى حققتها رحلة ماجلان:**

١-لن ينسى التاريخ أن "ماجلان" ذلك الشاب الأعرج قد برهن للعالم مدى قدرة الأنسان على تحمل المشاق.

٢- أثبتت هذه الرحلة أن السير فى اتجاه واحد سواء كان ذلك من الشرق أم من الغرب لابد أن يؤدى إلى الرجوع للمكان الذى بدأ منه الإنسان رحلته مما اثبت بالدليل القاطع الحقيقة الجغرافية التى تؤكد كروية الأرض.

٣-أن هذه الرحلة فتحت طريق الشرق الأقصى أمام الأوربيين، كما ربطت العالم الجديد بالشرق الأقصى.

٤-أثبتت هذه الرحلة أن هناك قارتين عظيمتى الاتساع هما أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية يقعان بين أوربا وآسيا.

---

(١) أشار بيجافتيا أحد البحار المصاحبين لماجلان فى مذكراته إلى ان " الأهالى البسطاء كانوا يعطوننا لقاء كل جرس معدنى صغير سلة كبيرة مملوءة بالبطاطس" كما كتب عن النساء اللاتى كان كل ما يغطى اجسادهن السمر شعور طوال كالليل البهيم".



المستعمرات الإنجليزية في أمريكا
سنة ١٧٠٠

٥-أنها كشفت الطريق المؤدى إلى المحيط الهادى وصححت الفكرة عن نسبة مساحة اليابس بالنسبة للماء.

٦-أنها منحت الانسانية عطاء وافرا من الثروة والمعرفة.

وهكذا أصبح ماجلان الذى مات قبل أن يرى ثمار عمله ويرى رأسه مكللة بأكاليل الغار مثلا واضحا للشجاعة الخارقة والعزم الراسخ.

وعلى أى حال فقد كان من الطبيعى أن تستغل هذه المناطق المستكشفة لغرض التجارة والاستيطان، ولنشر المسيحية والحضارة الأوربية أيضا.

ثالثا: الكشوف الانجليزية:

لم يستمر النشاط الاستعمارى وحركة الكشوف مقتصرا على البرتغال وأسبانيا فقد أثار النجاح الذى أحرزته كل منهما رغبة الدول الأوربية الأخرى فى النزول إلى هذه الحلبة فأدلى الأنجليز بدلوهم فى هذا المجال، ومع أن الدور الذى قاموا به فى حركة الكشوف يعد ضئيلا بالنسبة لما حققه الأسبان والبرتغاليين من كشوف فإنهم ضمنوا لانفسهم نصيبا من الغنيمة أكثر مما كان متوقعا.

ففى عهد الملك "هنرى السابع" قامت بعثة بقيادة الآبطالى " جون كابوت" بعبور الأطلسى والوصول إلى شاطئ أمريكا الشمالية عند " نيوفوندلاند" فى ٢٤ من يونيو ١٤٩٧ ورفع الأعلام الانجليزية هناك، كما أبحر " كابوت" مرة ثانية بخمس سفن فى عام ١٤٩٨ ووصل إلى "فلوريدا" مما أدى بعد ذلك إلى استعمار الانجليز لأمريكا الشمالية ، ومن ثم أصبح ملك انجلترا صاحب السيادة والنفوذ على هذه المناطق. وفى عام ١٦٠٠ وافقت الماكة "اليزابيث" على تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية.

رابعا: الكشوف الفرنسية:

اتجهت فرنسا بكشوفها الجغرافية نحو أمريكا الشمالية حيث قام الملاح " جاك كارتيه" بأربع رحلات اكتشف خلالها أقليم كندا، ومصب نهر سانت لورانس فى عام ١٥٢٥، وتوغل فى العديد من المناطق الأمريكية.

ونتيجة لذلك تكونت شركات فرنسية عند منطقة "سانت لــورانس" لاســتغلال هــذه المنطقة اقتصاديا.

وفى عام ١٦٨٢ اكتشف الفرنسيون نهر المسيسبى وانتشرت قواتهم فــى مــساحات واسعة من أمريكا الشمالية ولكن ذلك لم يستمر طويلا حيث حاربهم الانجليز وانتزعوا كنــدا من أيديهم.

خامسا: الكشوف الهولندية:

كان للهولنديين دور بارز فى حركة الكشوف الجغرافية حيث قام المــلاح " هنــرى هدسون" بعبور شمال الأطلسى والوصول إلى خليج نيويوك ونهر الهدسون الذى سمى باسمه، كما اكتشف القبطان الهولندى " وليم شويتن" طريق رأس هورن فى عام ١٦١٦ والذى أصبح منذ ذلك الوقت طريقا ملاحيا مهما ثم واصل المستكشفون الهولنديون رحلاتهم حتى اقتربــوا من استراليا ونيوزيلندة بين عامى ١٦٢٢ – ١٦٢٤ ولكن نظرا لعدم متابعتهم لهذه الكــشوف نسبت فيما بعد إلى الانجليزى " جيمس كوك" الذى قام بثلاث رحلات اكتشف فيهــا اســتراليا ونيوزيلنده وبعض جزر المحيط الهادى.

وعلى كل حال فقد أتخذ الهولنديون من رحلة هدسون أساسا بنوا عليه حقــوقهم فــى امتلاك واستعمار المنطقة الساحلية فى أمريكا الشمالية الواقعة بين خطى عرض ٤٠، ٤٥° من الشمال، كما أقام الهولنديون مركزا تجاريا مهما فى جزيرة "مانهاتن"، ومحطة تجارية لجمــع الفراء وفى عام ١٦٢٢م تأسست شركة الهند الغربية الهولنديــة ومنحــت حقوقــا تجاريــة واستعمارية واسعة فى مناطق من العالم الجديد وعلى طول ساحل أفريقيا الغربى جنوبى مدار السرطان فبسطت نفوذها على أقليم نهر هدسون وبنت قلعة امستردام كمــا اشــترت هولنــدا جزيرة "مانهاتن" بأربعة وعشرين دولارا.

وفى عام ١٦٢٢ أصبحت نيوزلنده (هولندة الجديدة) مستعمرة حقيقية للهولنديين. كما استولى الهولنديون على ساحل غينيا وفى عام ١٦٣٤ أستولوا على " كوركو" بجــزر الهنــد الغربية ونزلوا "جيانا" بأمريكا الجنوبية واحتلوا جزءا من البرازيل لمدة ثلاثين سنة حتى عام ١٦٥٤م.

كما احتلوا جزيرة هيلانة، واقاموا مستعمرة عند رأس الرجاء الصالح ١٦٥٢م واستولوا على جزيرة موريشيس وجزيرة سيلان وساحل الهند الجنوبى الشرقى وكذلك علـى محطات لتجارة الحرير فى فارس، ومحطة لتجارة البن فى المخا باليمن.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد انصب اهتمامهم إلى أرخبيل الملايو ومن أجل ذلك أسسوا محطات بحرية فى فرموزا، كما وصلوا إلى سومطرة فـى عـام ١٥٩٥ وحكمـوا الجـزر الاندونيسية وسيطروا على التجارة مع الصين واليابان ولم يحل منتصف القرن السابع عـشر الميلادى إلا وكان الهولنديون أكبر قوة أوربية فى البحار الشرقية.

سادسا: النتائج التى ترتبت على الكشوف الجغرافية:

١- النتائج الاقتصادية:

استطاعت حركة الكشوف الجغرافية تغيير خطوط ومعالم مراكز التجـارة العالميـة حيث قلت أهمية البحر المتوسط بالنسبة لهذه التجارة وازدادت أهمية المحيط الأطلسى ويعرف بعض المؤرخين ذلك بالثورة التجارية التى كان من أهم نتائجها.

أ- تدفق المعادن النفيسة مثل الذهب والفضة إلى أوربا.

ب- زيادة عدد أفراد الطبقة الوسطى من التجار ورجال الصناعة وارتفاع مستوى معيشتهم.

ج- ظهور العديد من الصناعات والمحاصيل الزراعية الجديدة مثل البطاطس والكاكاو والتبغ والكينا والذرة.

د- ظهور مشكلة تصريف المصنوعات وزيادة الطلب على المواد الخام اللازمة للصناعة مما ساعد على حركة الاستعمار.

هـ- انشاء البورصات المالية العالمية وازدياد نشاط المصارف.

و- بناء الأساطيل الضخمة حتى تؤمن الدول الأوربية سبل اتصالها بممتلكاتهـا فيمـا وراء البحار.

٢- النتائج السياسية:

أ- اشتعال عملية التنافس الاستعمارى بين الدول الأوربية رغبة فى التوسع فيما وراء البحار على حساب الشعوب المستضعفة.

ب- قيام الحروب بين الدول الأوربية وبعضها.

ج- السيطرة السياسية على دول الشرق.

٣- النتائج الاجتماعية:

١- اقرار مبدأ التفرقة العنصرية والمناداة بسيطرة الرجل الأبيض على غيره.

٢- وضع حياة بعض الشعوب وارادتها تحت السيطرة الأوربية.

٣- انتشار أسواق الرقيق فى أوربا.

٤- انتشار الحركات التبشيرية بغرض نشر العقيدة الكاثوليكية بين سكان المستعمرات.

٥- ابراز دور الطبقة الوسطى.

٤- النتائج العلمية والثقافية:

١-انماء عملية المعرفة، وتغيير الكثير من المعلومات الجغرافية المتوارثة عن شكل الكرة الأرضية وحجمها وعدد القارات والمحيطات.

٢- تطور علم الفلك، وظهور معلومات جديدة عن الاجرام السماوية وغيرها.

٣-اتساع مجال البحث العلمي.

ظهور معلومات جديدة فى علوم النبات والحيوان والبحار.



خرستوف كولمبس

الفصل الرابع

الإصلاح الدينى فى أوربا

تعرضت الكنيسة الكاثوليكية فى القرن السادس عشر لأخطر محنة عرفتها فى تاريخها حيث شهدت انقساما كبيرا بين رجالاتها مما أدى إلى اهتزاز نفوذ الكنيسة الروحى والأخلاقى بين الناس، وتدهور سمعتها، وفقدانها لهيبتها الدينية وظهور مذاهب جديدة مخالفة للمذهب الكاثوليكى بغرض تقويمه، وإصلاح المفاسد التى تردت فيها الكنيسة، وللتحرر من قيودها مما أدى إلى وقوع حروب أهلية طويلة فى أغلب ممالك أوربا الغربية.

وترجع أسباب هذه الانقسام إلى البذخ الذى كان يعيش فيه البابوات وكبار رجال الدين، وجمعهم بين الصفة الدينية والصفة الدنيوية، والزج بأنفسهم فى غمار الحياة السياسية، ومنافستهم للملوك والأمراء والدوقات فى حياة الترف واللهو وتشييد القصور وجمع المال والسعى وراء المصالح الخاصة دون مراعاة للمبادئ الأخلاقية، فكانت الوظائف الدينية تشترى بالمال بصرف النظر عن مؤهلات الشخص كما كانت العدالة نفسها تشترى بالمال.

وقد زاد الطين بلة تجرؤ أحد البابوات وهو "كلمنت الخامس" بنقل مقر البابوية من مقرها الأصلى فى روما إلى " أفينون" بفرنسا حيث ظلت هناك حبيسة تحت السيطرة الفرنسية حوالى أثنين وسبعين عاما. ونظرا لأن البابوية كانت تستمد هيبتها من كرسى القديس بطرس فى روما، فقد وجد الأوربيون فى انتقالها إلى فرنسا لطمة لها خصوصا وأن رجالها كانوا محاطين بالنفوذ الفرنسى وأنهم أعلنوا خضوعهم لسلطان فرنسا باختيارهم من بين ١٢٤ كردنالا و ١١٣ فرنسيا وبمنحهم العديد من القروض لملوك فرنسا أثناء حرب المائة عام. مما جعل بعض المؤرخين يطلقون على هذه الفترة أسم فترة " الأسر البابوى".

كل ذلك أدى إلى اهتزاز مركز البابوية وضياع هيبتها وزعامتها للعالم المسيحى، وزاد الأمر سوءا انقسام كرادلة الكنيسة على أنفسهم فى اختيار البابوات حتى اصبح الذى يدير شئون العالم المسيحى فى أوربا ثلاثة باباوات أحدهما فى أفينون بفرنسا والآخر فى روما بإيطاليا، والثالث فى بيزا بايطاليا أيضا.

وقد أخذ كل بابا من هؤلاء يطعن في رميله، وفي صلاحيته لتولي الكرسي البابوي، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قام بعض البابوات بإصدار قرار الحرمان ضد الاخر، كل ذلك أدى إلى جعل سلطة البابوات موضعا للنقاش والجدال بين الناس، وانقلب الأمر إلى قيام صراع بين مؤيدى بابا افينون، ومؤيدى بابا روما وبابا بيزا.

ونظرا لخطورة هذه المشكلة فإن هذا الوضع لم يستمر طويلا حيث انتهى الأمر بحسمها، فصار للباباوية كما كان في أول الأمر بابا واحد هو " مارتن الخامس" ومقر واحد هو مدينة روما مما أعاد إلى البابوية وحدتها.

وعلى كل حال فقد دفعت الأوضاع المتردية في الكنيسة إلى قيام بعض الغيورين على كيان الدين المسيحى بالمناداة بإزالة المفاسد التي يقع تحت تأثيرها رجال الدين، والعكوف على الدراسات الدينية الجادة، وكان من أبرز هؤلاء " سافونا رولا" الذى أبرز مخازى الباباوية بشكل فاضح وطالب بإصلاح أمورها طبقا لتعاليم الانجيل. ومارتن لوثر الذى قام بحركته فى ألمانيا، وساعدته على ذلك الظروف المتردية القائمة هناك، خصوصا وأن أهلها ذاقوا الأمرين من تحكم البابوات ومظالم رجال الدين وارتكابهم جرائم الرشوة والابتزاز والظلم والإكراه، ومن أمثلة ذلك أنهم كانوا يجمعون الأموال من الأهالى بحجة انفاقها على الاستعدادات الخاصة بشن حروب صليبية على المسلمين، فى حين أنهم كانوا ينفقونها على الملاذ الدنيوية من بذخ وترف ومفاسد. يضاف إلى ذلك أن ابتداع فكرة صكوك الغفران وبيعها لمن يريد التوبة ودخول الجنة من الأهالى بدلا من ذهابه إلى روما للحج وتحمل المشاق[1]، كل ذلك آثار ثائرة المصلح الدينى مارتن لوثر، الذى ترتبط حركة الإصلاح فى المانيا باسمه، وأدى إلى ظهور حركة " جون كلفن" فى فرنسا وسويسرا، وقد قام كل منهم بدور كبير فى الدعوة لإصلاح الكنيسة من مفاسدها والرجوع إلى تعاليم الأنجيل.

ونظرا لدور مارتن لوثر المهم فى قلب موازين الأمور الدينية فى أوربا، وتأسيسه للمذهب البروتستانتى فسنعرض له ولدوره.

---

(1) أصل الفكرة ترجع إلى عام ١٥٠٦ عندما كان البابا بول الثانى بحاجة إلى الأموال لاتمام بناء كنيسة بطرس فى روما ومن هنا فكر فى الحصول على الأموال بواسطة صكوك الغفران التى يمنحها للمؤمنين مقابل ما يدفعونه من أموال تصرف على أعمال البناء ثم انجرف البابوات بهذه الفكرة إلى المتاجرة بها بعد أنتهاء الغرض الأساسى منها فأصبحت مسألة تجارية بحته.

- **نشأة مارتن لوثر:**

ولد مارتن هانس لوثر بأحدى قرى سكسونيا الألمانية فى عام ١٤٨٣ فى أسرة قروية فقيرة، ويبدو أن فقر أسرته كان له تأثير كبير علىنشأته حيث أنه تربى فى طفولتــه تربيــة صارمة وشديدة، وعاش فى ظل حياة قاسية وصعبة انتشرت فيها الخرافات الدينية والمعتقدات الزائفة التى صورت المسيح فى صورة المنتقم الجبار الذى يتوعــد النـــاس بأقــصى أنـــواع العقوبات، فتسلط علىمارتن لوثر القلق النفسى والخوف من ارتكاب الآثام، وخشى أن يختطفه الموت وعليه بعض الذنوب.

وعلى الرغم من فقر والد لوثر، وقلة أمواله فقد أصرت أسرة مارتن علـــى تعليمـــه، خصوصا وأن والده كان يحلم فى أن يرى ابنه رجلا من رجال القانون ونتيجة لذلك اتجه إلى دراسة القانون ولكنه لم يلبث أن انصرف إلى الدراسات الدينية وانخرط فى ســلك الرهبنـــة عسى أن يكون فى ذلك خلاص من ذنوبه، ودخل فى أحد أديرة القديس "أوغسطين" فى عـــام ١٥٠٥م أملا فى تطهير نفسه من الخطايا والذنوب والوصول إلى رحمة الله، ونظرا لتفوقه فى الدراسات الدينية واللاهوتية حصل على شهادة جامعية تعادل الدكتوراه وكلف بالتدريس فـــى جامعة "فتنبرج" وبدأ يتقلد مناصب عديدة برزت خلالها شخصيته، وقوة إيمانه بمذهبه.

وفى عام ١٥١٠م أتيحت الفرصة لمارتن بزيارة روما لمدة شهر، وهناك رأى بنفـــسه ما عليه رجال الكنيسة من انحلال وفساد وانهيار القيم وتسلط على حياة الناس اليومية، كمـــا رأى ما يقوم به البابا من جمع الأموال مقابل صكوك الغفران التى يدعى بأنها تكفر الـــذنوب كل ذلك دفعه إلى الثورة على البابا والهجوم على مفاسد الكنيـــسة، والـــدعوة إلـــى المـــذهب البروتستانتى الذى تتلخص فكرته فى أن الأيمان المطلق برسالة القديس بولس إلى أهل رومية وهى أن " البار بالأيمان يحيا أى " السلام بالأيمان وحده لا بالأعمال" وسميت بعقيدة التبريـــر بالإيمان، ثم أخذ فى عرض أفكاره حول هذه الرسالة أمام تلاميذه مفندا لها بالحج والبـــراهن القاطعة، ومطالبا بإقامة كنيسة تعود بالدين إلى أصل الكتب المقدسة وتؤســـس علـــى مبـــادئ وتعاليم الإنجيل لا على مطالب رجال الدين فى روما ومناديا بضرورة فهـــم العامـــة لأمـــور دينهم، ورفع سيطرة رجال الدين على ضمائرهم وعقولهم، وداعيا لنشر التعليم المدنى الـــذى يتيح الفرصة للأفراد لنيل قسط من التعليم بعيدا عن تدخل الكنيسة.

وفى عام ١٥١٧م جاء إلى سكسونيا الخطيب الموهوب الراهب الواعظ الدومينكانى كمندوب عن البابا من أجل بيع صكوك الغفران، مدعيا أنها كافية لتخليص من يشتريها من كل ما ارتكبه من آثام وخطايا وعندئذ وجد لوثر الفرصة المواتية لكشف المهازل التى يرتكبها البابا باسم الكنيسة فأستغل فرصة تجمع الناس عند كنيسة " فيتنبرج" بمناسبة عيد الشهداء، وأعلن استنكاره لعملية بيع صكوك الغفران موضحا أن النجاة من النار والثواب والعقاب لايتم عن طريق شراء صكوك الغفران، وإنما تأتى عن طريق الإيمان بالله وأصر على أن الكتاب المقدس وحده هو دستور المسيحيين.

كما علق لوثر على أبواب هذه الكنيسة القضايا الخمس والتسعين الشهيرة التى تؤكد فساد الكنيسة، وطالب بمناقشة مندوب البابا علانية، كما طالب بالسماح للقساوسة بالزواج وأعلن ان الطلاق أمر شرعى فى الكنيسة وأن الغفران رهن برحمة الله، وأنه ليس للبابا وحده حق تفسير الإنجيل، وطالب لوثر البابا أن يعترف بحقيقة هذه الأمور، كما أعلن تأييده للنزعة القومية التى ظهرت فى ألمانيا وطالب رجالاتها بإدارة شئون الكنيسة، وناشد الأمراء الألمان بتزعم حركة الإصلاح الدينى، وقد وافقه العديد من الأمراء على رأيه خصوصا وأنهم كانوا يرون أن سلطان البابا تحد من حريتهم وتصرفاتهم.

وعبثا حاول البابا أن يجعل لوثر يتراجع عن آرائه بل أخذت دعوته تجد صدى لدى الرأى العام الألمانى وساعده على ذلك اختراع الطباعة فى ألمانيا حيث جعل منها لوثر وسيلة لنشر أفكاره خصوصا وأن المجلات والجرائد لم تكن قد عرفت بعد مما سهل توزيع احتجاجه ومجادلته ونقده لتصرفات الكنيسة فى طول البلاد الألمانية وعرضها، ورواج كتبه ومؤلفاته الخاصة بآرائه تجاه الكنيسة. ونتيجة لسخرية كتابات لوثر وطعنها فى الكنيسة فقد أصدر الباب "ليو العاشر" قرار الحرمان ضد لوثر وأعلن حرمانه من رحمة الكنيسة فى ديسمبر ١٥٢٠ إلا أن لوثر لم يعبأ بذلك القرار بل قام بإحراقه علانية أمام الناس فى ساحة "فيتنبرج" ونشر بعد ذلك رسالته الشهيرة عن الأسر البابوى للكنيسة مبينا ضعفها ومفاسدها، كما تهجم على رجال الدين مبينا خداعهم للمسيحيين.

ونتيجة لتدهور الموقف واهتزاز سلطة الكنيسة طلب البابا من شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية تنفيذ قرار الحرمان ضد لوثر وقمع حركته باعتباره مارقا وملحدا وخارجا على التعاليم المسيحية.

ونتيجة لذلك دعا الإمبراطور مارتن لوثر إلى المثول أمام المجلـس الامبراطـورى لمحاكمته والنظر فى أفكاره ومطالبته بأن يعترف بخطيئته.

وعلى الرغم من خطورة موقف لوثر فقد أصر على آرائه خلال المحاكمة ولم يتراجع عن آرائه أو عن موقفه مما جعله بطلا شعبيا، وجعل أعوانه وأتباعه يتزايدون، وجعل هيئـة المحكمة تعده خارجا على القانون، فحكم عليه بإهدار دمه باعتباره هرطقيا، وحرمانه من كافة حقوقه الدينية إلا أن الأمير فردريك أمير مقاطعة سكسونيا وضعه تحت حمايته وجعله يقيم فى قصره، كما التف حوله بعض رجال الدين الساخطين على تصرفات كنيسة رومـا، وتحكـم البابا فيهم مما زاد من شأنه وأضعف القرار الباباوى ضده.

وخلال ذلك وضع أمير سكسونيا مارتن لوثر فى مخبأ بعيد عن الأنظار لمـدة سـنة كاملة، مما أبعده عن العقوبة وساعد على ذلك انشغال الإمبراطور فى أمور مهمة أخرى منها وقف زحف الأتراك العثمانيين على أوربا، ومحاولاته جمع ممتلكاته المتفرقـة تحـت رأيـه واحدة.

وخلال هذه الفترة قام لوثر بترجمة الإنجيل إلى الألمانية عن النص اليونانى، بأسلوب يتسم بالوضوح وقوة الأسلوب، مما أوقد الروح الوطنية لدى الشعب الألمانى وسـاعد عامـة الناس فى الإطلاع على الكتاب المقدس، وأدى إلى إثراء اللغة الألمانية، وازدهار آدابها.

ونتيجة لذلك استمرت حركة الإصلاح الدينى وبدأت اللوثرية فـى اكتـساح معظـم الطبقات الألمانية وإثارة المعانى الدينية والخلقية القائمة على هدى الكتاب المقدس بين أفرادها. وخلال ذلك رأت بعض الطبقات فى هذه الحركة إصلاحا لأحوالها والحصول علـى بعـض الامتيازات فقامت بالثورات التى كان من أبرزها " ثورة الفرسان" و " حركة الفلاحين".

وعن ثورة الفرسان فقد وجد الفرسان الذين كانوا قد فقدوا الكثير من امتيـازاتهم فـى الحركة اللوثرية فرصة لاستعادة نفوذهم فهاجموا الكنائس وحطموا ما فيها من صور وتماثيل واستولوا على ما فيها من نفائس ولكن الأمراء استطاعوا القضاء علـى ثـورتهم. وبالنـسبة لحركة الفلاحين فنظرا لأن هذه الطبقة كانت تعانى من أوضاعها الاجتماعيـة والاقتـصادية وكانت حالتهم حالة استرقاق، فقد قامت بثورة انتشرت فى جميع أنحاء ألمانيا بسرعة فائقـة، مطالبة بالتخلص من عبودية الأرض وضرورة تحديد الخدمات الإقطاعية المفروضة علـيهم، وتخفيف ضريبة العشور الكنيسية، وإلغاء الرقيق والمساواة فى الملكية، والحق فـى اختيـار

رجل الدين فى كل مجتمع من مجتمعاتهم، وان تنظر هذه المطالب فى ضوء الكتاب المقدس، وأشاروا إلى أن الله خلقهم أحرارا ولذلك يجب أن يبقوا كذلك.

ونتيجة لاستخدام أصحاب هذه الثورات للعنف تحت قناع اللوثرية أضطر مارتن لوثر إلى الظهور من مخبئه ليعلن أن حركته بريئة من اتخاذ العنف وسيلة لتحقيق أهـدافها، وأنـه سيقاوم كل من يلجأ إليه.

ونظرا لأن الإمبراطور شارل الخامس كان مشغولا خلال هذه الفترة بحروبـه ضـد فرنسا فى إيطاليا، وفى وقف زحف العثمانيين على النمسا والمجر، فإنه لم يتخـذ أى موقـف صريح ضد اللوثريين.

وإلى جانب ذلك فإنه نظرا للخلافات التى كانت قائمة بين البابا والإمبراطور فى ذلك الوقت انقلب الوضع لصالح لوثر واتباعه حيث اجتمع المجلس الامبراطورى فى " بافاريا" فى يونيو ١٥٢٦ لبحث القرار الصادر بإهدار دم لوثر ومصادرة كتاباته، وأصدر قرارا فى غيـر صالح الكنيسة الكاثوليكية، وهو أن لكل أمير الحق فى اختيار المذهب الدينى الذى يريده فـى إمارته، وبذلك أصبح لأتباع لوثر مذهبا شرعيا معترفا به فانتهزوا هذه الفرصة وتطلعوا إلـى الاستئثار بأموال الكنيسة، وقاموا بالاستيلاء على أملاكها فى مقاطعاتهم ، وطردوا اتباع البابا من رجال الدين.

ونظرا لتطور الموقف السياسى بين البابا والإمبراطور هاجمت قـوات الإمبراطـور روما وأسرت البابا. ونتيجة لانتشار اللوثرية وما تبعه من انقسام خطير هـدد الإمبراطوريـة دعا الإمبراطور إلى عقد المجلس الامبراطورى مرة ثانية، وفيه تراجع عمـا أصـدره مـن قرارات فى المجلس الأول، فأمر بإلغاء الحرية التى أعطيت للأمراء لاختيار المـذهب الـذى يريدونه فى ولاياتهم، كما أمر بقمع اللوثرية وإهدار دم لوثر.

ونتيجة لذلك احتج الأمراء اللوثريون لأن هذه القرارات ستحرمهم من "الثـروة التـى هبطت عليهم من استيلائهم على ممتلكات الكنيسة، لذلك قرروا عـدم الموافقـة علـى تلـك القرارات وسموا أنفسهم بالمحتجين Protestant وهو الاسم الذى يحمله اتباع هـذا المـذهب حتى اليوم، ونظرا لتدهور الموقف وإمكان حدوث حرب دينية بين المسيحيين فى حين كـان الأتراك العثمانيون يحاصرون فينا فى عام ١٥٢٩ فقد حاول الإمبراطور أن يحـل المـشكلة سلميا وبشكل مؤقت فعقد مجلسا فى "أوجزبرج" عام ١٥٣٠ دعا فيه الأمـراء البروتـستانت

للاجتماع مع الأمراء الكاثوليك فى محاولة لفض النزاع بينهما، وكان الإمبراطور فـــى هــذا المجلس مترددا وحائرا حيث تمسك كل فريق برأيه ففى حين كان متأثرا برأى رجال الــدين الكاثوليك لم يستطع أن يلبى طلبهم بالضرب على أيدى البروتستانت، ولما حاول التقريب بين الطرفين كان البون شاسعا ولم تفلح وسائل اللين مع البروتستانت للرجوع عن أفكارهم ومـــن هنا رأى البابا أتباع الشدة فأصدر قرارا بتحريم اللوثرية ومعاقبة اتباعها أشد العقـــاب إذا لـــم يتراجعوا عن أفكارهم.

ولما تبين البروتستانت مدى الأخطار التى لحقت بهم قرروا الاجتمـــاع فـــى مدينـــة "شمالكلد" عام ١٥٣١ وهناك كونوا حلفا أعلنوا فيه أنهم لن يرضخوا للقوة، وسوف يـــدافعون عن مبادئهم ومصالحهم بكل قوة، وأنه إذا تعرض فريق منهم للعدوان هب الجميع لنصرته.

وقد ناقش المجتمعون كيفية الدفاع عن أنفسهم وقرروا تكوين جيش نظـــامى يجهـــز بأحدث الأسلحة. والجدير بالذكر أن هذا الحلف كان بمثابة النواة لنمو البروتستانتية وتدعيمها، فازداد عدد المنضمين لها، وقويت ركائز البروتستانتية، كما أجتمع اللوثريون مرة أخرى فـــى "شمالكلد" حيث رأوا الاستعانة بملكى فرنسا وإنجلترا المناوئين للإمبراطور.

ولما رأى الإمبراطور عدم جدوى اتخاذ وسائل الشدة مع البروتـــستانت لـــم يـــضع تعليماته باتخاذ القوة معهم موضع التنفيذ خشية قيام حرب أهلية لذلك قرر عقد اجتماع لمناقشة الموقف، وفى أعقابه أصدر قرارات أطلق عليه سلام "نورنبرج" دعا فيه إلى وقف المشاحنات والحروب الأهلية داخل الامبراطورية، وتحقيق السلام وكان ذلك من العوامل الذى زادت من رفع نجم البروتستانت الذين أعلنوا الموافقة على توحيد الصف أمام عدوهم المـــشترك وهـــم المسلمون.

وبعد أن استقرت الأمور للإمبراطور، وخفت متاعبه الخارجية وتوقف زحف الأتراك "على أوربا قرر الدعوة إلى اجتماع مجلس دينى يجمع بين الكاثوليك والبروتستانت عام ١٥٤٥ ولكن البروتستانت رفضوا قبول هذه الدعوة لاعتقادهم أن الإمبراطور لايقصد إلا مخـــادعتهم والقضاء عليهم، وهنا قرر الإمبراطور استخدام القوة ضدهم.

وفى هذه الأوقات العصيبة توفى مارتن لوثر فخسر البروتستانت قائدهم الروحى، كما خسروا بعد ذلك المعارك مع القوات الإمبراطورية التى اســـتطاعت الـــدخول إلـــى المانيـــا، واستخدمت وسائل البطش لعدول البروتستانت عن مذهبهم ولكن دون جدوى.

وفى محاولة للتوفيق بين المذهبين حاول الإمبراطور التوصل إلى طريقة ترضى الطرفين، فتوصل إلى نظام أطلق عليه النظام المؤقت والذى بمقتضاه يتم التسامح مع البروتستانت ويكفل رضاءهم كإباحة زواج القسس وطقوس العبادة البروتستانتية ومع ذلك لم ينجح الإمبراطور فى تطبيق هذا النظام حيث رفضه كل من الطرفين مما نتج عنه احتدام الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت، وسارت الأمور فى غير مصلحة الامبراطور، وتزايد حلفاء البروتستانت حتى اضطرت القوات الإمبراطورية إلى مغادرة ألمانيا.

وفى فبراير ١٥٥٥ تم دعوة المجلس الإمبراطورى للاجتماع لتقرير الصلح مع البروتستانت، وفى هذا الاجتماع تقرر إعطاء الحرية لكل أمير أن يختار المذهب الذى يقبله فى إمارته، وعلى الرعايا أن يختاروا أما الموافقة على المذهب الذى يرضاه الأمير أو مغادرة الولاية إلى المناطق التى تدين بالمذهب الذى يرغبونه، كما أتفق على أن تبقى أملاك الكنيسة الكاثوليكية التى أخذها البروتستانت فى أيدى من استولى عليها، وهكذا كان هذا الصلح انتصارا كبيرا للبروتستانتية واستراحت ألمانيا من الحروب الأهلية.

ولم يقتصر الإصلاح على ألمانيا بل انتقل إلى الدنمرك والنرويج والسويد وسويسرا وغيرها.

وهكذا يتضح أن شعوب أوربا " القرن السادس عشر" كانت تشعر بقلق روحى بعد أن رأت باباوات الكنيسة ينغمسون فى ملاذ الدنيا ويبتعدون عن الشئون الدينية مما شجع على ظهور الحركات الدينية الإصلاحية التى اتخذت الطابع الثورى فى كثير من الأحيان والتى نجحت فى أحياء الشعور القومى فى أحيان أخرى.

الفصل الخامس

إنجلترا فى عصر أسرة تيودور

[١٤٨٥ - ١٦٠٣]

تبدأ انجلترا تاريخها الحديث قبل أى دولة أوربية أخرى[١] ففى حين أن العديد من دول أوربا تبدأ تاريخها بعصر النهضة فإن الانجليز يبدأون تاريخهم بفتح النورمانديين لبلادهم فى عام ١٠٦٦م ، ويستندون فى ذلك إلى أن استيطان النورمانديين فى إنجلترا وامتزاجهم مع شعبها قد نتج عنه تكوين الشعب الانجليزى الحديث الذى امتدت أملاكه إلى العديد من دول أوربا وخاصة فرنسا.[٢].

ونتيجة للتنازع على عرش إنجلترا قامت بها حرب أهلية أطلق عليها "حرب الوردتين" ١٤٥٥- ١٤٨٥م نسبة إلى شعار الأسرتين المتنازعتين على العرش، فكانت الوردة البيضاء شعار أسرة يورك، والوردة الحمراء شعار أسرة.لانكستر وتمكنت أسرة يورك من الاستيلاء على الحكم، وبدأت فى اضطهاد معارضيها بقسوة شديدة، مما جعل الشعب الانجليزى ينفر منها ويقوم بمؤازرة أسرة لانكستر حتى مكنها من الوصول إلى العرش عقب موقعه "بوزورث" عام ١٤٨٥.

وقد استطاع " هنرى تيودور" مؤسس هذه الأسرة والذى أطلق على نفسه " هنرى السابع" أن يقود بلاده فى فترة من أصعب فترات حياتها، فنجح فى إنهاء الحروب الإقطاعية، وأوقف المغامرات الخارجية التى كانت بلاده قد انغمست فيها، وعقد معاهدة تحالف مع أسبانيا، كما أقام روابط مصاهرة مع ملكها.

ونتيجة لحركة الكشوف الجغرافية والمغامرات البحرية التى بلغت أوج قوتها فى ذلك الوقت، ونتيجة أيضا لاهتمام " هنرى السابع" بتشجيع تجارة بلاده وتنميتها شهدت إنجلترا رخاءً اقتصاديا لم تعرف له مثيلا من قبل.

---

[١] أن قرب انجلترا من قارة أوربا وانفصالها عنها فى آن واحد كان له أكبر الأثر فى تعيين الاتجاه الذى سارت عليه هذه الدولة.

[٢] لم يستطع الانجليز المحافظة على ممتلكاتهم فى فرنسا وبخاصة بعد حرب المائة عام وما قامت به " جان دارك" من بطولات نادرة الهبت حماس مواطنيها.

وإلى جانب ذلك فقد ساعد هنرى على إنعاش حرية الفكر فى بلاده بتشجيعه لحركة النهضة وإحياء العلوم والإصلاح الدينى كما عمل على تنظيم الإدارة الحكومية حتى بلغت درجة عالية من الكفاءة.

وهكذا انصرف الإنجليز عن خلافاتهم السياسية، وبدأوا يعيشون عصرهم فى ظل ملك قوى استطاع أن يقضى على الفوضى والاضطراب اللذين انتشرا فى بلاده خلال الحرب الأهلية كما كانت له اليد الطولى فى إدارة شئونها دون أن يعبأ بسلطة برلمان أو غيره.

ولكى يقوم هنرى بتدعيم الملكية على أسس قوية ويحد من سلطة النبلاء الذين قامت حرب الوردتين بسببهم قام بإصدار عدة قوانين كان من أهمها " قانون غرفة النجم" عام ١٤٨٧م والذى ينص على مراقبة النبلاء والعمل على الحد من نفوذهم وقانون آخر يقضى بمحاكمة مُعارضى الملك بتهمة الخيانة، وقانون ثالث يحرم على النبلاء جمْع الأتباع والأنصار بغرض زيادة نفوذهم. يضاف إلى ذلك القانون الذى شدد قبضة الملكية على شئون الصناعة.

وبهذه القوانين وما شابهها تمكن هنرى السابع من تأسيس ملكية قوية تحكمت بقبضتها على زمام الأمور فى إنجلترا، مما أدى إلى تفرغ الشعب الانجليزى لنهضة بلاده.

هنرى الثامن وحركة الإصلاح الدينى: [١٥٠٩-١٥٤٧]:

خلف هنرى الثامن والده فى حكم إنجلترا عام ١٥٠٩ ويختلف عهده عن عهد أبيه اختلافا واضحا، ففى حين كان الإنجليز قد سئموا عهد والده لأنه لم يحقق لإنجلترا أى مكاسب دولية، فقد رحبوا بحكم ابنه الذى كان لديه تطلعات واسعة فى رفع رايات النصر لبلاده وجعلها قوة دولية لها مكانتها وهيبتها، فعمل على بناء أسطول قوى لإنجلترا، وأنشأ أحواضا لبناء السفن ومدرسة للبحارة ونجح فى إجبار فرنسا على دفع إتاوة سنوية لبلاده بعد انتصاره عليها، وناصر أسبانيا ضد فرنسا فى الحلف المقدس ١٥١١، وقام بتأديب الاسكتلنديين الذين حاولوا غزو بلاده، وقام بتوحيد شمال إنجلترا وجنوبها، يضاف إلى ذلك رفضه وصاية البابوية على بلاده وتشجيعه لحركة الإصلاح الدينى، واستصداره القوانين التى ساعدت على نشر المذهب البروتستانتى فى إنجلترا، وأدت إلى فصل الكنيسة الإنجليزية عن كنيسة روما، واتخاذها طريقا وسطا وقيام الاضطرابات والمظاهرات العادية للبابا ولم يكن ذلك بوازع دينى من جانبه حيث أنه كان معروفا بمعارضته لحركة لوثر وكارها لها منذ ظهورها لدرجة أن

بابا روما منحه لقب حامى العقيدة لكتابته بحثا طعن فيه على لوثر وأفكاره، بل كان لأسباب سياسية وشخصية محضة جعلته يلقى بكل ثقله لتأييد حركة الإصلاح الدينى، وأهم هذه الأسباب هى:-

١- رغبته فى التخلص من نفوذ كنيسة روما، حتى يكون الحاكم الأعلى لإنجلترا سياسيا ودينيا، وأن يكون كل السلطان فى يده.

٢- رغبته فى التخلص من زوجته كاترين الأرجونية أرملة أخيه الأكبر " آرثر وابنه الملك "فريد ناند" ملك أسبانيا والزواج من وصيفتها " آن بولين Anne Boleyn" الذى أغرم بها ورغب فى أن ينجب منها طفلا ذكرا يتولى الحكم من بعده وخاصة أن كاترين لم تنجب له سوى ابنته مارى. ولما كان ذلك العمل يعتبر منافيا للقوانين الكنسية فى روما خصوصا وأن الطلاق محرم لدى الكاثوليك فقد كانت هذه الخطوة الخطيرة تلزم موافقة البابا، ومع أن الباباوات غالبا ما يستجيبون لرغبات الملوك خفية، فإن الوضع كان يختلف فى هذه المرة حيث كان البابا "كلمنت السابع" يعيش فى ذلك الوقت تحت سيطرة "شارل الخامس" ملك أسبانيا وشقيق زوجة الملك هنرى ويخشى أغضابه ونتيجة لذلك لم يستطع هنرى الحصول على موافقة البابا بطلاق "كاترين".

ولما تعقدت المسألة اضطر الملك هنرى إلى اتخاذ عدة قرارات ضد كنيسة روما فقد اختار " توماس كروميل Thomas Cromwell" أكبر وأشد أنصار قطع جميع الروابط بين كنيسة انجلترا وكنيسة روما، وجعلها تحت رئاسة ملك انجلترا للعمل كنائب عنه فى شئون الكنيسة، وقد قام "كرمويل" بمساعدة الملك فى التخلص من سياسة الكنيسة الباباوية وتحقيق مآربه فى الطلاق من كاترين والزواج من آن بولين وبثلاث أخريات فيما بعد، والاستيلاء على الأموال الخاصة بكنيسة روما فى إنجلترا، وببسط سلطاته الدينية والدنيوية على بلاده ومنع إرسال الأموال السنوية إلى البابا وعلى الرغم من ابتهاج معظم الإنجليز لهذه الخطوة فقد رفضها الكاثوليك المتعصبون، وقاموا بثورة فى شمال إنجلترا ضد الملك "هنرى الثامن"، ولكنه استطاع القضاء عليها والسيطرة على الموقف.

وهكذا ظهر الإصلاح فى إنجلترا بشكليه السياسى والدينى، وساعد على ذلك رغبة الشعب الانجليزى فى وضع حد لمفاسد الكنيسة الكاثوليكية، وخاصة بعد أن ظهرت جماعة

مصلحى اكسفورد التى أبرزت استغلال البابوية لبلادهم فى بيع صكوك الغفران، والحصول على مكاسب ضخمة نتيجة لذلك، ورغبتهم أيضا فى الاستقلال بشئونهم عن أية سيادة أجنبية أو وصاية وبخاصة لأن البابوية فى نظرهم كانت تمثل سلطة أجنبية عنهم.

وعلى كل حال فقد ترك الشعب الانجليزى لمليكه أمر اختيار السياسة الدينية، وقد ساعد الملك على ذلك أن البرلمان بمجلسيه كان خاضعا له فأصدر تشريعاته الملائمة لرغبات الملك والمؤيدة للاستقلال عن الكرسى البابوى والاحتفاظ بالأموال التى كانت ترسل لروما كل عام فصدر قانون السيادة العليا الذى يعتبر الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة الإنجليزية القومية، وخوله كل السلطات التى يتمتع بها الباباوات، كما ألغى ما كان للبابوية من سلطة فى المسائل الكنسية.

ونتيجة لذلك استطاع الملك "هنرى" أن يحقق استقلال الكنيسة الإنجليزية وأن يكون رئيسها الأعلى، كما استطاع أن يحقق رغبته فى طلاق "كاترين"، والزواج من " آن بولين"، وأن يملأ خزانته بالأموال التى كانت تتدفق من إنجلترا على كنيسة روما.

وهكذا يتضح أنه على الرغم من أن حركة الإصلاح الدينى فى إنجلترا كان مبعثها أسبابا شخصية فانها ساعدت على ازدياد قوة الملكية وتهيئة متطلباتها من وسائل الأبهة والقوة، وأكدت المبدأ الذى نادى به هنرى الثامن بأن السلطة الملكية لاتتجزأ ولا تقبل القسمة.

وفى عام ١٥٤٧ توفى هنرى الثامن وخلفه أبنه إدوارد السادس من زوجته الثالثة "جين سيمون".

إدوارد السادس وموقفه من البروتستانتية: [١٥٤٧ – ١٥٥٣]

كان قاصرا عند توليه الملك حيث لم يزد عمره عن العاشرة مما جعل المجموعة البروتستانتية المحيطة به برئاسة عمه "إدوارد سيمور" والذى أنعم عليه بلقب " دوق أوف سمرست" تسيطر على زمام الأمور، وتسير بحركة الإصلاح الدينى شوطا بعيدا فصادرت ما تبقى من أموال الكنيسة، وأدخلت المذهب البروتستانتى إلى البلاد فى آن واحد كما تناولت التغيير فى العقيدة الكاثوليكية بإلغاء طقوسها وتحطيم الصور والتماثيل الدينية وإباحة زواج القساوسة وإلغاء كل القوانين التى أدت إلى اضطهاد البروتستنت أو الاساءة إليهم.

وإصدار كتاب الصلوات العامة بالإنجليزية، وهو الكتاب الذى طبعته الكنيسة البروتستانتية بطابع قومى عام ١٥٤٩،وجعل الصلوات الجديدة جامعة مما أحدث عصيانا دينيا فى جنوب غرب إنجلترا.

ونتيجة لهذه التغيرات قامت اضطرابات عنيفة داخل إنجلترا بين الفلاحين الكاثوليك بالأقاليم الغربية، كما قامت ثورات أخرى نتيجة لظهور شبح البطالة والتذمر من ارتفاع الأسعار، ويرجع ذلك إلى قيام أصحاب الحقول بإغلاقها، وتحويلها إلى مراع للأغنام للاستفادة من صوفها بدلا من زراعتها، ومن هنا طردوا الفلاحين الصغار من أراضيهم وأحاطوها بأسوار، وبذلك تحولت مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية إلى حقول مسورة لتربية الأغنام مما أدى إلى اشتداد البطالة وارتفاع الأسعار وتسبب فى غضب الرأى العام على الملك ادوارد وإتهامه بجمع ثروة طائلة من أموال الكنيسة. وزاد الأمر توترا محاولات الملك أدوارد السادس تغيير نظام الوراثة بحجة أن خليفته الشرعية على العرش "مارى" كاثوليكية متعصبة، كما أنها ابنة غير شرعية للملك.

ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل، وتولت "مارئ تيودور"الحكم بعد وفاة الملك أدوارد.

مارى تيودور(١) [١٥٥٣ – ١٥٥٨]

تسلمت مارى ابنة هنرى الثامن من زوجته الأولى" كاترين الأرجونية " الحكم فى عام ١٥٥٣م ، **وقد دفعها تعصبها للكاثوليكة الى اعادة حق الكثلكة فى العبادة الإنجليزية والقضاء على كل ما تم من إصلاح فى عهد "أدوارد السادس" مما قلب الأوضاع فى انجلترا رأسا على عقب وزاد من اضطراب أمورها. وكان من أول قراراتها استبدال الأساقفة البروتستانت بكاثوليك وإعادة العلاقات مع روما والى جانب ذلك قامت باضطهاد المخالفين للكاثوليكية ،** فأحرقت اكثر من مائة من الأساقفة البروتستانت أحياء ومنهم الأسقف "كرانمر" الذى بارك زواج والدها من" آن بولين " وأمرت بالغاء كتابى الصلوات المعمول بهما **هذا الى جانب انها وافقت على الزواج من "فيليب الثانى" ملك أسبانيا الكاثوليكى فى عام ١٥٥٤ مما ساعد على**

---

(١) عاشت هذه الملكة شبابها المأساوى الذى لم تذق خلاله قط طعما للسعادة، ففى الثامنة من عمرها أعلن والدها بطلان زواج أمها، وفى الخامسة عشرة من عمرها افترق والدها عنها، وأعلن انها ابنة سفاح وتم تجريدها من لقبها كأميرة بعد مولد اختها اليزابيث، ثم استرضاها والدها بعد ذلك.
للتفاصيل أنظر: ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ٤، المجلد السادس، ص ١٥٤.

جعل إنجلترا فى قبضة أسبانيا وألغت القوانين المعادية للباباوية منذ عهد هنرى الثامن مما زاد من غضب الشعب الإنجليزى عليها خصوصا وانه كان يرنو إلى الاستقلال بشئون بلاده عن كل من أسبانيا والباباوية واصبح يخشى ان يؤدى هذا الزواج إلى تحويل إنجلترا إلى بلد تابع لأسبانيا، ويورط انجلترا فى حروب مع فرنسا لا ناقة لها فيها ولا جمل. ونتيجة لذلك ارتفعت أصوات الاحتجاج ضدها، ولكنها قاومت معارضيها بشدة لم يسبق لها مثيل من التنكيل والإرهاب لدرجة أن أطلق عليها البعض اسم مارى "الدموية" ويبدو أن اضطهادها لمعارضيها أدى إلى زيادة أنصارهم خاصة بعد ما لمسوا شجاعة واستبسال البروتستانت أمام الموت.

وعلى الرغم من أنها كانت ترغب فى أن تلد ابنا من فيليب، فإن شعبها كان يخشى أن يكون ثمرة زواجها من الملك الأسبانى إنجاب طفل تجرى فى عروقه الدماء الأسبانية، ويصبح بعد ذلك وليا لعهد إنجلترا، ولكن من حسن حظ الإنجليز أن "مارى" كانت عاقرا مما هدأ من روعهم وأزاح عنهم كابوسا كان يقض مضاجعهم.

ورغبة من مارى فى تلبية رغبة زوجها قامت بجر بلادها فى حرب ضد فرنسا من أجل مصالح اسبانيا، مما جلب على إنجلترا أوخم العواقب حيث انتزع منها الفرنسيون ميناء "كاليه" عام ١٥٥٨ ونتيجة لذلك ضج الشعب الانجليزى من حكم مارى الذى ارتبط فى ذهنهم بالقتل وسفك الدماء والتضحية بمصالح بلادهم فى سبيل أسبانيا وعلى كل حال فقد ابتسم الحظ للإنجليز بأن تكون خليفة هذه الملكة على العرش هى أختها "اليزابيث"، ابنة "آن بولين".

الملكة اليزابيث (الياصابات) [١٥٥٨- ١٦٠٣]

يعتبر عصر الياصابات من أزهى العصور فى تاريخ بريطانيا الحديث حيث استطاعت بذكائها ودهائها إعادة روح الانسجام بين الشعب الانجليزى التى طحنته الاضطرابات الدينية خصوصا بين الكاثوليك والبروتستانت وبخاصة أنها لم تكن متعصبة لأى طرف من الأطراف، وعلى الرغم من أن هذه المهمة لم تكن سهلة فقد نجحت فيها إلى حد كبير.

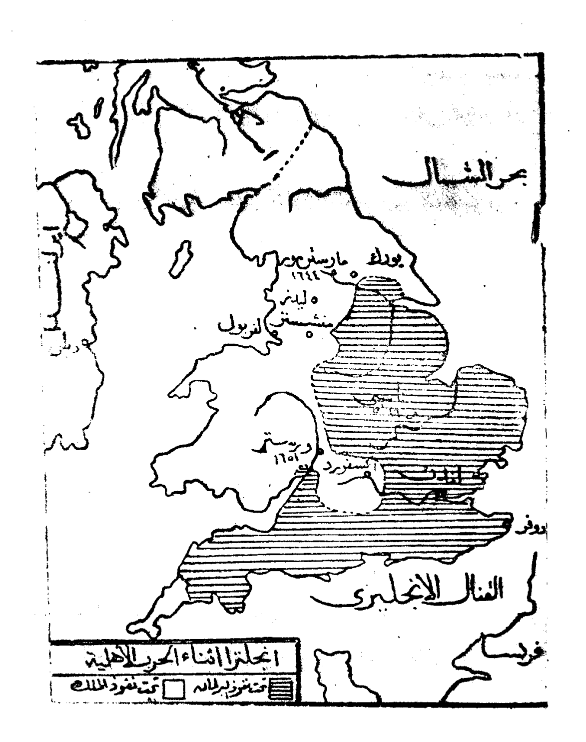
وفى عهدها ازداد البرلمان البريطانى قوة واتسع دوره وتوطد نظام الكنيسة الانجليكانية بعد أن بعثت إلى الوجود الإصلاحات التى قام بها والدها "هنرى الثامن"، وازدادت قوة بريطانيا البحرية بحيث أصبحت سيدة البحار بلا منازع كما ظهر فى عهدها

العديد من الشخصيات الأدبية والروائية التى أنعشت الروح الأدبية فى بريطانيا وكان على رأس هؤلاء "وليم شكسبير" الذى يعد من منجزات ذلك العصر.

وعلى الرغم من أن اليزابيث لم تكن متعمقة فى النواحى الدينية فقد استطاعت صبغ بريطانيا بطابع مميز ففصلت كنيسة بريطانيا عن كنيسة روما، وأعادت كتاب الصلوات البروتستانتية، ووضعت من القوانين ما يتيح لملك بريطانيا السيادة على جميع الشئون الدينية والزمنية معا ومعاقبة كل من يقبل أى تعاليم من جهة أخرى، كما أدخلت العديد من التعديلات على نظام العبادة، بحيث أصبح نظام الكنيسة الانجليكانية بروتستانتى العقيدة كاثوليكى المظهر مما قرب وجهات النظر بين إنجلترا واسكتلندا ولما لم يرض المتطرفون من الكاثوليك عن هذه التعديلات استغاث بعضهم بالملك " فيليب الثانى" ملك أسبانيا لإنقاذهم من هذا النظام، وطالبوه بالتدخل فى الأمور، وعلى الرغم من أن إنجلترا كانت ترغب فى تجنب الصدام العسكرى مع أسبانيا فقد أرسل ملك أسبانيا أسطوله (الأرمادا) إلى إنجلترا فى عام ١٥٨٨م فى محاولة لتخليص الكاثوليك من النظام الانجليكانى، وخلع اليزابيث لتخلفها على العرش ابنه فيليب الثانى.

وقد قبلت إنجلترا التحدى، ووقفت اليزابيث بجانب جنودها ترفع من روحهم المعنوية وتدعوهم إلى الثبات حتى استطاع الأسطول الانجليزى الصغير الحجم تحطيم الأسطول الأسبانى الذى باركه البابا فى معركة رهيبة عند القنال الانجليزى، ولم ينج منه سوى أربع وخمسون سفينة أتت عليها العواصف العاتية وجعلتها فى عداد التالفة.

ونتيجة لذلك انهارت آمال الكاثوليك الإنجليز فى مساعدة أسبانيا لهم التى آذنت شمسها بالمغيب، وخرجت بريطانيا ظافرة منتصرة ليس فقط فى النواحى الحربية والسياسية ولكن أيضا فى القضاء على العقبات التى كانت أمام تحويلها إلى البروتستنتية.


بحر الشمال
يورك
مارستن مور
١٦٤٤
ليدز
منشستر
لفربول
ورستر
١٦٥١
اكسفورد
لندن
دوفر
القنال الانجليزي
فرنسا
انجلترا أثناء الحرب الأهلية
تحت نفوذ البرلمان
تحت نفوذ الملك

الفصل السادس
إنجلترا فى عصر أسرة ستيوارت
[١٦٠٣ - ١٧١٤]

على الرغم من أن الملكة الياصبات استطاعت الحد من الصراع الدينى بين البروتستانت والكاثوليك، فان ذلك لم يستمر بعد وفاتها فى عام ١٦٠٣م حيث اصطلت إنجلترا مرة أخرى بلهيب هذا الصراع ومرارته هذا إلى جانب ما حدث من صراع مرير بين ملوك هذه الأسرة والبرلمان الذى كان يدافع عن حقوقه وامتيازاته وفيما يلى نعرض لذلك من خلال ملوك هذه الأسرة الذين تعاقبوا على العرش الانجليزى بعد الياصبات.

أولا: جيمس الأول: [١٦٠٣ – ١٦٢٥]

تولى عرش انجلترا بعد الياصابات بحكم الوراثة جيمس السادس ابن مارى ستيورات وأمير اسكتلنده وأطلق على نفسه لقب " جيمس الأول".

وقد استغل الملك الجديد ظروف حكمه لاسكتلنده قبل ذلك فقام بعمل وحدة بينها وبين إنجلترا، ولكن هذه الوحدة كانت هشة الأركان لأسباب عديدة نذكر منها:

١- عمق الخلافات بين الإنجليز والاسكتلنديين فى ذلك الوقت.

٢- شخصية الملك المتسلطة وغير المحبوبة من كلا الطرفين.

٣- مطالبة الملك لنفسه بالسلطان المطلق واعتبار نفسه فوق القوانين كلها وتمسكه بنظرية الحق الإلهى للملوك فى الحكم بصرامة وعنف.

٤- فرضه للضرائب دون الرجوع إلى البرلمان مما أثار النواب ضده، وأدى إلى بذر بذور الشقاق بينهما وتدبير مؤامرة لاغتياله داخل البرلمان.

ونتيجة لذلك لم يسترح الشعب الانجليزى والاسكتلندى لحكمه، ولما اعترض البرلمان على قراراته أمر بحله كما اتهم أعضاءه بالخيانة العظمى، وظل يحكم البلاد دون برلمان لمدة إحدى عشرة سنة.

ونتيجة لذلك اضطربت الأحوال، واضطر العديد من الإنجليز المخالفين للعقيدة الانجليكانية للرحيل إلى أمريكا فى عام ١٦٠٢ كرها منهم لحكم هذا الملك، ورغبة فى الخروج بالمبادئ الدستورية الجديدة إلى حيز التنفيذ، وتحقيق المثل العليا التى ينشدونها فى هذا الوطن الجديد.

هذا وقد ساعدت ظروف إنجلترا الخارجية الملك جيمس الأول على الاستمرار فى الحكم حيث تولى العرش فى ظروف ما بعد "الياصابات" والتى كانت فيها بلاده قد اختتمت حروبها مع أسبانيا بعد أن حققت أعظم انتصاراتها البحرية بتدمير الأسطول الأسبانى الارمادا.

ومع ذلك فقد أوقع "جيمس الأول" بلاده فى خلافات داخلية نتيجة لحله للبرلمان، وتمسكه بنظرية الحق الآلهى للملوك فى الحكم ونفور الناس منه، وقد توفى "جيمس الأول" فى عام ١٦٢٥ وخلفه فى الحكم ابنه "شارل الأول".

شارل الأول: [١٦٢٥- ١٦٤٩]

عجز "شارل الأول" عن اكتساب محبة الشعب مثل أبيه نظرا لافتقاره إلى صفات الحاكم السياسى ورفضه إجابة البرلمان إلى طلباته وتمسكه بنظرية الحق المطلق للملوك، وعاش فى خلاف دائم مع البرلمان، وبالرغم من أنه حاول أن يستميل الشعب الانجليزى ويكتسب محبته عن طريق إحرازه لانتصارات خارجية على أسبانيا وفرنسا فان حملاته باءت بالفشل، ونظرا للمشاكل التى طرأت على الخزينة الإنجليزية نتيجة لتكاليف هذه الحروب فإنه اضطر إلى جمع المال من الشعب دون الرجوع إلى النواب ففرض قروضا إجبارية على الصناع والتجار وغيرهم من أفراد الطبقة الوسطى، وهدد كل من يمتنع عن ذلك بالسجن، مما أثار الشعب الانجليزى، فهب مطالبا بضرورة تحديد نفوذ الملكية، بحيث لا يسجن أحد دون محاكمة عادلة ونتيجة لذلك أجتمع أعضاء البرلمان فى عام ١٦٢٨ ، وأعدوا وثيقة بمساعدة "أدوارد كوك" قاضى القضاة أطلقوا عليها " ملتمس الحقوق" أهم محتوياتها هو المطالبة بعدم

جواز قيام الملك بفرض ضرائب أو جباية قروض دون الرجوع إلى البرلمان، وإلا يأمر بسجن أحد خارج حدود القانون على أساس أن الملك لا يتمتع بالسلطة المطلقة فى حكمه.

ولما أعتبر الملك هذا الملتمس تقييدا لسلطاته رفضه فى بداية الأمر ثم قبله بعد تردد طويل وذلك ليس لاقتناعه به بل لشدة حاجته إلى موافقة البرلمان على صرف الأموال، ولم يلبث الملك أن نقض هذا الملتمس واعتبر نفسه الحاكم المطلق، وزاد من حدة نزاعه مع البرلمان زواجه بفرنسية ومساعدته للكاثوليك فى فرنسا ضد البروتستانت.

ولما ناشد البرلمان الملك بعزل " دوق بكنجهام" الذى كان موضع سخط الشعب، وسبب هزائم إنجلترا فى حروبها ضد أسبانيا تأزمت الحالة بينهما لدرجة أن قرر الملك أن يحكم بدون برلمان وخلال ذلك وضعت بذور الثورة العظمى التى أدت إلى الحرب الأهلية بين الملكية وأتباعها فنتيجة لاستياء الشعب الإنجليزى من مليكه خصوصًا بعد أن نما إلى علمه أنه يرغب فى العودة ببلاده إلى المذهب الكاثوليكى بايعاز من زوجته التى كانت تعتنق هذا المذهب شد الشعب أزر البرلمان ضد الملك. وعلى الرغم من أن القانون الانجليزى كان يحتم عدم عقد البرلمان إلا بدعوة من الملك، فقد اجتمع البرلمان ورفض الانفضاض بناء على طلب الملك وخلال اجتماعه أصدر قرارا ينص على " أن كل من يدخل فى الدين أفكارا كاثوليكية، وكل من يأمر بفرض الضرائب دون الرجوع إلى البرلمان، وكل من يشجع على تأدية هذه الضريبة يعتبر عدوا للأمة وللمصلحة العامة".

ونتيجة لذلك أمر الملك بحل البرلمان، وحكم بلاده حكما استبداديا قاسيا، كما أمر بفرض الضرائب والمكوس بكافة الوسائل، وإنشاء محاكم استثنائية لكل من يقاوم سياسته مما أدى إلى زيادة هجرة الإنجليز من بلادهم إلى سواحل أمريكا الشمالية. ومن أشهر الضرائب التى فرضها الملك شارل الأول ضريبة السفن Ship Money والتى كانت تجبى من قبل على الموانى أثناء الحرب وحاول عن طريقها جمع المال اللازم من الشعب الانجليزى لتقوية الأسطول، ولما أمتنع عن دفع هذه الضريبة أحد أعيان الطبقة الوسطى فى الريف وأسمه "جون هميدن" مفضلا السجن والمحاكمة عن الرضوخ لأوامر الملك الاستبدادية قدم للمحاكمة مما أثار أغلبية الشعب وأدى إلى اعتباره بطلا قوميا وكان من نتائج ذلك التهيئة للقيام بثورة، وزعزعة الثقة بين الملك و الأمة، وزاد الطين بلة أن اختار الملك كبير مستشاريه فى الشئون الدينية "وليم لود Laud" أحد أنصار كنيسة روما، وقد حاول "لود" فرض كتاب الصلاة

الانجيلكانى على أهل البلاد وإجبار رجال الدين على قبول طقوس دينية جديدة وهدد كل من يمتنع عن تنفيذ ذلك بأقصى العقوبات التى وصلت إلى حد المحاكمة والجلد والتشويه.

ونتيجة لذلك قامت ثورة الاسكتلنديين وهم غلاة البروتستانتية ضد الملك ومستشاره الدينى حيث رفضوا قبول هذا التغيير ووضعوا ميثاقا أسموه بالتحالف القومى The National Covenant تعهد الموقعون عليه بالوقوف ضد أى محاولة لفرض أى مذهب دينى يخالف عقيدتهم بكل ما يملكون من نفوس وأموال، ولما فشلت كل السبل لإقناعهم بالعدول عن موقفهم أرسل الملك قواته لمحاربتهم إلا أن هذه القوات فشلت فى تحقيق أى انتصارات عليهم مما أضطر الملك إلى عقد صلح مؤقت معهم فى عام ١٦٣٩ حتى يستعد لمواجهتهم من جديد، ولما لم يستطع الملك تجهيز القوة الكافية لردهم حاول استرضاء الشعب الإنجليزى كما حاول حثه على الاشتراك فى تدبير الأموال اللازمة للحرب وهنا اضطر إلى دعوة البرلمان إلى الانعقاد واجتمع البرلمان فى أبريل ١٦٤٠ (يعرف بالبرلمان القصير)، وقد وجد أعضاء البرلمان فى ذلك فرصة لمطالبة الملك برفع المظالم التى يشكو منها الشعب واحترام ما جاء فى ملتمس الحقوق مما اغضب الملك وجعله يأمر بحل البرلمان مرة أخرى بعد مدة قصيرة من دعوته له لم تزد عن ثلاثة أسابيع.

ولما حاول الملك شارل مواجهة الاسكتلنديين الذين ازدادت حركتهم أرسل إليهم حملته الثانية التى لم تكن بأحسن حالا من الحملة الأولى، فقد لاقت الهزائم حتى وصل الأمر بالاسكتلنديين إلى غزو إنجلترا نفسها، مما جعل الملك يعترف بهزيمته، ويسرع باستدعاء البرلمان للانعقاد للنظر فى شكاوى الشعب، وقد قدر لهذا البرلمان أن يعيش مدة طويلة بلغت قرابة الواحد والعشرين عاما حتى عرف فى التاريخ باسم البرلمان الطويل The long Parliament، وقد نجح هذا البرلمان فى أن يثبت قدرته على استقلال إرادته علىّ الملك، فكانت قراراته أمثلة حية للتحرر واحترام الحقوق السياسية والمدنية للأفراد مما كان له أكبر الأثر فيما طرأ على إنجلترا من تحول سياسى، وكان من أهم أعمال هذا البرلمان التصويت على توجيه تهمة الخيانة إلى رئيس الوزراء وإجبار الملك على التوقيع على إعدامه، والتصويت أيضا على محاكمة المستشار الدينى للملك، كما أصدر هذا المجلس العديد من القرارات فى صالحه فأضطر الملك على توقيع مرسوم بتحريم حل البرلمان دون موافقة أعضائه وبحق النواب فى الاجتماع كل ثلاثة أعوام على الأقل حتى وان لم يتم ذلك بناء على

طلب من الملك، كما ألغى المجلس المحاكم الخاصة مثل المجلس الذى عرف بقاعة النجم Star Chamber زمن التيودوريين والتى كانت تساعد الملوك على إخضاع الأشراف لهم، والمحكمة العليا التى كانت تحاكم المعارضين للملك، كما أصدر قرارا بإلغاء ضريبة السفن، ولشدة العاصفة اضطر الملك للرضوخ حتى تحين له الفرصة المناسبة للتخلص من البرلمان، وقد وجد بصيصا من النور حينما اشتد الخلاف بين أعضاء البرلمان حول الوسائل الدينية فحاول أن يستعيد سلطاته بتدبير المؤامرات ضد معارضيه فى البرلمان وعندما شعر المعارضون للملك بما يدبر ضدهم، قدموا احتجاجا سموه الاحتجاج الأعظم أوضحوا فيه كل مساوئ الملك، وطالبوا فيه بمسئولية الوزراء أمام البرلمان، وقد طبع هذا الاحتجاج ووزع على أفراد الشعب مما أثار حنق الملك فأمر باستعمال القوة ضد أعضاء المجلس المعارضين له فذهب على رأس قوة إلى المجلس للقبض على الزعماء المعارضين لسلطته وتقديمهم المحاكمة بتهمة الخيانة، ولكن لحسن حظ البرلمان أن أمر هذه المحاولة قد اكتشف فى الوقت المناسب، وقد أثار ذلك جماهير العاصمة الإنجليزية ضد الملك وأحدث ضجة كبيرة بينهم وتخرج الموقف، مما أضطر الملك للفرار إلى الريف ليبتعد عن الشعب الغاضب، مما أدى إلى اشتعال نار الحرب الأهلية فى إنجلترا وبخاصة فى عام ١٦٤٢ حيث أصبح لامفر من معركة دموية بين الملك من ناحية والبرلمان وأنصاره من ناحية أخرى ونتيجة لذلك انقسمت البلاد إلى قسمين قسم يمثل أعوان الملك من النبلاء ورجال الجيش، والمشايعين للكنيسة الكاثوليكية والانجليكانية ومعظم الذين ينتمون إلى البيوت الاقطاعية الكبرى، وقد أطلق على هؤلاء أسم الفرسان، أما القسم الآخر فكان يمثل أنصار البرلمان وأطلق عليهم أصحاب الرؤوس المستديرة Round Heads وكان يساندهم تجار لندن بثرواتهم الضخمة، ثم انضم إليهم الاسكتلنديون بعد ذلك، وقد نجح هؤلاء فى تكوين جيش جديد تحت رئاسة القائد العسكرى "أليفر كرومول" الذى أمتاز بالقدرة على أعدّاد القوات وتنظيمها.

وقد استمرت الحرب بين الطرفين عدة سنين ثم انتهت لصالح أنصار البرلمان، وهزيمة الملكيين ووقوع الملك فى الأسر، ومحاكمته بتهمة الخيانة وإعدامه بمدينة لندن فى التاسع من فبراير ١٦٤٩.

وبعد مواجهات دموية فى أماكن متعددة تم إلغاء الملكية فى بريطانيا وأعلان النظام الجمهورى الذى أطلق عليه فى تلك الفترة اسم رابطة الشعوب البريطانية Commonwealth

وقد حاول كروموبل – الذى برهن على أنه كان يمتلك بجانب قدراتــه العــسكرية، صــفات الزعامة السياسية – أن يشيد نظاما جديدا يكون أساسا لحكم عادل فوضع دستورا أطلق عليــه أداة الحكم، وبموجبه تحولت إنجلترا من ملكية إلى جمهورية، وأن ظل كروميل يتمتع بالعديد من السلطات التى كانت تفوق ما تمتع به الملك شارل الأول، وفى ظل هذا الحكــم تــم حــل البرلمان أكثر من مرة، وظل كروموبل يحكم بلاده حكما دكتاتوريا حــوالى خمــس ســنوات عانت بريطانيا خلالها الكثير من المصاعب والمتاعب.

وبعد وفاة كروموبل فى عام ١٦٥٨ لم يستطع ابنه "ريتشارد" التحكم فى زمام الامور خاصة وأنه لم يكن يتمتع بخبرة عسكرية أو سياسية فعجز عن ملأ الفراغ وأخذت الفوضــى فى الازدياد، ونتيجة لذلك تكون حلف من الملكيين والبرلمانيين ورجال الأعمال بهدف إعــادة الملكية مما دفع "ريتشارد" إلى التنازل عن الحكم وأدى إلى سقوط الجمهورية وعــودة اســرة سيتورات إلى الحكم فتولى "شارل الثانى" زمام الأمور، ولكنه كان ضعيف الإرادة مثل أبيــه، ويميل إلى الحكم الاتوقراطى ولا يهمه من السلطة سوى اللهو والمرح والتمتع بالملذات ومــع كل ذلك فإنه لم ينس تجربة أبيه خلال أزمته مع البرلمان، ومن هنا حرص على الوفاق معه.

ولما كان أعضاء البرلمان يرتابون فى نوايا هذا الملك تجاه مساندة الكاثوليــك، فقــد أصدروا قانون الاختيار Test Act الذى ينص على ضرورة التقيد بطقوس الكنيسة الإنجليزية وعلى أن يفصل من وظيفته الحكومية كل من يخرج عن هذه الطقوس.

وتحسبا للموقف ومواجهته فى الوقت اللازم عقد "شارل الثانى" معاهــدة مــع الملــك الفرنسى "لويس الرابع عشر" تنص على مساندته فى حالة قيام الشعب الانجليزى ضده عنــد محاولاته إعادة الكاثوليكية إلى بريطانيا، مما أساء إلى سمعته أمام شعبه.

جيمس الثانى [١٦٨٥-١٦٨٨]:

خلف "شارل الثانى" فى حكم بريطانيا، وكان من أشد أنصار الكاثوليكية ومــن أكبــر الراغبين فى إخضاع نفوذ إنجلترا الدينى لباباوية روما، ومن هنا ورط نفسه فى خلافاته مــع البرلمان بعد أن أصدر " لائحة التسامح الدينى" والتى بمقتضاها تم إلغاء القــوانين المناهــضة للكاثوليك، ومن أهمها حقهم فى تولى المناصب القيادية فى الجيش والحكومة، يضاف إلى ذلك

إنه سلك سياسة عدائية ضد رجال الكنيسة الانجليكانية عندما حول إحدى كليات اكسفورد الى كلية للعقيدة الكاثوليكية مما أثار الرأى العام ضده.

ومن هنا لم يكن هناك مفر سوى أن يعلن البرلمان خلعه، ودعوة ابنته "ماري" البروتستنتية لتولى العرش. ولما كانت مارى متزوجة من وليم اورانج[١]حاكم هولنده، وأحد أفراد الأسرة الملكية الإنجليزية فقد قام وفد من البروتستنت بدعوة "أورانج" لتولى حكم إنجلترا هو وزوجته . وقد لبى الزوجان الدعوة ونزلا إلى إنجلترا مؤيدين بالبروتستنت، وخلال ذلك تم القضاء على المقاومة الكاثوليكية،ونجحا فى الوصول الى الحكم فى عام ١٦٨٨،وقد سمى الشعب الإنجليزى ما حدث "بالثورة المجيدة"، و " الثورة العظمى على أساس أنها كانت إرادة شعبية مهدت لانتصار إرادة الشعب وانتقلت من خلالها السلطة الى يد الشعب المتمثل فى مجلس العموم بطريقة عظيمة وقعت دون إراقة دماء وتمخضت عن إصدار قانون الحقوق.

إعلان الحقوق ١٦٨٩:

ولاستمرار اعتلاء كلمة الشعب أصدر البرلمان قانونا أسماه إعلان الحقوق Declaration of Rights قيد فيه سلطات الملك، وقوى من سلطة البرلمان فاشترط على الملك الجديد وأسرته مراعاة الآتى:-

١- لايجوز للملك سن أى قانون إلا بموافقة البرلمان كما لايجوز له إلغاء أى قانون أو إيقافه أو تعديله أو فرض ضرائب أو تشكيل جيش دون أخذ موافقة البرلمان.

٢- التأكيد على حرية إبداء الرأى والمناقشة فى البرلمان.

٣- لايجوز للملك سجن معارضيه دون محاكمة، والإكثار من دعوة البرلمان لمعالجة أى مشاكل وللمحافظة على القوانين وتنفيذها.

وقد وافق وليم وزوجته مارى على هذه الشروط وتولى العرش تحت أسم "وليم الثالث" وبعد ذلك أصدر البرلمان عدة قوانين منها قانون:

---

[١] يعرف فى التاريخ باسم الصامت The Silent وكان لوثريا ثم تحول الى الكلفنية وقد أتسم بالشجاعة والنبل

التسامح الدينى:

الذى منح البروتستانت الخارجين على نظام الكنيسة الانجليكانية حق تأدية طقوسهم الدينية وأن كان لم يسمح لهم بمزاولة النشاط السياسى، وإعطاء الكاثوليك قسطا أكبر من الحماية فى ممارسة عقيدتهم الدينية.

وقانون التسوية:

الذى أشترط إلا يتولى عرش إنجلترا من يعتنق الكاثوليكية، وقانون الوحدة Act of Union وبمقتضاه أصبحت اسكتلندا وإنجلترا مملكة متحدة، وبذلك تكونت فى عام ١٧٠٧ المملكة المتحدة البريطانية العظمى وأصبح يطلق على الانجليزى والاسكتلندى لقب بريطانى ونتيجة لتلك القوانين والإصلاحات الإنجليزية أصبح ألإنجليز فى نظر الأمم الأخرى أعرق الشعوب فى ممارسة الحكم الدستورى، وصارت الملكية فى بريطانيا منذ ذلك الوقت لا تجرؤ على مجابهة البرلمان.

ومما سبق يتضح أن ثورات الإنجليز على الحكم الاوتقراطى ومعارضتهم لسياسة الملوك عندما كانت تتعارض مع مصالح الشعب قد أسفرت عما يأتى:

١- حق المجالس النيابية فى إصدار القوانين وفرض الضرائب ومناقشة سياسة الدولة بعد أن كان ذلك من حق الملك ووزرائه.

٢- أصبح يمثل الحياة النيابية فى بريطانيا مجلسين هما مجلس اللوردات ومجلس العموم.

٣- تلاشت فكرة التمثيل الطبقى فى الدوائر الانتخابية فأصبح عضو البرلمان يمثل جميع سكان دائرته ولايمثل طبقة اجتماعية أو اقتصادية معينة.

٤- إدراك حقوق الفرد السياسية ومعارضة الامتيازات الطبقية وانتشار حرية الرأى وفكرة المساواة بين الطبقات.

٥- اتباع نظام الحزبين، وقد برزت هذه الفكرة عندما انقسم أعضاء البرلمان بين معارضين للملك ومؤيدين له، ثم تطورت هذه الفكرة حتى تكون حزبا الأحرار والمحافظين.

٦- اختيار الملوك للوزراء من زعماء الحزب الذى يحصل على الأغلبية فى مجلس العموم بعد أن كان الملك يختارهم من المقربين إليه من ذوى النفوذ.

٧- تطور النظريات السياسية ونظريات الحقوق الطبيعية خصوصا بعد أن قام كبار الأدباء ومن أشهرهم "جون لوك" بتأليف كتب حول أصول الحكم، ومعارضتهم للحكم الاوتوقراطى وتشجيعهم للحكم الديمقراطى وللحقوق الطبيعية للأفراد فى الحرية والتملك ونشرهم لفكرة أن الشعب صاحب الأمر والنهى فى تقرير أموره، وقد انتشرت هذه المذاهب خارج إنجلترا خصوصا فى فرنسا وأمريكا.

وهكذا كان للصراع الدستورى الطويل الذى نشأ بين الملكية الإنجليزية البرلمان سواء فى عصر أسرة تيودور أو فى عصر أسرة ستيوارت أكبر الأثر فى تقليص نفوذ الحكم الأوتقراطى، وبناء مجموعة من الدساتير كان لها الأثر الهام فى قيام الحياة الديمقراطية فيما بعد، وقد أعقب ذلك ظهور إنجلترا كأعظم دول العالم فى ميدان التجارة والصناعة على السواء.

وبالرغم مما يكنه الانجليز لدستورهم من الاحترام الكبير، فانهم لايعتبرونه كتابا مقدسا، ولايرون بأسا من تعديله بالتفسير والقرارات الجديدة. وقد صيغت القوانيين الدستورية البريطانية فى صيغ مرنه، يمكن أن تفسر وفقا لمختلف الظروف والأحوال، وأن تتمشى دائما مع روح العصر. ولهذا استطاعت انجلترا دائما أن تسير فى ظل قوانينها الدستورية إلى الأمام، وأن تتقبل جميع الانقلابات والتطورات الاقتصادية والاجتماعية، وأن تحقق مطالب الحياة المتغيرة دون مشقة.

والواقع أن الحكم النيابى فى انجلترا نظرا لمرونته وعدم تقيده بدستور مكتوب قد استطاع أن ينجو من العيوب الأساسية التى وجهت إلى الحكومات الملكية فى البلاد الأخرى، وأن يساير كل الأوقات والظروف، وأن يحل المشاكل التى تعرض له بسرعة واضحة.



الولايات المتحدة أثناء حرب الاستقلال



جورج وشنطن



الفصل السابع

حرب الاستقلال الأمريكية

فى اواخر القرن الخامس عشر وفى عهد الملك هنرى السابع بدأ الانجليز يشاركون فى حركة الكشوف الجغرافية بارسال حملة بحرية على رأسها مغامر ايطالى يدعى "جون كابوت Cabot" وترتب على ذلك الوصول إلى "نيوفوند لاند"، ومن هنا تملكت انجلترا ما عرف بعد ذلك باسم الولايات المتحدة الأمريكية حيث أسس الانجليز أولى مستعمراتهم هناك فى عام ١٦٠٧م والتى عرفت باسم "جيمستون" وأوجدوا حكومة لهم هناك تحت التاج البريطانى ثم توطد استعمارهم هناك نتيجة للهجرات الانجليزية المتتالية خصوصا من البيورتان Puritains (المطهرون) إلى هذه المناطق بسبب اضطراب الأحوال السياسية وحركة الاصلاح الدينى فى بريطانيا حتى وصلت المستعمرات الانجليزية إلى ١٣ ولاية كان أكثرها قدما مستعمرات الشمال وهى "ماشوسيوتس" و"بنسلفانيا" وانجلترا الجديدة وكانت هذه المستعمرات تابعة لملك انجلترا فى ظل حكم ذاتى تتمتع به.

وقد رأت الحكومة البريطانية أن تربط تجارة مستعمراتها فى أمريكا معها فقط، ولكى تصبح هذه المستعمرات سوقا رائجة للمصنوعات الانجليزية تحصل منها على أكبر ربح تجارى فرض عليها عدم انشاء صناعة للحديد.

وكان الحكم الانجليزى فى هذه المناطق يعتمد على ثلاثة مراكز رئيسية وهى الحاكم والمجلس النيابى والمجلس الاستشارى، وكان الحاكم هو المسئول الأول عن رعاية شئون ولايته، والمحافظة على الأمن فيها، وكان يتم تعيينه بقرار من ملك بريطانيا.

وكان المجلس النيابى يُنتخب من قبل أهل الولاية ولفترة تنحصر بين عام وعامين، وتنحصر مسئوليته فى سن الضرائب والاشراف على الموظفين وتقدير رواتبهم أما المجلس الاستشارى فكان بمثابة سلطة استشارية فى الولاية لها الحق فى الاعتراض على قرارات الحاكم والمجلس النيابى.

قد استطاع المجلس النيابى أن يلعب دوره من أجل أضفاء مظاهر الحكم الذاتى لسكان امريكا فى ظل التاج البريطانى، وازداد الشعور بالانتماء القومى لدى سكان هذه المستعمرات،

وإزداد الاحساس بأنهم لايقلون كفاءة فى ادارة شئونهم عن الحكام الانجليز، ولكن نظرا لرفض ملوك انجلترا أعطاءهم هذا الحق واصرارهم على التطبيق الصارم للقوانين التى تصدرها بريطانيا فقد تريث سكان هذه المستعمرات بعض الوقت، وعندما أصرت انجلترا على فرض الضرائب على سكان هذه البلاد دون الرجوع إلى المجلس النيابى اعترض المستوطنون على القيود والضرائب المفروضة عليهم وطالبوا بضرورة الرجوع إلى مجالسهم التشريعية، غير ان الحكومة البريطانية لم تلق لهم بالا، خاصة وأنها كانت فى حاجة إلى فرض الضرائب لمجابهة نفقات الدفاع والانفاق على الجنود الانجليز فى أمريكا، ولما فرضت الحكومة البريطانية "ضريبة التمغة" Stamp Act فى عام ١٧٦٥ والتى تحتم وضع طوابع ذات فئات معينة تتراوح بين ستة بنسات وستة جنيهات على العقود والأوراق القانونية والرخص والأوراق الخاصة بالمعاملات التجارية وغيرها وأن تجمع هذه المبالغ لصالح الحكومة رفضها الأمريكيون وتمسكوا بضرورة أخذ رأيهم فى فرض الضرائب، ومن أجل ذلك عقدوا مؤتمرا فى نيوريوك فى عام ١٧٦٥ اشتركت فيه تسع ولايات أمريكية، وكان أهم قراراته مطالبة الحكومة البريطانية بالغاء هذه الضريبة وفى اثناء ذلك قام الأهالى بمقاطعة البضائع الانجليزية وتحطيم وحرق صناديق الطوابع، ولتهدئة الموقف اضطر الانجليز إلى الموافقة على إلغاء هذه الضريبة ولكنهم تمسكوا بحق البرلمان الانجليزى فرض أية ضرائب أخرى على المستعمرات فى كل الأحوال مهما كانت، مما جعل الخلاف محتدما وخاصة بعد أن فرضت الحكومة الانجليزية عدة ضرائب على الزيت والنبيذ والزجاج والورق واستيراد الشاى، مما زاد من احتجاج الأمريكيين، وبدأ احتكاكهم بالانجليز يتزايد فعارضوا هذه الضرائب وبدأوا يتهربون منها فاستعاضوا عن استيراد الشاى بشراء المهرب منه عن طريق الهولنديين، ولكن الانجليز حاولوا اجبارهم على شراء الشاى من شركة الهند الشرقية التى كان أثرياء بريطانيا من المساهمين فيها ولما حاول الانجليز نقل كميات كبيرة من الشاى من لندن إلى بوسطن، وبعض الموانى الأمريكية الأخرى لاجبار الأهالى على شرائه ألقى سكان بوسطن فى ديسمبر ١٧٧٣ بحمولات ثلاث سفن انجليزية محملة بالشاى فى البحر حيث تنكروا فى زى الهنود الحمر، وصعدوا إلى مراكب التفريغ وقذفوا بالشحنة إلى البحر أمام جمهرة من الأهالى المشجعين لهم وتعرف هذه الحادثة فى التاريخ الأمريكى بحادثة "حفل الشاى" ونتيجة لذلك ثارت ثائرة الانجليز لتلك الاهانة وقادوا حملة لحمل البرلمان على اتخاذ

اجراءات حاسمة انتهت باغلاق ميناء بوسطن فى وجه التجارة، وانزال العقاب بسكانه مما أدى إلى تفجر الموقف وتأسيس اللجان المناهضة للانجليز واندلاع الشرارة التى اشعلت نار الحرب بين السكان وبريطانيا وبخاصة بعد أن انضمت العديد من الولايات الأمريكية إلى سكان بوسطن فى موقفهم المعادى للانجليز، وأعلنت أن الاعتداء على أية ولاية أمريكية يعتبر اعتداء على جميع الولايات فتم عقد مؤتمر فى "فيلا دلفيا" فى عام ١٧٧٤ حضره "جورج واشنجطن"، ومن خلاله تأسس الكونجرس الأمريكى الأول من مندوبى الولايات، وكانت من أهم قراراته، تحذير الحكومة الانجليزية من أن تصرفاتها تجاه المستعمرات الأمريكية سيؤدى إلى الأضرار بمصالحها والاحتجاج على الاجراءات التعسفية التى تتخذها الحكومة الانجليزية ضد سكان بوسطن ومع ذلك لم تأبه الحكومة البريطانية بهذا التحذير، بل استمرت فى ارسال قواتها إلى "بوسطن" فى محاولة لتأديب أهلها الذين قاموا بالقاء الشاى المحمول على سفن انجليزية فى البحر، مما دفع سكان الولايات الأمريكية إلى الاستعداد للحرب حتى يتم استقلالهم عن انجلترا، فعقدوا اجتماعا آخر فى "فلادلفيا" عام ١٧٧٥ اتفقوا فيه على تأليف جيش أمريكى موحد، لكل الولايات كما ناشدوا الملك " جورج الثالث" بالكف عن الاجراءات التعسفية لحكومته حتى يظلون رعايا مخلصون له، ولكنه أصر على تشبثه بحقوقه المطلقة على المستعمرات الأمريكية، كما أصر على ضرب الحركات الثورية بها، ونتيجة لذلك قبلت الولايات الأمريكية التحدى وأعلنت أنها فى حالة حرب مع انجلترا وعين الكونجرس "جورج واشنطن" فى ١٥ يونية ١٧٧٥، قائدا عاما لقوات المستعمرات الثلاث عشرة ليس لكونه مجرد رجل حرب يجيد فن التكتيك والاستراتيجية العسكرية، أو لأنه كان أفصح المتكلمين فى المؤتمر بل لما توسموه فيه من الحكمة والكفاية والاستعداد للبذل والتضحية، والقدرة على ادارة دفه هذه الحرب.

والجدير بالذكر أنه لما قامت الحرب الفعلية بين انجلترا "ومستعمراتها الأمريكية فى عام ١٧٧٥ أى بعد حادث بوسطن بعام ونصف لم يكن سكان المستعمرات يهدفون من حربهم إلى الانفصال عن انجلترا، بل ظلوا يخاطبون ملك بريطانيا بالملك الصالح، ولم يكن هدفهم سوى الحصول على استقلال داخلى ضمن السيادة البريطانية، وقد أكد ذلك "جورج واشنجطن" فى عام ١٧٧٤ بقوله " أنه لايوجد فى أمريكا الشمالية رجل عاقل واحد يرغب فى الاستقلال".

وفيما يلى نعرض لشخصية واشنجطن التى ارتبط بها تاريخ استقلال الولايات المتحدة الأمريكية.

ولد جورج واشنجطن فى احدى قرى أمريكا الشمالية بولاية "فرجينيا" فى الثانى والعشرين من فبراير ١٧٣٢ من أسرة كان جل اهتمامها بالزراعة.

وقد شارك جورج والده فى الأعمال الزراعية ورعى البقر فى المرحلة الأولى من حياته، وكان محبا لركوب الخيل، كما تلقى تعليما متوسطا فى مسقط رأسه، فبرز نبوغه الطبيعى، وتفوق على أقرانه، وكان قد تعلم الانجليزية ثم عكف على دراسة الفرنسية، ولكنه لم يوفق فى الالمام بها كما يجب.

وقد انتخب "جورج واشنطن" نائبا لولاية فرجينيا واستمر فى هذا المنصب خمس عشرة عاما ظهرت فيها صفاته واخلاقه واضحة مما اكسبه محبة مواطنيه واحترامهم، وكان كل يوم يزداد اعتبارا ووقارا فى قلوبهم خاصة وأنه كان يكره التملق والرياء كما كان صريحا ينفر من الكذب وطرق المخاتلة والخداع، وفوق ذلك كان متدينا يهوى القراءة فى الأناجيل.

وفى عام ١٧٥٠ عين واشنجطن قائدا لاحدى المناطق العسكرية فى ولاية "فرجينيا" ثم تدرج فى المناصب العسكرية حتى وصل إلى منصب قائد للفرق العسكرية الوطنية عام ١٧٥٥ ثم اعتزل الخدمة العسكرية عام ١٧٥٨ وانتخب عضوا فى ولايته.

وعندما حدثت المناوشات والاشتباكات بين الانجليز والأمريكيين بالقرب من بوسطن بسبب اغراق السفن الانجليزية المحملة بالشاى عقد مؤتمر فى "فيلا دلفيا" عام ١٧٧٦ لمناقشة هذا الموقف وانتخب فيه جورج واشنجطن قائدا لقوات الحرس الوطنى، وهو فى الثالثة والأربعين من عمره، وكان ذلك بداية الصعود إلى القمة وقد سار واشنجطن بجنده إلى "نيويورك"، "فكمبردج" وغيرها وكان حيثما حل يجد الأمريكان قائمين على قدم وساق من أجل الاستقلال.

وقد نجح واشنجطون فى اعداد جيش قوى متماسك وقادر على الصمود فى وجه القوات الغازية ومع أن الانجليز فرضوا حصارا بحريا على المستعمرات الأمريكية لتثبيط همم السكان وأضعاف روحهم المعنوية فان ذلك لم يثن من عزيمة واشنجطن بل زاد من مثابرته واستعداده ضد الانجليز.

وعندما بدأت الحرب بين الطرفين برزت خلالها مقدرة واشنجطون القيادية وكفايتـــه وأقدامه الحذر وعدم اعترافه باليأس بل أنه كان يتعلم من الهزيمة ويعيد ترتيباتـــه وحـــساباته فعندما سارت الحملة الأولى لضرب "بوسطن" وكان الأمريكيون فى قلة من المؤن والـــذخائر والرجال ولم يكن لديهم جيش كبير منظم ظهرت براعة واشنجطون وحكمته، فـــصبر صـــبر الرجال حتى اعتاد تنظيم جيشه واستعد لملاقاه عدوه، وفـــي مـــارس ١٧٧٦ هـــاجم حـــصن بوستون وهدده باطلاق النار إذا لم يسلم، كما أوعز بأنه يملك من القوات والعتاد ما لا طاقـــة لأعدائه به مما أدى إلى تسليم الحصن وانسحاب الانجليز منه فـــي مـــارس ١٧٧٦ ودخـــول واشنجطون مدينة "بوسطن" ظافرا مع ما كان فيه من صعوبة المركز، وقلة الجنـــد بالنـــسبة للانجليز.

وسار واشنجطونْ بعد ذلك إلى فيلا دلفيا واجتمع مجلس الأمة، وتفاوضوا فى طريْقـــة يتوسلون بها إلى اصلاح ذات البين بينهم وبـــين انجلتـــرا رعايـــة لـــسلطانها، وكـــان رأى واشنجطون فى ذلك " أننا لا نستطيع القيام بمطالب انجلترا، وليس لنا أمل بعقد الصلح معهـــا فأما أن نجمع كلمتنا وندافع عن وطننا إلى آخر نسمة من حياتنا وأما أن نضع أعناقنـــا تحـــت أقدام الانجليز، ونقول على الحرية وأهلها السلام"، فوافقه المجلس على رأيه وأخذ العدة مـــن أجل الدفاع.

ولما قدم الانجليز بأسطولهم لضرب مدينة نيويورك تقدم واشنجطون بما لديـــه مـــن جنود لمواجهتهم، وصمدت نيويورك أمام الانجليز، وفى أثناء ذلـــك أجتمـــع مجلـــس الأمـــة الأمريكى، وأعلن استقلال الولايات المتحدة فى ٤ يوليو ١٧٧٦ وانفـــصالها عـــن بريطانيـــا، فاحتج الانجليز على ذلك واعتبروه عصيانا وأرسلت بريطانيا حملاتها التأديبية إلى أمريكـــا، فصمد ثوارها فى معظم الميادين حوالى ست سنوات وساعدهم على ذلك اتحـــادهم وطبيعـــة بلادهم الواسعة وتكتيكهم العسكرى الفذ، حيث قسموا قواتهم إلى عدة جيوش للاحاطة بالانجليز من كل جانب فإذا أنزل الانجليز هزيمة بأحد جيوشهم ظهر لهم جيش أمريكى آخر على بعـــد أميال قليلة، يضاف إلى ذلك ما قدمته فرنسا بوجه خاص وأسبانيا وهولنده بوجـــه عـــام مـــن مساعدات للثوار فقد كانت فرنسا سباقه إلى مد يد العون للأمريكيين وكان الضابط الفرنـــسى "لافييت" من أوائل المتطوعين لمساندة أمريكا فى حربها يضاف إلى ذلك تزايد عطف الـــرأى

العام الأوربى على مبادئ الثورة الأمريكية مما جعل الانجليز عاجزين عن اخضاع الثورة المتسعة الأرجاء خاصة وأن نقل قواتهم عبر المحيط كان يكلفهم الكثير من النفقات.

ونتيجة لتوالى انتصارات الثوار ارتد القائد الانجليزى "كورنواليس" إلى "يوركتون" Yorktwn وهناك هاجمة واشنطن بمساعدة بعض الفرنسيين حتى تمت هزيمته فى أكتوبر عام ١٧٨١، ولم يبق أمام الأمريكيين سوى تحرير نيويورك.

ونظرا لما لاقته بريطانيا من هزائم اضطرت إلى توقيع الصلح فعقدت معاهدة فى عام ١٧٨٣ اعترفت بها بريطانيا باستقلال الولايات المتحدة على أساس اعتبار نهر المسيبسى هو حدها الغربى، كما وافقت على حق الأمريكيين فى الصيد تجاه الساحل الكندى.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت المستعمرات الأمريكية الثلاثة عشرة مستقلة واتخذت لنفسها اسم الولايات المتحدة وعين جورج واشنجطون أول رئيس للولايات المتحدة ونهض ببلاده بطريقة اكسبته محبة الأمريكيين واحترامهم، كما أنه كان أكثر ميولا إلى المبادئ والتقاليد المحافظة. وخلال ذلك بدأت مرحلة البناء الداخلى فى ظل الاستقلال، وقد استهلها الامريكيون بوضع دستور جديد يضمن لهم الحرية والديمقراطية كما أرادوها .

وقد أعقب ذلك تحسن العلاقة بين أمريكا وبريطانيا وعلى الرغم من أن واشنجطون قد اتخذ موقف الحياد فى علاقته مع كل من بريطانيا وفرنسا أثناء الحرب بينهما، فان هذا الحياد كان مشوبا بالود نحو بريطانيا خصوصا وأن مصالح أمريكا التجارية حتمت الاتجاه أكثر نحو بريطانيا، ونظرا لاستيلاء فرنسا فى عهد بونابرت على مستعمرة "لويزيانا" التى كانت الولايات المتحدة تتطلع إلى ضمها إليها ساءت العلاقات بين الدولتين حتى حصلت الولايات المتحدة عن طريق الشراء على هذه المستعمرة فكسبت فرنسا علاقات طيبة مع الولايات المتحدة.

وفى حين كانت الولايات المتحدة تحقق لنفسها وحدة أراضيها واستقلالها كانت أوربا خاصة انجلترا وفرنسا فى حروب ضارية لم تنته الا بسقوط نابليون وأمبراطوريته.

الفصل الثامن

الثورة الصناعية وآثارها على المجتمع الأوربى

الصناعة قديمة قدم الحضارة، ولكن التغير الصناعى الذى طرأ على أوربا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر شكل ثورة حقيقية لم تغير الزراعة والنقل والمواصلات والانتاج الصناعى تغييرا أساسيا فحسب بل غيرت كذلك فى أخلاق النـــاس وفـــى وســـائل معيـــشتهم وعاداتهم، وفى السياسة والدين والفلسفة والفنون، وفى اجتذاب أهل الريف إلى المـــدن التـــى تعددت فيها الأعمال وتكاثرت.

وخلال ذلك برزت أهمية الفحم كوقود للصناعة، وفى استعماله لتنقيـــة خـــام الحديـــد ليصبح أقوى وأطوع مما يسر اختراع آلات الثورة الصناعية وتطور الآلات والمعدات التـــى ضاعفت مجهود الانسان وحلت محله.

وبعد عام ١٧٣٣ الذى ابتكر فيه العالم الانجليزى "جون كاى John Kay" المكـــوك الطائر"، البداية الحقيقية للثورة الصناعية فى انجلترا فعن طريق هذا المكوك بدأ ميكنة النسيج وزاد انتاج المنسوجات، ثم توالت الاختراعات ففى عام ١٧٧٦ دارت آلة "جيمس وات Watt" البخارية واستخدمت قوة البخار فى ادارة الالات،كما اخترع المهندس الألمانى "ديزل Diesel" آلة تدار بزيت البترول عرفت باسمه.

وبتطور الآلة وتطور القوى المحركة لها وتحسين طرق التعدين زاد الانتاج من حيث الحجم والسرعة، وارتبط ذلك كله بتحسن وسائل النقل والاتصال خاصة وأن البـــضائع التـــى انتجتها المصانع كانت تحتاج لنقلها إلى الأسواق ونتيجة لذلك ازداد نفـــوذ الرأســـمالية وازداد عدد أفراد الطبقتين المتوسطة والعمالية ازديادا ملحوظا.

وقد امتازت الصناعات بأنها أصبحت تقوم على أسس علمية، مما جعل لهـــا أهميـــة كبيرة فى تاريخ المجتمع الأوربى.

والجدير بالذكر أن الثورة الصناعية ظهرت فى أول امرها فى انجلترا ثم انتقلت بعد ذلك إلى فرنسا والمانيا وباقى دول العالم وتتلخص أسباب اسبقية انجلترا فى الصناعة عن غيرها من دول أوربا إلى مايلى:-

١- توفر رؤوس الأموال فيها بسبب ممارستها للتجارة الخارجية منذ القرن السادس عشر، وكان انشاء بنك انجلترا فى عام ١٦٩٤ عاملا أساسيا فى تنظيم الأعمال الاقتصادية.

٢- كثرة الأسواق التىتتعامل معها انجلترا، خاصة وأنها كانت تمتلك امبراطورية واسعة غنية لاتغرب عنها الشمس مما أدى إلى توفر المواد الخام اللازمة للصناعة الانجليزية، وأدى هذا إلى وجود فائض كبير لديها من رأس المال أمكن استغلاله فى الصناعة. يضاف إلى ذلك أن تفوق انجلترا فى الأعمال البحرية وخبرتها الواسعة فى التجارة الخارجية أدى إلى زيادة ثروتها وتقدم صناعاتها وتطورها.

٣- تمتع انجلترا بحكومة دستورية منذ ثورة ١٦٨٨ التى وضعت حدا لتدخل الأسرة المالكة، وللضرائب المجحفة، وأصبح للبرلمان كلمة فى حكم البلاد. وفى ظل حكومة وطنية قوية تمكن رجال الأعمال والمال أن ينعموا بأكبر قدر من الأمن والحرية والرخاء.

٤- سلامة انجلترا من خطر الغزو الخارجي وعدم تعرضها للاحتلال الذى تعرضت له بعض دول أوربا فى العصر الحديث أدى إلى نهوض الصناعة والتجارة بها.

٥- المناخ المناسب من حيث رطوبة الجو، وتوفر مساقط المياه التى استخدمت لادارة الآلات.

٦- أسبقية انجلترا فى الاختراع، ووضعها أساس الثورة الصناعية فى شتى مناحيها ساعدها على تقدم الصناعة فيها، فالاختراع وليد الحاجة دائما وعلى سبيل المثال نذكر أن الذى دفع "جيمس وات" على توجيه عنايته لاختراع الآلة البخارية كان شدة الحاجة إلى طلمبه بخارية تستخدم لنزح المياه من مناجم الفحم بعد أن أصبحت تلك المناجم عميقة إلى حد جعل الطلمبات اليدوية غير قادرة على تحقيق الغرض المطلوب وكان ذلك شأن بقية المخترعات الهامة فى ذلك الوقت يضاف إلى ذلك أن تشجيع الجمعية الملكية البريطانية للفنون والصناعات عن طريق رصد جوائز للمخترعين أدى إلى حفز هممهم على الاختراع.

٧- تركيز الصناعات قرب مناطق الطاقة والمواد الخام والثروة المعدنية المتوفرة فى انجلترا خصوصا الفحم والحديد. ساعد على اقتصاد الوقت والنفقات مما أدى إلى نمو الصناعات والتوسع فى الانتاج.

وقد ترتب على تصدر انجلترا ثورة التصنيع أن أصبح لها الريادة الاقتصادية فى العالم لفترة، غير أن حركة التصنيع والتقدم العلمى أخذ ينتشر فى غرب أوربا ولم يأت الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى كانت هذه الدول تنافس انجلترا فى صناعاتها.

آثار الثورة الصناعية:

كانت نتائج الثورة الصناعية متعددة النواحى فاستخدام الآلات الجديدة وقيام المصانع الكبيرة لم يكن انقلابا اقتصاديا وسياسيا فحسب بل كان انقلابا اجتماعيا أيضا ولم تنج من آثاره السلبية أو الايجابية كافة طبقات المجتمع وفيما يلى نعرض لذلك.

١-تدهور الصناعات اليدوية:

دفع الانقلاب الصناعى بأغلب المشتغلين بالصناعات اليدوية خاصة الغزالين والنساجين إلى البطالة ثم إلى البحث عن موارد أخرى للكسب تتفق مع ظروف الحياة المتغيرة.

٢- هجرة السكان من الريف إلى المدن:

رحل العديد من القرويين إلى المدن الصناعية للعمل فيها كإجراء ، وأدى تدفقهم المطرد إلى عدم مقدرة المدن على استيعابهم، وتدهور أحوالهم المعيشية والصحية بسبب المساكن القذرة التى عاشوا بها، ورداءة العمل بالمصانع، وساعات العمل الطويلة والأجور المنخفضة واضمحلال مستوى الصحة وزيادة انتشار الانحلال الخلقى والمنكرات والجرائم

لفترة، وبعد تقدم الصناعة بخطوات واسعة واستقرار نظامها أخذت تتخلص من هذه المساوئ، فأخذت المدن الصناعية فى النمو والاتساع بدرجة كبيرة وارتفع مستوى معيشة العمال خصوصا بعد توحيد كلمتهم وتأسيس نقاباتهم وظهور الحركة الانسانية التىتدعو إلى الاصلاح. فارتفعت أجورهم وتحسنت أحوال معيشتهم تدريجيا، وازدادت العناية بصحتهم وتوافرت لهم الحياة الكريمة، وازدادت ثروة الدولة وقوتها، كما ازداد عدد المصارف والشركات التعاونية.

٣- الاستثمار الرأسمالى:

انتقال الاقتصاد من النقابات الحرفية المنظمة والصناعات الأسرية إلى نظام الاستثمار الرأسمالى ونمو الرأسمالية الصناعية، وظهور طبقة جديدة من الرأسماليين الذين استطاعوا بثروتهم التأثير فى حكم بلادهم وكان "آدم سميث" الصوت البريطانى للنظام الجديد.

٤- تصنيع الزراعة:

استبدال المزارع الصغيرة بمساحات كبيرة تستخدم فيها الآلات والقوى الميكانيكة على نطاق واسع لانتاج الطعام يضاف إلى ذلك أن تشجيع العلم والبحوث الخاصة به قد أدى إلى نتائج عملية هائلة.

٥- تحسن وسائل المواصلات:

أخذت عقول المخترعين فى الاهتمام بتحسن وسائل المواصلات العالمية والنقل لشدة ارتباطها بمشكلتى الانتاج والاستهلاك فازدادت فى أواخر القرن الثامن عشر حركة شق الطرق، وحفر القنوات كما استطاع "ريتشارد تريفتك" أن يسجل فى عام ١٨٠٢ اختراع القاطرة البخارية وفى اعقاب ذلك ظهرت السكك الحديدية والسفن البخارية، وتطورت مقدرة الانسان على التنقل والتجارة لدرجة أصبح الانسان لايعتمد على بيئته المحلية للحصول على غذائه بقدر اعتماده على الأسواق العالمية.

٦- تحسن أحوال العمال:

تدخلت الحكومات لتحسين أحوال العمال وأصدرت قوانين جديدة للعمل، منها استغلال الأطفال والنساء وتنظيم العلاقة بين أصحاب العمل والعمال على نحو يكفل للعمال حياة كريمة.

٧- ظهور نظريات اقتصادية جديدة.

رفعت الثورة الصناعية أهمية الاقتصاد ووضعه، وأفضت إلى ظهور نظريات جديدة منمها التفسير الاقتصادى للتاريخ.

٨- الصراع بين الدول الصناعية من أجل السيطرة على مواطن المواد الخام اللازمة للصناعة، وعلى الأسواق مما فتح المجال الاستعمارى على مصراعيه وأدى إلى العديد من الأزمات.

وبمرور الزمن ظهرت فى الدول الصناعية آراء اشتراكية تتصل بمصالح العمال وحقهم فى العمل واشتراكهم فى شئون بلادهم، والرغبة فى تطبيق المبادئ الدستورية حتى يمكنهم التعبير عن آرائهم، وعرض مطالبهم على الرأى العام لاسيما بعد أن برز دور الصحافة، وأصبحت من أهم وسائل التوجيه والارشاد. كل ذلك أدى فى نهاية الأمر إلى تغيير وجه الحضارة فى أوربا وصبغها بلون جديد.

هذا ولاتزال الثورة الصناعية ماضية فى طريقها، وليس فى قدرة عقل واحد ان يستوعبها فى جميع مظاهرها، وأصبحت التصميمات الصناعية تتبوأ مكانها بين فنون الحياة وأسباب تطورها.



اسحاق نيوتن



داروين



اديسون »



الكسندر جراهام بل



« فرايز ـ جرين »



اورفيل رايت »



هنري فورد



ماركوني

الفصل التاسع
الثــورة الفرنسيــة

تعد الثورة الفرنسية بحق من أهم الحوادث التاريخية فى العصور الحديثة وذلك بسبب التحولات الهائلة التى أحدثتها فى فرنسا وفى بقية دول أوربا والعالم أيضا.

فقد اجتاحت جيوشها أوربا لتنشر أفكارها ومبادئها مما كان له أبلغ الأثر على أنظمة هذه الدول ومن ثم أصبح للثورة آثارها العميقة غير المباشرة فى العالم ومعنى ذلك أن هذه الثورة تنفرد عن غيرها من الثورات بأنها لم تكن ثورة سياسية ترتب عليها تغييرات فى النظام السياسى الفرنسى فحسب بل كانت ثورة سياسية اجتماعية اقتصادية فأما كونها ثورة سياسية فلأنها حولت نظام الحكم فى فرنسا من نظام استبدادى يستند على الحق الآلهى المطلق للملوك فى الحكم إلى نظام يدعو إلى المساواة والحرية والأخاء وأما كونها ثورة اجتماعية فلأنها نجحت فى إلغاء الامتيازات المتبقية من النظام الاقطاعى والتى كان يتمتع بها النبلاء ورجال الدين ، والذين كانوا يستولون عن طريقها على إيرادات البلاد وخيراتها ، ويتهربون من دفع الضرائب وإلى جانب ذلك فأنها أذابت الفوارق الطبقية بين الشعب الفرنسى ووضعت الأسس للمساواة بين الجميع ، واما كونها ثورة إقتصادية فلأنها غيرت نظام الضرائب والرسوم الجمركية، وألغت نظام الاحتكار ومحت القيود التى كانت تكبل الصناعة وانتزعت املاك الكنيسة الضخمة وحولتها الى ملكية الشعب .

ولعل هذه الصفات الجامعة التى انفردت بها هذه الثورة هى التى جعلتها تنفرد بالأهمية القصوى فى تاريخ أوربا الحديث، خاصة وتاريخ العالم عامة لأنها كانت الأساس لما حدث من ثورات وحروب فى أوربا والعالم بعد ذلك، كما كانت الأساس للعديد من الأنظمة الاجتماعية والسياسية التى نعرفها اليوم ومنها ظهور الحركات الاشتراكية.

وعلى الرغم مما صاحب هذه الثورة من سفك للدماء فقد كان أهم أحداثها اعلان حقوق الانسان، كما كانت الأساس لما انتشر فى العالم بعد ذلك من اصلاحات، وهذا أضفى على ذلك الثورة مسحة من التناقضات بين أسبابها وأهدافها وفيما يلى نعرض لذلك.

أولا: أحوال فرنسا قبيل الثورة:

استطاع ملوك فرنسا من أسرة البربون أن يركزوا السلطة فى أيديهم، وكان من أشهر هؤلاء لويس الرابع عشر الذى كان يرى أن سلطته مستمدة مَن الله، وبالتالى كان يرفض أى مشاركة أو رقابة على تصرفاته، ولم يعترف بالحريات سواء كانت شخصية أو دينية أو سياسية بل رفع شعار " أنا الدولة".

وقد خلف هذا الملك فى الحكم لويس الخامس عشر الذى انصرف إلى ملذاته وضلعت فى عهده معظم مستعمرات فرنسا فى أمريكا والهند ومن هنا يرجع بعض المؤرخين السبب الرئيسى فى قيام الثورة إلى رغبة الشعب الفرنسى فى التخلص من استبداد الملكية.

وكان يعاون الملك فى ادارة شئون البلاد مجموعة على قدر كبير من التخلف انتشر بينها المحسوبية والرشوة والاسراف مما جعلها غير قادرةعلى النهوض بمسئولياتها وأدى إلى افساد أحوال البلاد فى شتى مناحى الحياة، ولتوضيح ذلك نذكر مايلى:-

١ - نظام الطبقات:

كان يشوب التركيبة الاجتماعية للمجتمع الفرنسى تفاوت واضح، فقد انقسم الفرنسيون إلى ثلاث طبقات تتفاوت فيما بينها فكانت طبقة النبلاء تقف على قمة المجتمع الفرنسى، وتحتكر المناصب العليا، وتشارك القصر فى امتصاص خيرات الشعب، والتمتع بثمرات كده وكانوا يتمتعون بامتيازات عهد الاقطاع مثل حقهم فى الصيد بمزارع الأهالى، والحصول على نصاب معين من غلالهم وأغنامهم وطيورهم كل عام، وطحن غلال الأهالى فى طواحينهم وعصر نبيذهم فى معاصرهم هذا إلى جانب حقهم فى القضاء بين المزارعين.

وإلى جانب ذلك كان النبلاء يتركون مزارعهم الواسعة ويتجهون إلى فرساى لينعموا بحياة القصور وما فيها من مباهج وملذات، ويتركون ضياعهم تحت ادارة قساة من اتباعهم يرهقون الفلاحين بالعمل فيها ويبتزون ما تنتج الأرض من غلات وثمار.

وكان النبلاء معفيين من الضرائب المقررة على العامة وكان لهم حق جباية الضرائب لأنفسهم.ومع كل ذلك فينبغى أن نذكر أن قلة من النبلاء قامت بدور مهم فى الجمعية الوطنية هادفين إلى الاصلاح.

وكانت هناك طبقة رجال الدين التى انقسم أفرادها إلى قسمين قســـم يشــمل صغــار القساوسة وكانوا لا يملكون شيئا ويعيشون فى ضنك شديد وتقع عليهم تبعات عديـــدة مـــع أن مرتباتهم كانت ضئيلة، والقسم الأخر يشمل كبار القساوسة الذين كانوا يتمتعون بكافة امتيــازات الكنيسة، وخاصة وأن الكنيسة فى فرنسا كانت تضع يدها على مقدار كبير من دخـــل البـــلاد، فكان خمس أراضى فرنسا موقوفا عليها، وهذه الأراضى كانت معفاة من الضرائـــب يضـــاف إلى ذلك الهبات والاعانات ودخول الزكاة المفروضة على العامة دون غيرهم. وعلـــى الرغـــم من أنه كان يجب أن تنفق هذه الأموال على الفقراء والمحتاجين، فقد انفقها كبار رجال الكنيســة فى ملذات الدنيا ومباهجها، وبدأوا يتشبهون بالقياصرة والأباطرة مما زاد الأمور سوءا علـــى سوء. وأبعد الكنيسة ورجالاتها عن طبيعة عملهم، وأفقدهم احترام الناس. ونتيجة لذلك انضـــم صغار رجال الدين إلى طبقة العامة مما شد من عضدها ومكنها من المقاومة.

أما الطبقة الثالثة فهى طبقة العامة أى الفلاحين التى تمرغت فى حماة الجـــهل والفقـــر لدرجة أن وصلت الأمور بها إلى حد الجوع، يضاف إلى ذلك أن أولادهم كانوا يذهبون غالبـــ وقودا للحرب، وعلى الرغم من ذلك فقد أثقلت كواهلهم بالضرائب الفادحـــة والأعبـــاء غـــير المحتملة، وكانوا محرومين من أبسط الحقوق الانسانية، ولم تكن المواد الغذائية ميسورة لـــهم كما كانوا يرزحون تحت أعباء السخرة فكانوا ملزمين بالعمل فى جزء من أرض ســـيدهم دون أجر وطحن غلالهم فى طاحون سيدهم. وعصر عنبهم فى معصرته. ومن داخل هذه الطبقـــة ظهر أفراد " عملوا بالتجارة والصناعة التى كان النبلاء يترفعون عن ممارستها ممـــا جعلـــهم يلعبون أدوارا هامة فى أمور فرنسا الاقتصادية،وخاصة بعد اكتشاف امريكا، واتســـاع آفـــاق التجارة داخل أوربا وخارجها، يضاف إلى ذلك أنهم وجهوا أبناءهم وأحفـــادهم إلـــى التعليـــم فتخرج منهم المتخصصون فى شتى المهن واستطاعوا مزاحمة أبناء النبلاء فيها. وقـــد لعـــب هؤلاء دورا خاصا فى التمهيد لقيام الثورة، والقضاء علـــى معـــالم الظلـــم والاســـتبداد، كمـــا استخدمت هذه الطبقة فى اسقاط حصن الباستيل.

٢ – نظام الضرائـــب:

لم تتبع المساواة بين المواطنين فى فرض نظام الضرائب فضرائب العقار على ســـبيل المثال كانت تفرض على العامة وحدهم وكان تقديرها يتم حسب احتياجات الحكومـــة، وزكـــاة

الكنيسة كان يدفعها العامة وبخاصة المزارعين، وضرائب الدخل كانت تفرض على التجار والزراع.

وكان النبلاء ورجال الدين معفيين من الضرائب التى تفرض على العامة، كما كان خمس أراضى فرنسا تقريبا وقفا على الكنيسة مما أثقل كاهل الميزانية وأدى إلى انحطاط البلاد وبؤس الحياة وقد أوضح ذلك أحد الكتاب بقوله " كانت الحكومة تتقاضى على كل مائة فرنك من الدخل ما يقدر بخمسين إلى سبع وخمسين فرنكا نظير ضرائبها المباشرة، والكنيسة تأخذ أربعة عشر فرنكا والنبلاء أربعة عشر فرنك، ويتبقى للمنتج الباقى مخصوما منه ضرائب المكوس الداخلية، فكان ملزما بدفع ضريبة كلما مر بطريق أم استخدم نهرا. "

وقد بلغ جباة الضرائب فى فرنسا مبلغا عظيما من القوة والنفوذ فى عهد لويس الخامس عشر لدرجة أنهم كونوا شركة منهم والتزموا أمام الحكومة بتحديد ما يدفعونه من مال.



[illegible]



منتسكيو



روسو

٣- العوامل الفكرية:

شهدت فرنسا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، كما شهدت أوربا تيار جارف من الأفكار والمبادئ الجديدة يمكن وصفها بعصر الاستنارة Age of Enlightment فقد بدأ الفكر الحر يهز مشاعر الشعوب، كما وضع على بساط البحث والنقاش أسس الحق العام، وقواعد المجتمع الأوربى وفلسفته، وظهرت نظريات فى الدفاع عن الحرية، وحق الشعوب مما أدى إلى اهتزاز مراكز الحكم المطلق فظهر فى المانيا "جوته" و "شيللر"، وفى انجلترا "جون لوك" و " هيوم".

أما فى فرنسا فقد ظهر "جان جاك روسو" و "منتسكيو" و " فولتير" فقد تحدى روسو فى كتابه العقد الاجتماعى Contral Social الذى اخرجه فى عام ١٧٦٢ والذى يعده البعض انجيل الحرية تحدى تقاليد الكنيسة، وانتقد فى سخرية سلطة البابا، ورأى أن المصالح المتبادلة بين الناس هى أساس جميع السلطات، وأن الدولة لاتوجد الا بموجب عقد اجتماعى بينها وبين المواطنين، وإن القانون لايعد قانونا إلا بمدى احترام الناس له، وأنه يجب على الكنيسة الا تنتظر أى سند من الحكومة أو أى مال من الدولة، بل أن من حق الدولة الانفصال عن الكنيسة، والاستئثار بجزء من أموالها. كما أوضح روسو أن الانسان ولد حرا ثم كبلته الاغلال من كل مكان، وان علاج ذلك يكمن فى التماس الفضائل والارادة الخيرة. وبسبب هذا الآراء والمبادئ، اضطهد روسو كثيرا، ومع ذلك فقد وهب حياته من أجل الانسانية وفى سبيلها.

وبالنسبة لمونتسكيو فقد كان شديد الانتقاد للكنيسة والسخرية من سلطة البابا، وهاجم سياسة التعصب الدينى ونادى بسياسة التسامح، كما نادى فى كتابه روح القوانين Esprit des Lois والذى يعد أثرا مهما فى جميع ما ظهر من عالم الفكر من النظريات السياسية – بفصل السلطات الثلاث التشريعية، والتنفيذية، والقضائية ضمانا للحركة، وصونا للعدالة، وعالج الأسباب والمسببات فى التاريخ، وركز اهتمامه بالبحث فى أثر الأسباب الفيزيائية فى تفسيره مثل المناخ، وأحوال البيئة الجغرافية الأخرى، وهاجم الاستبداد، وأعرب عن ايمانه بحرية الانسان فى الفكر، والتعبير عن الرأى دون أى اضطهاد، وكان مونتسكيو فى ذلك متأثرا إلى حد بعيد بنظام انجلترا الدستورى.

أما فولتير ذلك القنديل الذى أضاء الفكر الأوربى بعطر التسامح والذى يعد من أنشط كتاب زمانه واخلدهم ذكرا فقد كانت رحلته إلى عالم الحرية تتخللها المسالك الخطرة والدروب

الشائكة، فكم من مرة ألقى به فى غياهب سجن الباستيل الرهيب بتهم تنحصر فى العيب والتطاول على الأسرة المالكة، مما اضطره للرحيل إلى المنفى فى بريطانيا ثم إلى المانيا، فقد اطربه مناخ الحرية فى بريطانيا خاصة وأن الانجليز استطاعوا اقامة برلمان اقوى من جبروت أى حاكم وقد سجل فولتير أفكاره فى أوراق سماها "رسائل إلى الانجليز" التى كان لها أبعد الأثر فى تكوين الحياة الفكرية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر أما فى المانيا فرغم أن فولتير كان صديقا لحاكمها فردريك الأكبر، فانه لم يستطع الاستمرار فى البقاء معه بل فر من قصره إلى سويسرا حيث كتب مؤلفاته التى غيرت مسار الحركة الفكرية فى أوربا، فكانت قضيته الأساسية هى الحرية والتسامح مما كان له أكبر الأثر فى نفوس سامعيه وقرائه، وكان قلمه سلاحا باترا يستخدمه فى محاربه التضليل فقد نشط فى مهاجمة مساوئ الكنيسة ورجال الدين، ورفض الأخذ بفكرة العناية الآلهية التى كانت تدور حولها التفسيرات التاريخية فى العصور الوسطى، ورأى أن معنى التاريخ يكمن فى العلوم والفنون والآداب وتهذيبات الحياة الاجتماعية ولقد عبر عن ذلك بقوله " أن مجال التاريخ يجب أن يتسع ليتتبع سير العقل فى الفلسفة والبلاغة، وفى الشعر والنقد، وفى التصوير والنحت، وفى الموسيقى والرسم، وحتى فى النسيج وصناعة الساعات، وكل ما يمثل شخصية الشعب، لأنها أجدر اهتماما من معرفة جزئية باخبار الملوك وأحاديث البلاط. وأن الخير الحقيقى للانسانية ليس فى قوادها، ولكن فى فلاسفتها وعلمائها وشعرائها".

لقد كانت هذه الكتابات وغيرها تدعو إلى الاصلاح الشامل فى كافة مناحى الحياة سواء كانت سياسية أو دينية أو اجتماعية، وتدعو إلى فصل السلطات الثلاث ووجود الضوابط بينها، وتهاجم الاستبداد والحق الالهى المقدس للملوك مما ساعد على أحياء روح النقد فبدأت العديد من الأمور التى كان لها احترامها فى الماضى تفقد قيمتها.

وإلى جانب هؤلاء المفكرين السياسيين ظهرت مجموعة أخرى من المفكرين الاقتصاديين الذين عرفوا باسم "الفيزيوكرات" أمثال كسناى صاحب مبدأ حرية التجارة، والذى هاجم نظام الضرائب الجمركية، وطالب بأن يكون استغلال الأرض هو المصدر الرئيسى للثروة كما طالب بتخفيض الضرائب، وقد أشتهر بكتابه المسمى " الجدول الاقتصادى" الذى

نشره فى عام ١٧٥٨ وجمع فيه أهم مبادئ هذه الجماعة[1] ونتيجة لذلك بدأ الشعب الفرنسى يفقد احترامه الطبقات العليا وينبذ سادته القدماء.

٤- النظـــام الادارى:

كانت فرنسا مقسمة إلى وحدات إدارية شبيهه بالاقطاعيات القديمة، وكان لكل وحـــدة من هذه الوحدات تشريعاتها وامتيازاتها الخاصة التى كانت تختلف عن غيرها مـــن الوحـــدات الأخرى، كما كان لكل أقليم قوانينه ونظمه المستقلة فـــى الضرائـــب والجمـــارك والموازيـــن والمقاييس مما عرقل عملية التبادل التجارى بين الولايات، وأعاق قيام وحدة اقتصادية داخـــل فرنسا، وأدى إلى قيام بعض الأقاليم بفرض رسوم جمركية عن تجـــارة الأقـــاليم الأخـــرى، وأساء فى الكثير من الأحيان إلى هيبة العدالة والقضاء فى فرنسا.

ثانيا: لويس السادس عشر ومحاولات الاصلاح:

وبعد أن تولى لويس السادس عشر عرش فرنسا فى عـــام ١٧٧٤م، تنفـــس الشـــعب الفرنسى الصعداء لانتهاء حكم لويس الخامس عشر الذى اهملت فيه شـــئون فرنســـا الداخليـــة والخارجية، وقابل مجئ الملك الجديد بالترحاب لأنه كان فى نظره يمثل انتهاء عصر مضـــى بمثالبه ومآسيه، كما أن لويس السادس عشر كان قد أعلن أنه سيعمل علـــى اصـــلاح أحـــوال الشعب الفرنسى الذى يحبه، وأنه يرغب فى تعديل الأنظمة المتوارثة، ونتيجة لذلك وجد تـــأييدا حماسيا من الشعب الفرنسى، ولكن الأمور سرعان ما تطورت فى غـــير صالحـــة للأســـباب الآتية:-

١- افتقاره إلى الذكاء وحسن التصرف وقوة الارادة وتردده فى اتخاذ القـــرارات فـــى وقـــت اشتدت فيه الأزمات وتكاثرت، فعلى الرغم من أنه كان حريصا على اسعاد شعبه فإنه لـــم يكن رجل الساعة الذى يستطيع الامساك بزمام الموقف.

٢- زواجه من مارى انطوانيت النمساوية ابنة "ماريا تريزا" امبراطورة النمسا التى لـــم يكـــن يرتاح إليها عامة الفرنسيين نظرا لبذخها لتداخلها فى شئون الدولة، ومحـــاولات تســـلطها

---

[1] كان شعار هذه الجماعة عبارة " اتركه يعمل - اتركه يمر" أى أنهم يدعون إلى حرية العمل وإلـــى حريـــة التجارة وتبادل السلع.

على زمام الأمور، وتأثيرها الشديد على الملك، ونجاحها فى طرد فليب ابن عم الملك – الذى كان موضع احترام الشعب – من القصر لكراهيتها له، مما أدى إلى انقلاب الفرنسيين عليهما وزيادة كراهيتهم لها، فرمزوا إليها بالمرأة النمساوية على سبيل الازدراء خصوصا وأن النمسا كانت عدوة فرنسا التاريخية.

٣- اهتمام أعوان الملك بمصالحهم الخاصة دون النظر إلى الأزمات التى تواجه الدولة أو محاولة إيجاد الحلول اللازمة لها، وتخبط الملك فى سياسته الداخلية والخارجية.

٤- ضعف السلطة المركزية، وخروج حكام الأقاليم عليها وانكبابهم على أموال الشعب الجائع، وعدم استقامة أمور القضاء.

٥- الفروق الواضحة بين طبقات المجتمع الفرنسى فعلى حين كانت الأكثرية تعانى أعباء الحياة ومشاكلها كانت الأقلية تعيش حياة راغدة وناعمة.

٦- اشتداد الأزمة الاقتصادية التى كانت تعانى منها فرنسا منذ عهد لويس الرابع عشر بسبب الحروب التى خاضتها فى ذلك الوقت مما أدى إلى زيادة العجز فى الميزانية، وجعل من الصعب موازنة الدخل بالمنصرف ومع ذلك ظلت الأمور على حالها دون محاولة لوضع حد لهذا الخلل واصلاح الميزان الاقتصادى خصوصا وان دافعى الضرائب من الفرنسيين القادرين كانوا معفين من دفعها بحكم الامتيازات القديمة، وقد جرت عدة محاولات فى عهد لويس السادس عشر لاصلاح الوضع الاقتصادى المتدهور فعهد بوزارة المالية إلى بعض الخبراء أمثال "تيرجو Turgot" و "نيكر Necker"، "وكالون Calonne"، إلا أن محاولاتهم الاصلاحية فشلت أمام المعارضة الشديدة من جانب النبلاء ورجال الدين الذين كانوا حريصين على التمسك بامتيازاتهم، وفيما يلى نعرض لهؤلاء:

١- تيرجو:

كان من المصلحين القلائل الذين كان فى استطاعتهم اصلاح الحال، وقد تولى "تيرجو" منصب المراقب العام للمالية، وكان له من الخبرة والمقدرة والحماس ما يؤهله لاصلاح الأمور فعزم على الحد من سلطات الكنيسة وايجاد نظام عادل للضرائب، واطلاق مبدأ الحرية التجارية داخل وخارج فرنسا هذا إلى جانب دعوته للقضاء على مظاهر الفساد فى الادارة

الحكومية، وتقرص أفراد الحاشية الملكية. وقد أيد معظم أفراد الشعب الفرنسى آراءه فى الاصلاح، عدا الطبقات الارستقراطية التى لم تستطع تقبل أفكاره، وإلى جانب ذلك تآمرت عليه عصبة من أفراد القصر بتشجيع من مارى انطوانيت، وأوعزوا إلى الملك بضرورة عزله ولما لم يكن للملك لويس السادس عشر من الشجاعة وقوة الشخصية ما يجعله يتمسك بوزيره أعفاه من منصبه فى عام ١٧٧٦ بعد عشرين شهرا من الحكم وعين "نيكر" مراقبا عاما للمالية بدلا منه.

٢- نيكر [١٧٧٦-١٧٨١]

على الرغم من أن "نيكر" كان خبيرا محنكا فى النواحى المالية فانه كان يفتقر إلى الخبرة السياسية ونتيجة لذلك حاول فى أول الأمر البعد عن أمور القصر المالية حتى لا يستثير الحاشية والملكة ضده كما فعل سلفه، كما أخذ يستغل سمعته المالية الحسنة وخبرته الطويلة مع المصارف المالية فى عملية عقد القروض بفوائد بسيطة، وتشجيع عملية التوفير والادخار وقد سارت الأمور بطريقة تنبئ بالخير، غير أن حادثا جللا وقع فقلب الأمور رأسا على عقب، ويتمثل هذا الحادث فى قيام حرب الاستقلال الامريكية، واسراع بعض المتطوعين الفرنسيين تحت قيادة " لافاييت" بالابحار إلى أمريكا لمساعدة الثوار ضد الانجليز، واضطرار فرنسا إلى مؤازرة ابنائها المتطوعين فى الحرب بالعتاد والمال مما كان له أثره المباشر على زيادة تدهور الميزانية الفرنسية، وعجزها عن مواجهة نفقات الحرب.

ونتيجة لانفلات الأمور، وخشية من زيادة التدهور المالى، وحتى يبرئ "نيكر" ساحته أمام الفرنسيين قام باصدار بيان الشعب شرح فيه الموقف المالى لفرنسا، كما بين فيه مقدار الأموال التى ينفقها الملك وحاشيته، ومدى مقدار البذخ والترف فى القصر الملكى، وأوضح أن طريق الاصلاح المالى يكمن فى ضرورة المساواة فى توزيع الضرائب على كافة المستويات.

ونتيجة لذلك أمر الملك باعفاء نيكر من منصبه فى عام ١٧٨١م واسناد هذا المنصب إلى " كالون".

٣- كالون [١٧٨١-١٧٨٧]

كان محبوبا من البلاط خصوصا وانه لم يحاول المساس بنفقاته الباهظة، وقد حاول "كالون" اصلاح مشاكل فرنسا المالية عن طريق الاستدانة بفوائد مرتفعة، ولما تبين له أن هذه الطريقة ستؤدى إلى زيادة تفاقم الموقف أكثر مما هو عليه خاصة بعد أن اشترت الملكة قصر "سان كلو" واشترى الملك قصر " رامبوييه"، رأى ضرورة ايضاح حقيقة الموقف للشعب، فدعا مجلسا من الأعيان لابداء المشورة، ومع أنه كان من المفروض على هذا المجلس أن يقترح فرض الضرائب على الطبقات المتميزة فانه لم يفعل ذلك بل اشار إلى ضرورة دعوة مجلس طبقات الأمة التى تتمثل فيه جميع فئات الأمة الفرنسية لعرض المشكلة عليه، والبحث عن الحلول السريعة لها حتى يمكن تذليل الصعوبات التى تحيط بمالية فرنسا، وكان هذا المجلس يمثل رجال الدين والنبلاء والعامة وكانت كل طبقة من هذه الطبقات تجتمع فى قاعة منفصلة عن الأخرى، وعند الاقتراع على المشروعات كان يمثل كل قاعة صوت واحد ومعنى ذلك انه كان لرجال الدين والنبلاء قاعتين، والعامة قاعة واحدة، ولما كانت مصالح رجال الدين والنبلاء متقاربة، فكانا دائما ما يتفقان ضد آراء العامة. وهكذا كانت فرنسا ترزح تحت أعباء حكم فاسد مضطرب لانظام فيه ولا رحمة ولا هواده.

ثالثا: جوادث الثورة:

وعلى كل حال فعندما اجتمع المجلس اتضح أنه لم يكن لدى الحكومة خطة واضحة للاصلاح، ونتيجة لذلك سقط" "كالون" فى عام ١٧٨٧، وخلفه الكاردينال " دى بريين" رئيس اساقفه تولوز الذى نادى باللجوء إلى الملك لفرض الضرائب على الطبقات صاحبة الامتيازات، ولكن استياء الرأى العام الفرنسى من وجود "دى بريين" أرغم الملك على عزله فى ١٧٨٨ واستدعاء نيكر من جديد، ودعوة مجلس طبقات الأمة لبحث المشكلة.

وخلال ذلك دارت مناقشات صاخبة حول تكوين طبقات الأمة وضرورة تعديله، وكان الخلاف واضحا بين ممثلى الطبقات الثلاث وبتأثير من "نيكر" نجح العامة فى الحصول على نحو ستمائة مقعد بينما حصل رجال الدين على ثلثمائة والنبلاء على مثلهم، وبقيت هناك مشكلتان الأولى وهى طريقة جلوس الأعضاء عند المناقشات والتصويت وهل يجلسون فى

قاعات ثلاث كما كان الوضع ويؤخذ رأيهم على حدة بحيث يكون للنبلاء ورجال الدين صوتان وللعامة صوت واحد أم يجلسون معا كممثلين للشعب الفرنسى، ويكون البت فى الأمور بأغلبية أصوات الأعضاء. والثانية وهى أيكون مجلس الطبقات مجلسا للشورى أو يكون جهازا حقيقيا من أجهزة الحكم. وقد أصر العامة على أن يجتمع ممثلوا الطبقات فى قاعة واحدة بينما رفض ممثلوا النبلاء ذلك، وظلوا يتشاورون كل فى قاعته دون الوصول إلى نتيجة.

ومع أن آمال الفرنسيين كانت معقودة على الملك لانقاذ الموقف فقد أيد الملك الحكومة ورجال الدين فى رفض اجتماع جميع الأعضاء فى غرفة واحدة مما أثبتت أنه كان يفتقر إلى الذكاء الذى يتناسب مع ظروف الأحداث، وجعل العامة يستنكرون تصرفه، ويطالبون بأن يكون اجتماع الطبقات الثلاث فى قاعة واحدة، وان يدلى كل فرد بصوته وتؤخذ القرارات بأغلبية الأصوات، ومن أجل ذلك قرر العامة عدم التعاون مع الحكومة حتى تسلم لهم بمطالبهم.

وفى العاشر من يونيو عام ١٧٨٩ اقترح أحد نواب العامة وهو "سييز Sieyes" توجيه الدعوة إلى رجال الدين والنبلاء بالانضمام إلى العامة فى قاعدة واحدة للمبادرة بوضع دستور جديد لفرنسا فإذا رفضوا ذلك يطلق العامة على أنفسهم " الجمعية الوطنية" ويبدأون بوصفهم نوابا للشعب فى وضع دستور للبلاد سواء اشترك معهم النبلاء ورجال الدين أم لا.

ونتيجة لذلك اتخذ النبلاء من تصرف العامة ذريعة لاقناع الملك بالانضمام إليهم، فأمر باغلاق قاعة الاجتماعات بحجة اعدادها لعقد جلسة ملكية يعلن فيها مشيئته، ولما كان العامة على غير استعداد للتسليم بالأمر انتقلوا إلى ملعب مجاور لملعب التنس المجاور لقصر فرساى وأقسموا على الاستمرار فى اجتماعاتهم إلى أن يضعوا دستورا جديدا لفرنسا يرعى حقوق المواطنين.

ووجدوا فى ذلك تشجيعا من رجال الدين الذين كانوا متفاوتين فى أصلهم الاجتماعى، فبأغلبية صوت واحد قرر رجال الدين الاتحاد مع العامة وانضم حوالى نصفهم إليهم، ولما انعقدت الجلسة الملكية فى ٢٣ يونيو ١٧٨٩، أعلن الملك فى خطبته عن بعض الاصلاحات التى رأى ادخالها فى الشئون المالية، ورفض فكرة جلوس الأعضاء فى غرفة واحدة عند التصويت وأصر على ان تجرى المناقشة والتصويت على طريقة القاعات المنفصلة مما اعتبر انتصارا للنبلاء ورجال الدين، وتحديا للعامة الذين رفضوا قرار الملك وأصروا على عدم

اخلاء أماكنهم فى القاعة، ولما وصل رسول الملك يأمرهم بالانفضاض صاح به " ميرابو" أننـا هنا بإرادة الشعب ولن نبرح أماكننا الا على أسنة الرماح".

وعلى الرغم من أن الملك هدد باستخدام القوة لسحق المعارضة فقد ناشد رجال الديـن والنبلاء الخروج على أوامره السابقة والانضمام إلى العامة. وفى الثـانى مـن يوليـو ١٧٨٩ اجتمع ممثلو الطبقات الثلاث فى غرفة واحدة واعتبروا أن مهمتـهم الأساسـية هـى وضـع الدستور واطلقوا على أنفسهم أسم الجمعية التأسيسية، ونتيجة لذلك اهتز سلطان الملك وحاشيته وأصبح للعامة اليد الطولى فى تسيير الأحداث.

وقد أدى انتصار العامة إلى شل أجهزة الحكومة الفرنسية فلم تعـد الضرائـب تدفـع ووقعت عشرات الأغارات فى الريف على مساكن النبلاء وأحرقوا بعضـها، كمـا هوجمـت مكاتب الضرائب وساءت أحوال التجارة، وتفشت البطالة وأصبحـت بـاريس تضـم اعـدادا ضخمة من العمال العاطلين الذين كادوا يموتون جوعا، وكـان مطلبـهم الأول هـو الغـذاء وتحسين أحوال معيشتهم. ونتيجة لتفاقم الأمور قرر الملك استعمال القوة باستدعاء بعض فـرق الجيش إلى فرساى، واصدر أوامره لهذه القوات بالتقدم إلى باريس، كما ترددت الأنباء باعفـاء "نيكر" الذى يرضى الشعب عن سياسته من منصبه واستبدال احد أعوان الملـك الـذى كـان مكروها من قبل العامة به مما أشعل المظاهرات ودفع مجلس طبقات الأمة إلى الانعقاد لتـأليف حكومة وطنية فسيطروا على دار البلدية (الكومون) وجعلوها مركزا لمقاومـة السـلطة كمـا نظموا حرسا مدنيا للدفاع عن حقوق أهالى باريس وأملاكهم، وسرعان ما تزايدت اعداد هـذا الحرس وسمى بالحرس الوطنى، وقد نجح أفراد هذا الحرس فى اقتحام دار السلاح المعروفـة باسم " دار الانفليد" واستولوا على الأسلحة الموجـودة به[١]، كما انضم إلـى هـؤلاء قـوات الحرس الفرنسى المكون من جنود نظاميين كانوا فى إحدى معسكرات باريس بعد أن تشـربوا روح الثورة.

وفى صباح ١٤ من يوليو هاجم الثوار سجن الباستيل أحد الحصون القليلة الباقية مـن العصور الوسطى والذىكان فى نظر الناس رمزا للطغيان وتقشعر أبدانهم هولا وفزعـا مـن ذكره، حيث يتعاقب فى أذهانهم سلسلة من الصور المفزعة لأولئك السـجناء التعسـاء الذيـن عاشوا فى جحوره فى أحجار تحت الأرض لا ينفذ إليها الهواء ولا يبلغها ضوء النهار، ويرتـع

---

[١] جرانت: أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ص ٧١-٧٢.

فيها الثعابين والجرذان وتعشعش على جدرانه الهوام والحشرات وبعد أن تمكن الثوار من تحطيم أسوار السجن والاندفاع إلى داخله، لاطلاق سراح مسجونيه ولم يجدوا بين جدرانه سوى سبعة سجناء أطلقوا سراحهم، واحتفلوا بتخليصهم فى موكب رسمى، وحملوهم على الأكتاف كما حملوا رءوس ضحاياهم عند أسقاط الحصن.

وما كاد سكان الأقاليم يسمعون بسقوط الباستيل حتى هاجمت النسوة والأطفال والرجال قصور النبلاء، ودمروا ما بها من سجلات تثبت حقوق النبلاء إزاء العامة وعمت الفوضى فى كل مكان.

ونتيجة لتطور الأحداث وتفاقمها وتردد الملك، وافتقاره إلى الحزم والذكاء الذى يتناسب مع الظروف استسلم الملك للأمر الواقع وأظهر استعداده لتقديم بعض التنازلات، فأعاد نيكر إلى وزارة المالية، نزولا على رغبة الجمعية الوطنية، وأبعد الجند عن باريس.

ومع كل ذلك فان هذه التنازلات لم تكن كافية من جانب الملك لامتصاص غضب العامة ووقف التدهور وخشية من العواقب اجتمعت الجمعية الوطنية، ووافقت على سلسلة من القرارات تهدف إلى الغاء امتيازات النبلاء ورجال الدين، والغاء السخرة، والضرائب المفروضة على المطاحن والمخازن، واعلان المساواة بين المواطنين فى الضرائب، وفى تقلد مناصب الدولة دون قيود طبقية، واصلاح القضاء. ومع أن هذه القرارات لاقت استحسانا كبيرا لدى الجمهور الفرنسى إلا أنها تسببت فى تدهور الخزينة الفرنسية والوضع المالى عامة، إذ الغت وبدون دراسة مسبقة مجموعة من الضرائب كانت تدر دخلا يشكل تقريبا نصف الخزانة الفرنسية.

ومع أن الجمعية الوطنية تداركت الأمر، وأقرت ضريبة على كل من يزيد دخله عن أربعمائه ليرة فان ذلك لم يعوض ما فقدتها الخزينة من موارد، وفى أغسطس من نفس العام أعلنت الجمعية الوطنية وثيقة حقوق الانسان استنادا على أفكار " روسو" و " مونتسكيو" والتى كان من أهم نصوصها أن الناس ولدوا أحرارا ويعيشون أحرارا ومتساوون فى الحقوق، وأن الحرية حق لكل فرد بشرط الا تضر بالآخرين، وان الملكية حق مقدس، وان للفرد الحق فى تولى الوظائف المدنية والعسكرية ما دام مؤهلا لها، وان المواطنين متساوون أمام القانون،

وان كل فرد برئ حتى تثبت أدانته.[١] ونتيجة لرفض الملك التوقيع على هـذه الوثيقـة تـأزم الموقف، وبدأت الشائعات تنتشر بأن الملك يخطط للقضاء على حركة الاصلاح.

وخلال هذه الفترة تشكلت فى باريس حكومة بلدية كاملة، وتطور الحـرس الوطنـى، واسندت قيادته إلى لافاييت، وأخذت الصحف السياسية فى الظهور وتألفت الأنديـة السياسـية لمناقشة المسائل الوطنية والتأثير على الرأى العام.

ونظرا لندرة الخبز واشتداد المجاعة فى باريس استغل المهيجون الموقف وبدأوا فـى تحريض مجموعة من الفقراء والجائعين بالذهاب أمام دار البلدية بفرساى تتقدمهم مجموعة من النساء للمطالبة بالخبز وعودة الملك إلى باريس، وبعد أن وصل هؤلاء الجائعون إلى فرسـاى تمكنوا من اقتحام قاعات المجلس مطالبين بالخبز، كما تمكنوا من أن ينفذوا إلى داخل القصـر الملكى، ويعرضون حياة الملك والملكة للخطر، ولكن وصول لافييـت علـى رأس الحـرس الوطنى انقذ الموقف وضمن للملك والملكة حياتهما الشخصيـة، وتحـت الضغـوط الشـديدة اضطر الملك إلى مغادرة فرساى إلى باريس، فوصلها فى عصر السادس من أكتوبـر وعلـى صدره شارة الثورة، وظل فى حماية الحرس الوطنى، ومن ثم ارتبط مصير بـاريس بمصـير الثورة أشد الارتباط.

ولما كان ذلك الوضع لا يرضى النبلاء ورجال القصر فقد نظروا إلى تنازلات الملـك للعامة بعين الخوف والازدراء، وأعلنوا أن تنازلات الملك للثوار غير ملزمة لانها تمت تحـت الضغط والاكراه وقرروا الهرب من فرنسا إلى بلجيكا وبعض المدن الالمانية لاعـادة تنظيـم أمورهم، وتحريض ملوك وحكام أوربا ضد الثورة ومطالبتهم بالعمل ضدها.

وخلال ذلك استمرت عملية وضع الدستور وسط نواقيس الخطر، واخـيرا استقـر الرأى على أن اعلان حقوق الانسان سيكون اساسا للدستور، وأن الشعب هو صاحب السيادة.

وفى الرابع من اغسطس أعلن عن الغاء الاقطاع، وما صحبه مـن حقـوق وراثيـة للنبلاء، ومصادرة ممتلكات الكنيسة وقيام الحكومة بالانفاق على الخدمات للكنيسة ودفع رواتـب رجالاتها، والعمل على ايجاد المساواة الحقيقية بين جميع الناس من الوجهة الدينية والمدنية.

---

[١] مما يلفت النظر أن الثورة الفرنسية لم تأت بجديد عندما أصدرت هذا الاعلان إذ سبقتها إلى ذلك انجلـترا فى ثورتها الدستورية عام ١٦٨٨ والولايات المتحدة فى حرب استقلالها ضد انجلترا فى عام ١٧٧٦.

وعلى الرغم من مزايا هذه التشريعات، فإن الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة قد أفقد الثوار ثقة المعتدلين من رجال الدين ، كما أثار لهم المشكلات مع البابوية، وبذر بذور الشقاق بين الفرنسيين.

ونظرا لتزايد الاتجاهات المتطرفة بين الثوار ضاق الملك ذرعـا بـالموقف فحاول الهرب مع زوجته وأولاده إلى الحدود الشرقية حيث كـان المـهاجرون يتجمعـون هنـاك، واستطاع الخروج من العاصمة فى عربة مغلقة والسير فى اتجاه الحـدود الشـمالية الشـرقية ولكن انكشف امره واعتقل عند بلدة فارن Varennes القريبة من الحدود وأعيد إلى بـاريس وسط مظاهر من الضيق والاحتقار، وعندئذ قررت الجمعية الوطنية وقفه عن ممارسة سلطاته حتى يتحدد تقرير مصيره وريثما يتم الفراغ من النظر فى الدستور وعرضه عليه فـاذا اقـره اعيد إلى ملكه وأن رفضه فقد عرشه، غير أن ذلك لم يرض أقلية صغيرة داخل الجمعية كـانت ترى ضرورة اقتلاع النظام القائم وتأسيس نظام جمهورى، ومع أنه لم تكن بيـن الفرنسـيين مشاعر جادة نحو الحكم الجمهورى فقد أعد هؤلاء عريضة بهذا الخصوص ووضعوها علـى مائدة فى ساحة "مارس" لجمع التوقيعات بالموافقة عليها، ولمـا صـدرت التعليمـات بتفـرق الجمهور المتجمع أمام هذه العريضة خشية اضطراب الأمن رفض المجتمعون التفرق مما أدى إلى اطلاق النار عليهم فى ١٧ من يوليو ١٧٩١ فى مذبحة عرفت باسم مذبحة " شـامب دى مارس" والتى كانت نقطة البدء للحركة التى حولت فرنسا إلى النظام الجمهورى.

وعلى كل حال فقد تم وضع الدستور فى سبتمبر ١٧٩١، وفيه تم توزيـع السـلطات، وقبله الملك واقسم يمين الولاء لفرنسا وبدا وكان الثورة قد انتهت، ولكن الأمور انقلبت فجـأة فاجتمعت الجمعية التشريعية فى خريف عام ١٧٩١، لتحديد مصير الملك، وخلال ذلك ظـهرت الخلافات فى ضوئها، وانقسم اعضاؤها إلى تكتلات مختلفة بين متطرف ومعتدل، وكـان مـن أبرز هؤلاء " الجيروند"[١] الذين كانوا من الشبان المتحمسين لفكرة الجمهوريـة وكـان مـن أبرزهم " رولان" واليعاقبة الذين كان من أبرزهم " روبسبير" ودانتون ومارا. لما تغلـب رأى المعتدلين غضب المتطرفون ونظموا مظاهره لارهاب المجلس.

وخلال ذلك كانت ممالك أوربا المجاورة تتحفز للقضاء على الثورة بدعوة الدفاع عـن الحق الالهى للملوك، والمحافظة على النظام الاقطاعى، فاجتمع الامبراطور الألمانى "ليوبولـد"

---

[١] نسبة إلى أحد أقاليم فرنسا.

مع " فردريك وليم" ملك بروسيا للتداول فى شأن ما يحدث فى فرنسا، والتدخل لاعادة النظام إليها، ووسط تزايد المخاطر جاءت وزارة " الجيروند" إلى الحكم، وكان أعضاؤها من أنصار فكرة أن الحرب مع الدول الأجنبية ستكون كفيلة باثارة الحماس للنظام الجمهورى داخل فرنسا والقضاء على الملكية ونتيجة لذلك اندلعت الحرب ومنى الفرنسيون فى بداية الأمر بهزائم متتالية، لقلة خبرة جنودهم بالحرب، وعدم الاذعان لأوامر قادتهم،مما أدى إلىتدهور الموقف واتهام الملك بالخيانة، وحفاظا على الثورة قرر اليعاقبة اسقاط الملك وامتلاك زمام الأمور بأنفسهم، ثم ازدادت الأمور توترا نتيجة لقيام النمسا وبروسيا بتوجيه انذار إلى الثوار برد حقوق الأمراء، والعمل على وقف تصدير الثورة إلى أوربا مما أدى إلى اثارة الغضب فى قلوب الباريسيين، وقيامهم بجمع القوات من الأقاليم لحماية الثورة، وكان مرور هذه القوات فى باريس بمثابة مظاهره صاخبة وبخاصة عندما وصلت قوات مارسيليا، تنشد "المارسيليز" لأول مرة.

وفى الحادى عشر من يوليو أعلن الثوار أن البلاد فى خطر وبدأوا فى رفع الاعلا السوداء وذلك فى أعقاب تهديدات ملوك وحكام أوربا بتدمير باريس إذا تعرض الملك وأسرت للخطر، مما أدى إلى هياج الشعب الفرنسى، وتخليه عن الملك الذى اقترن اسمه بالدولة المعادية التى تريد أهانة شرف فرنسا فهاجم الأهالى والجنود القصر الملكى، ولما سمع الملك طلقات النيران طلب من حراسه الاستسلام، ووضع نفسه فى حماية الجمعية وفى أعقاب ذلك توجه الجمهور الثائر إلى الجمعية التشريعية وطالب بخلع الملك واعلان الجمهورية ونتيجة للضغوط الشعبية تقرر ايقاف الملك عن ممارسة سلطاته واعتقاله هو وأعضاء حكومته وتشكيل جمعية جديدة باسم المؤتمر الوطنى يخول إليها التعديلات الدستورية الجديدة، وفى تلك الفترة عينت الحكومة وزارة جديدة من حزب الجيروند، كما شكلت لجنة تنفيذية أسمتها "لجنة الاشراف" ونتيجة لتدهور الموقف على الحدود الفرنسية وتردد الشائعات بتقدم القوات الغازية داخل فرنسا وسقوط حصن فردان طالب "دانتون" بصفته وزيرا للعدل اعطاءه سلطة تفتيش البيوت فى باريس بحثا عن اعداء الثورة وفى اعقاب ذلك امتلأت السجون بالمشبوهين، واعدم

الكثيرين منهم.كما تغير الموقف على الحدود حيث استطاعت القوات الفرنسية ان تثبت أمام القوات البروسية الغازية فوق تلال "فالمى" Valmy وأجبرتها على الانسحاب بعد أن كبدتها العديد من الخسائر، مما أعاد الثقة إلى نفوس الفرنسيين وايقظ فيهم الشعور الوطنى. ومن هنا تأتى أهمية موقعة " فالمى" على صغرها لأنها ولدت فى فرنسا وجيشها ثقة بالنفس جعلتها مصدر الفزع لأوربا كلها، كما أثبت هذا الانتصار أن فرنسا لازالت أمة حية لها كيانها وقدرتها على مواجهة الأزمات.

ولما بدأت انتخابات المؤتمر الوطنى كانت فى صالح المعتدلين وكان مصير الملك على رأس قائمة الموضوعات المطروحة، وبعد مناقشات حامية تقرر فى الحادى والعشرين من سبتمبر ١٧٩٢، الغاء الملكية وقيام الجمهورية كما تقرر تقديم الملك للمحاكمة، وفى الحادى عشر من ديسمبر صدر قرار الادعاء بتوجيه عدة تهم إلى الملك من أهمها التآمر على الدولة، ومحاولة الغاء الدستور، والاتصال بالأجانب، وتعريض الوطن للغزو الأجنبى وسفك دماء الفرنسيين.

ولما مثل الملك امام المحكمة دافع عن نفسه بطريقة أقنعت أعضاء المؤتمر ببراعته ، ولكن رعاع باريس أخذوا فى تهديد أعضاء المؤتمر بالقتل إذ لم يصوتوا لصالح أعدام الملك، كما وقف روبسبير داخل القاعة يوضح للأعضاء " أنهم ليسوا قضاة بل رجال سياسة " وكان لخطابه أكبر الوقع فى التأثير على أعضاء المؤتمر ، وإلى جانب ذلك نجح اليعاقبة فى أرهاب الموجودين داخل القاعة لدرجة انهم جمعوا حشدا غفيرا من غوغاء باريس لارهاب معارضى أعدام الملك يوم أخد الاصوات ، وساعد على ذلك الطريقة التى اتبعت يوم أخذ الاصوات ، فكان على العضو أن يذهب إلى المنبر ليعلن أمام الحاضرين موقفه مما دفع بالكثيرين من المعتدلين إلى الرضوخ لراى المتطرفين حتى قرر المؤتمر اعدام الملك فىأول يناير ١٧٩٣ بفارق صوت واحد ٣٦١ مقابل ٣٦٠ ونتيجة ذلك سيق الملك إلى ساحة الاعدام وكان أخر ما نطق به هو:-

" أنى برئ .. ولكن فليكن دمى فداء سلام وسعادة أبناء فرنسا "

وقد أثار اعدام الملك موجة كبيرة من الاستنكار فى أوساط أوربا ، كما أنه أثار حفيظة ملوك حكام أوربا على الثورة

رابعا: الموقف فى فرنسا بعد أعدام الملك :-

أدى أعدام الملك إلى إنتصار موقف اليعاقبة واقتراب حكـم الارهـاب كمـا تدهـور الموقف الحربى لفرنسا ، فلم تلبث إن وجدت نفسها مطوقه بائتلاف أوربى ضدها حيث أعلنـت عليها بريطانيا والنمسا والمانيا وأسبانيا وأيطاليا الحرب، ومواجهة ثورة فرنسا اتقاء لخطرها.

والسؤال المطروح هو هل كان وقوف تلك الدول الأوربيـة ضـد فرنسـا مـن أجـل التعاطف مع لويس السادس عشر فحسب أو كانت هناك أسباب أخرى.

الواقع أن تحول الثورة الفرنسية من حركة اصلاح محلية إلى حركة عالميـة امتـدت آثارها إلى جميع الاقطار جعل دول أوربا تخشى من انتشار عدوى مبادئ الثورة إلى بلادهـا خصوصا بعد أعدام الملك واعلان المؤتمر الوطنى " انه يعتبر نفسه مسئولا عن توفير الحريـة للجنس البشرى والاطاحة بجميع العروش"، كما أنها كانت تخشى من أتساع النفـوذ الفرنسـى نتيجة للحماس المتدفق من انصار الثورة.

وعلى كل حال فانه أمام هذه التجمعات الأوربية ضد فرنسا هزمت القـوات الفرنسـية فى عدة مواقع وأصبح مصير الثورة يواجه نهاية مفجعة، ولمواجهة الموقف اتخـذ المؤتمـر الوطنى عدة تدابير حازمة حيال الأخطار المتجمعة فركز السلطة فى يد الحكومـة واعطاهـا حرية الحركة دون التقيد بالقوانين، كما تقرر تشكيل محكمة الثورة للنظر فى أمـر المتـهمين بمناهضة الحكومة، ونتيجة لتفاقم الأمور، تألفت فى فرنسا لجنة من تسـعة أفـراد بزعامـة دانتون أطلق عليها لجنة الانقاذ العام وهذه اللجنة حكمت فرنسا اكثر من عامين، وإليها يرجـع الفضل فى اتخاذ معظم التدابير التى كفلت النصر والخلاص للبلاد فقد كونت جيشـا شـعبيا، وأعلنت التعبئة العامة فى كل أنحاء فرنسا حتى تم اخراج القوات الغازيـة وتحـول الجيـش الفرنسى من الدفاع إلى الهجوم، وخلال هذه المرحلة برز قواد فرنسيون أكفاء أمثال " كـارنو"، و "هوش"، و "مارسو" و "جوردان"، استطاعوا ان يكونوا على مستوى الأحداث، وان يحققـوا لبلادهم العديد من الانتصارات، كما حدث صراع عنيف بين " اليعاقبة" و "الجـيروند" اتضـح من خلاله أن باريس مركز الثورة كانت فى يد اليعاقبة على حين كان "الجـيروند" لايتمتعـون فيها الا بتأييد طفيف حيث كان نفوذهم يتركز فى الأقاليم فقط كما كانت صحف باريس تقـف منهم مواقف المعارضة.

وفى ٢٤ من ابريل سيق "مارا" لمحكمة الثورة، ولكنه بـرئ مما أدى إلى حنق الثوريين فى باريس على الجيروند، وفى ٣١ من مايو ١٧٩٣ هبت جماهير باريس تطالب باعتقال الجيروند بوصفهم اعداء الثورة، ولما نشطت محاولاتهم قاموا بتكرارها، وخلال ذلك نجح اليعاقبة فى اعتقال عدد كبير من الجيروند واقامة جو من الارهاب استطاعوا من خلاله الاستيلاء على مقاليد الحكم، وضرب الأنظمة القائمة عرض الحائط.

وظل " دانتون" يسيطر على "لجنة الأمن العام" التى كانت اقوى اجهزة الحكم فى فرنسا فى ذلك الوقت، واستطاع اعداد العدة لمقاومة اعدائه، ومع ذلك لم يستطع الاحتفاظ بمكانه حيث حل مكانه " روبسبيير" الذى كان خطيبا مفوها استطاع ان يستحوذ اعجاب مستمعيه. وقد نجح "روبسبيير" فى التخلص من كل منافسيه واعدامهم، ومع انه لم يستطع ان يظهر القدرة على معالجة شئون الحكم فانه كان محاطا باصدقاء مخلصين يساعدونه فيما يعترضه من صعاب.

وفى عام ١٧٩٣ تقدم اليعاقبة بدستور جديد لضبط الأمور وتهدئه الخواطر وتم اقراره ولكنه لم يكد يرى النور حتى عطل[1] وأخذت محكمة الثورة تمارس أعمالها وساعدها على ذلك صدور " قانون المشبوهين" الذى خول لها اعتقال وسجن أى شخص دون اى محاكمة مما أدى إلى ازدحام السجون بالمتهمين وكان الاعدام بالمقصلة هو العقوبة التى تطبق باستمرار وكان من أهم هؤلاء الضحايا الملكة "مارى انطوانيت".

وفى أغسطس ١٧٩٣م صدر الأمر بالتجنيد الشامل، كما قامت فى باريس حكومة حازمة لمواجهة اعداء فرنسا فى الداخل والخارج ونظرا لتزايد الخلافات بين اليعاقبة أخذوا فى تصفية انفسهم، فقاموا باعدام "دانتون" وانصاره، كما اعتقلوا "روبسبيير" واتباعه، وأودعوهم السجن ولكن سرعان ما أطلق المجلس البلدى فى باريس سراح "روبسبيير"، ومع ذلك فقد أصدر أعضاء المؤتمر قرارا باعتبار "روبسبيير" خارجا على القانون وبدأ كل طرف ينظم معركته ضد الآخر. وفى النهاية خسر "روبسبيير" المعركة واقتيد إلى المقصلة ليذوق من نفس الكأس التى أذاقها للعديد من ابناء فرنسا، فكان فى ذلك خطوة هامة نحو القضاء على عهد الارهاب ولجنة الامن العام.

---

(1) جرانت، ص ١١٥

وفى أعقاب ذلك أعيد تنظيم محكمة الثورة، كما أعيد تشكيل اللجان التنفيذية، بحيث لم يعد للجنة الأمن العام ما كانت تتمتع به من نفوذ من قبل، وأغلق نادى اليعاقبة وتضاءلت الأحكام بالاعدام وخلال ذلك تجددت الاضطرابات فى باريس وكان مطلب الثوار هو " الخبز ودستور ١٧٩٣"، وقد أمكن لقوات باريس السيطرة على الموقف، واعتقال المشاغبين كما أعيد تشكيل الحرس الوطنى ليصبح درعا للطبقة الوسطى. وفى مايو ١٧٩٥م قام أعضاء حزب اليعاقبة باحتلال قاعة المؤتمر وحاولوا ان يفرضوا على أعضائه بعض آرائهم، ولكن القوات النظامية أنقذت الموقف، واستطاعت اخراجهم من القاعة وفى العاشر من يونيو ١٧٩٥ مات ابن لويس السادس عشر الصغير وهو فى السجن مما كان له أثره فى تغيير مجرى الحوادث خاصة وأن وارث العرش الفرنسى كان شقيق الملك الراحل.[1] الذى كان يعمل ضابطا فى خدمة الجيوش الأجنبية الموجهة ضد فرنسا مما دفع الفرنسيين إلى التقدم بدستور جديد ليضع حدا للغموض السائد حول نوع الحكم فى فرنسا، وقد نص فى بنوده على اعلان واجبات المواطن وحقوق الانسان ولم ينص على ان يكون على رأس الدولة ملك ولا رئيس للجمهورية ولا قنصل وانما لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء تحل محل لجنة الأمن العام، وهؤلاء الأعضاء يتبادلون الرئاسة كل ثلاثة أشهر، ويمارسون جميع السلطات التنفيذية فى الدولة، وتسقط عضوية واحد منهم سنويا بالاقتراع وقد عرفت هذه اللجنة باسم " حكومة الادارة" وبالنسبة للسلطة التشريعية فقد أوكلت إلى مجلس يضم خمسمائة عضو تسقط عضوية ثلثهم سنويا كما أنشئ مجلس للشيوخ من مائتين وخمسين عضوا لمراقبة أعمال مجلس الخمسمائة.

وخلال هذه الفترة برز اسم بونابرت لنجاحه فى قمع مظاهرة هدفها قلب نظام الحكم لحسن بلائه فى حصار طولون، وشجاعته فى واجهة المواقف الصعبة، واستعداده لتسلم السلطة بنفسه من حكومة الادارة التى أثبتت عدم قدرتها على مواكبة الأحداث.

---

[1] سيحكم فرنسا بعد ذلك باسم لويس الثامن عشر فى عام ١٨١٤.

الفصل العاشر

نابليون بونابرت وعصره

ولد بونابرت فى عام ١٧٦٩ فى مدينة "أجاكسيو" عاصمة "كورسيكا" الواقعة بين ايطاليا وفرنسا، واتجهت ميوله منذ حداثة سنه إلى الخشونة واعمال الحرب فبينما كان أخوته يشترون لعبا عادية ويرسمون على الجدران وجوها آدمية وحيوانات نراه يشترى بمصروفه سيفا صغيرا ونفيرا ويرسم على الحوائط صفوفا متراصة من الجند وكأنها فى حومة الوغى، وإلى جانب ذلك فقد برزت عليه حب الزعامة، فكان بونابرت يجمع رفاقه ويقسمهم قسمين يجعل نفسه على رأس أحدهما ويجعل على رأس الفريق الثانى أصلبهم عودا وقواهم بنية، ثم يأمر كل فريق بالهجوم على الآخر فتدور معركة بالأيدى والطوب والعصى وتظل ناشبة حتى يفر الفريق الآخر من أمامه، فيقف مزهوا يثنى على همة الشجعان من مجموعته وينهال بالضرب على فاتر العزيمة أو المقصر ثم يعود إلى منزله دامى الوجه واليدين ممزق الثياب فتنهره والدته فيتلقاها باسما بقوله لقد أنتصرت.(١)

وقد أظهر بونابرت تفوقا فى حياته الدراسية على أقرانه خصوصا فى علوم الرياضيات والتاريخ السياسى، وتراجم سير القادة الزعماء، والجغرافيا، وبرزت عليه علامات النباهة والذكاء، وبعد النظر والأضطلاع بالمسئوليات الجسام.

وقد واصل بونابرت تعليمه حتى التحق بمدرسة باريس الحربية فى أكتوبر ١٧٨٤م ، وهناك تفتحت عبقريته العسكرية حيث بدأ العمل فى صمت، واعتكف على المطالعة والدرس والاجتهاد، وكان مما قرأه وتحمس له كتاب " العقد الاجتماعى" لجان جاك روسو، والذى قال عنه " لولا روسو ما حدثت الثورة الفرنسية وبعد تخرجه عين برتبه ملازم فى سلاح المدفعية، فبرز تميزه بالجلد وقدرته على التنظيم، واستعداده لتحمل المسئولية والقيادة، وايمانه بأن الحق يؤخذ ولايعطى وكان بحكم تكوينه محبا للنظام والقانون ومعاديا للفوضى، ومن هنا وجدت فيه كل قوة تعين على التكاتف الاجتماعى عونا ونصيرا.

---

(١) حسن الشريف: المآسى التاريخية الكبرى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٦، ص ١١٩.

فلما قامت الثورة الفرنسية، كان بونابرت من اشد المدافعين عنها وعن أهدافها، كما كان من المتحمسين للفكر الجمهورى الثورى، ولأفكار أدباء القرن الثامن عشر أمثال فولتير ومونتسكيو وروسو.

وخلال أحداث الثورة، والصراع المرير فى فرنسا على السلطة ظهر طموح بونابرت الواسع، خصوصا بعد أن تزوج من جوزفين[١] التى فتحت أمامه أبواب الشهرة والمجد، وقد برزت مهارة بونابرت وقدرته على مواكبة الأحداث، وظهر ذلك أثناء حصار طولون فى عام ١٧٩٣م وتمكنه من الاستيلاء على هذه المدينة وتخليصها من يد الانجليز.

وعندما تم اختياره قائدا لقوى الأمن الداخلى فى فرنسا أثناء حكومة الادارة تمكن من اعادة الهدوء والنظام إلى فرنسا، واكتساب ثقة الجماهير، والقضاء على المظاهرة التى قام بها الملكيون والعناصر المحافظة ضد ألمؤتمر الوطنى، كما كان السند الحقيقى لهذه الحكومة ولدستور عام ١٧٩٥ يضاف إلى ذلك أنه تمكن من انقاذ الحكومة من العناصر الملكية فى عام ١٧٩٧.

ولما كانت فرنسا محاطة آنذاك بأعداء كثيرين خصوصا بعد تصريحات زعمائها باستعدادهم لتأييد كل أمة تطالب بحريتها، مما اعتبره البعض تهديدا مباشرا لدول أوربا الملكية مثل بريطانيا، وروسيا، وبروسيا فقد اعتبرت حكومة الادارة نفسها فى حالة حرب مع جيرانها خصوصا بريطانيا والنمسا، وشرعت فى رسم خططها لمحاربتهم، ونظرا لأن بريطانيا كانت محصنة بحريا، ولا يقوى الأسطول الفرنسى على الوصول إلى شواطئها، فقد تركزت الجهود لشن هجوم على الممتلكات النمساوية فى ايطاليا، فأرسلت حكومة الادارة عدة حملات إلى هذه المناطق فى عام ١٧٩٦ كانت أحداها تحت قيادة بونابرت الذى نجح فى أداء مهمته التى فشل القادة الآخرون فيها، ويرجع ذلك إلى قدرته الحربية الفائقة، ومهارته فى السياسة وتمكنه من اتخاذ القرارات فى الوقت المناسب وقدرته الواضحة على التمييز بين الممكن وغير الممكن فبعد أن وجد قواته أمام جيش مشترك من السردينيين والنمساويين تمكن من أن يعزل بينهما وينزل الهزيمة بالسردينيين ويفرض عليهم الهدنة التى انسحبوا بمقتضاها من الحرب متخلين عن سافوى ونيس لفرنسا ثم زحف على ميلانو، وانتصر على النمساويين فى عدة معارك أهمها معركة ريفولى، وتقدم بونابرت إلى الحصن النمساوى الرئيسى فى ايطاليا وهو حصن

---

[١] أرملة الجنرال بوهارنيه أحد ضحايا حكم الارهاب وكان لها منزلة كبيرة فى قلوب الفرنسيين.

"مانتوا" العظيم الذى كانت تحميه مدفعية قوية، وتحيط به البحيرات والمستنقعات من معظـم الجوانب، واستطاع الاستيلاء عليه.

ونتيجة لذلك اضطر النمساويون فى ١٧ مـن اكتـوبر ١٧٩٧ إلـى توقيـع صـلح "كامبوفورميو Compo Formio" وبمقتضاه تم التنازل لفرنسا عـن الأراضـى البلجيكيـة، وولاية الرأين، واقامة جمهورية فى شمالى ايطاليا وأعطيت معظم الجزر الايونيـة لفرنـسا، وهكذا نجح بونابرت فى اخراج النمسا من الحرب، وعزل بريطانيا التى بقيت فـى الميـدان وحدها مما زاد من ثقته فى نفسه، وجعله فى نظر الشعب الفرنسى رجل فرنسا الأول، وبانت للدنيا قيمة هذا البطل الذى برهن على مهارته السياسية إلى جانب راعته الحربية.

ولما أصرت حكومة الادارة على هزيمة بريطانيا قبل توقيع أى صلح معهـا أعـدت جيشا أطلق عليه جيش انجلترا، ودربته على غزو الجزر البريطانية، ولكن تفـوق الأسـطول البريطانى جعل ذلك المشروع ضربا من الخيال، ومن هنا أخذت حكومة الادارة تبحث عـن نقطة ضعف فى غريمتها،وخلال ذلك أرسل "بونابرت" إلى حكومة الادارة برقية يقـول فيهـا (لأجل القضاء على انجلترا ينبغى غزو مصر) وكان بونابرت يقصد بـذلك أن مـصر هـى المركز الخطير الذى يمكن عن طريقه تهديد مركز الانجليز فى الهند، وقد انتهـزت حكومـة الادارة هذه الفرصة لابعاد بونابرت عن مسرح الأحداث نظرا لما أصبح يتمتع به من شـعبية جارفة، ومن ثقة الجيش فى قدراته، فكلفت بونابرت باعداد حملة للاستيلاء علـى مـصـر، وطرد الانجليز من جميع ممتلكاتهم التى يستطيع الوصول إليها وقد سعد بونابرت بهذا التكليف الذى كان يحقق حلمه بانشاء امبراطورية فى الشرق، وأعد العدة لذلك فأخذ معه مـن غيـر العسكريين مجموعة من العلماء، ووصلت الحملة إلى مصر فى عام ١٧٩٨، وتمكن بونابرت خلالها من هزيمة المماليك، كما أذاع منشوره على المصريين، ولكن هذه الحملة كان مصيرها الفشل خصوصا بعد تحطيم الأسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير، وانقطاع سبل الاتصال بين الحملة وفرنسا، وقطع الامدادات عن قوات بونابرت، كما وجـد بونـابرت نفـسه منعـزلا ومضطرا إلى الاعتماد على موارد مصر التى أرهقها المماليك من قبل كما فكر فى ضـرب التحالف العثمانى الانجليزى، وتوسيع ممتلكاته وذلك بالزحف علـى سـوريا، ولكـن آمالـه تحطمت عند اسوار عكا، فانسحب إلى مصر مثقلا بأول هزيمة خلال قيادته لقواته.

ولما بلغته الأنباء من أوربا بهزائم بلاده وتدهور أحوالها، وتكوين تحالف دولى ضدها بزعامة بريطانيا، عقد العزم على مغادرة مصر إلى فرنسا وترك قواته تحت قيادة كليبر فبارح الاسكندرية سرا فى ٢٣ اغسطس ووصل إلى فرنسا فى ٩ اكتوبر ١٧٩٩. فكانت عودته بالنسبة للفرنسيين بمثابة عودة الأمل الضائع، ووصول الرجل المنتظر الذى يستطيع تصحيح أوضاع فرنسا، وانقاذها من الفوضى والاضطراب الذىحل بها فاستقبل بحماسة شديدة، وحفت به الجماهير من كل جانب حيث ذكر الناس انتصاراته خلال حروبه فى ايطاليا، وكان أمامه اولا التخلص من أعضاء حكومة الادارة بطريقين أما اغرائهم بالاستقالة أو استعمال القوة، ولما لم ينجح الحل الأول لجأ إلى القوة والعنف واستطاع الفوز بالسلطة بعد انقلاب بروميير[1] وأعلن عن نوع جديد من أنواع الحكم فى فرنسا وهو النظام القنصلى.

لقد كان بونابرت يعرف حق المعرفة أن النصر وحده هو الكفيل بأن يحفظ له المركز الذى فاز به.

ولما كان لابد من اعطاء هذا الانقلاب صفة الشرعية فقد جرى تعديل الدستور حيث وضع لفرنسا دستورا جديدا وهو الدستور المعروف بدستور ١٧٩٩م، وقد جاء هذا الدستور مطابقا لأفكار ونظريات بونابرت فى الحكم، ولرغبته فى الحكم الفردى، والتأييد الشعبى المطلق له، فجمع كل السلطات فى يديه حتى يتمكن من بناء فرنسا الحديثة، وقد جعل "بونابرت" نفسه مسئولا عن انقاذ فرنسا من فوضى الصراعات الداخلية والمخاطر الخارجية لذلك وضع نفسه فوق كل الأحزاب ومن هنا قضى الدستور الجديد بوضع السلطة التنفيذية فى يد ثلاثة قناصل يتم انتخابهم بواسطة مجلس الشيوخ، ويستمرون لمدة عشر سنوات، وقد تولى بونابرت مركز القنصل الأول على أن يساعده فى مهمته قنصلان آخران يقوم باختيارهما بنفسه، وكان دورهما يتركز فى القيام بدور نواب القنصل الأول. وفى ظل النظام القنصلى نعم الفرنسيون بحياة افضل، فأعيد الاستقرار وازدهر الاقتصاد، وتم تنظيم الجيوش، وأعيد الرخاء

[1] بروميير معناه شهر الغيوم، وهو أحد الأشهر المتعارفة لدى رجالات الثورة الفرنسية بعد أن غيروا اسماء الشهور كلها، وسموها باسماء اخرى جاعلين يوم ٢٢ سبتمبر بدء العام وهو تاريخ المناداة بالجمهورية. أما عن أسماء الشهور فقد قسموها على شهور السنة الأربعة كل فصل ثلاثة شهور، يتكون كل شهر من ٣٠ يوما فشهور الخريف كانت شهر المعاصر، وشهر الغيوم، وشهر الجليد وشهور الشتاء تكونت من شهر الثلج، وشهر المطر، وشهر الرياح وشهور الربيع هى شهر النبات، وشهر الزهر، وشهر الحقول وشهور الصيف كانت شهر المواسم، وشهر الحر، وشهر الأثمار وكان يضيفون بعد شهر الأثمار وهو آخر شهور السنة خمسة أيام فى السنيين غير الكبيسة، وستة أيام من السنيين الكبيسة وتدعى هذه الأيام تكملة. وقد ظل هذا الحساب مستعملا فى فرنسا حتى نهاية عام ١٨٠٥.

لكل مرافق الدولة، وإلى جانب ذلك فقد تقرر أن يتولى وضع القوانين فى فرنسا ثلاث هيئات هى:-

١- مجلس الشيوخ المحافظين ويتكون من ستين عضوا يختارهم القناصل وتنحصر مهمـتهم فى الاشراف على تطبيق أحكام الدستور، وانتخاب اعضاء مجلس التربيـون والجمعيـة التشريعية.

٢- مجلس التربيون ويضم مائة عضو مهمـتهم دراسـة مـشروعات القـوانين المقترحـة ومناقشتها.

٣- الجمعية التشريعية وتضم ثلاثمائه عضو ومهمتهم الادلاء باصواتهم بشأن المقترحات التى ترد إليهم من مجلس التربيون.

ولما عرض هذا الدستور على الشعب وافق عليه بأغلبية ساحقة، وعلى الرغم من أن هذا الدستور وضع كل السلطات فى يد بونابرت تقريبا، فقد وفر للفرنسيين حياة مستقرة كمـا أن ثقة الفرنسيين فى شخصه والآمال العريضة التى علقوها عليه جعلتهم يعطونه كامل ثقتهم، بمعنى أن بونابرت الذى سلب من الشعب الفرنسى سلطانه السياسى، منحه نعمة المساواة بين طبقاته، كما فتح أمامه أبواب التقدم إلى أرقى المناصب وكان من أبرز المـشاكل التـى أراد بونابرت حسمها هى كسر شوكة أعداء فرنسا وهزيمتهم خصوصا النمسا وبريطانيا بعـد ان تطاولوا على بلاده فى غيابه فقد هاجم النمساويين الذين كانوا قد أعادوا احتلال ايطاليا، وانزل بهم هزيمة ساحقة وأعاد بذلك سيطرته على ايطاليا، ونجح فى تحطيم التحالف الأوربى الثانى ضد بلاده، وقد أثارت أخبار هذا النصر موجة عارمة من الحماس داخـل فرنـسا أدت إلـى توطيد نفوذ بونابرت السياسى.

وبذلك وقفت بريطانيا وحدها فى الميدان، وقد حاول بونابرت تأليف قوة بحرية كبيرة فى البلطيق مكونة من الدنمارك والسويد وبروسيا والروسيا فـى ديـسمبر ١٨٠٠ اسـتعدادا لمحاربة بريطانيا، ولكن الانجليز تمكنوا من تدمير هذه القوة بهزيمتهم للأسطول الـدنماركى، وخلال ذلك مات قيصر الروسيا مما أدى إلى انفراط عقد التحالف.

ولما اتضح للطرفين ان الحروب لم تنته بينهما بسهولة ونتيجـة لتعـرض بريطانيـا لمشاكل داخلية صعبة ولشعور بونابرت بأهمية الوصول للتفاهم مع بريطانيا حتى يتمكن مـن

تأكيد سيطرته على أوربا كل ذلك ساعد على قناعة الطرفين بوضع حـد للـصراع بينهمـا وبضرورة اللجوء إلى المفاوضات وانتهى الأمر بعقد صلح أميان Amiens فى ١٧ مـارس ١٨٠٢ والذى تناولت فيه انجلترا عن كل الفتوحات التى كسبتها على حساب فرنسا وكان أهم نصوصه ما يلى:-

١- اعتراف بريطانيا بحدود فرنسا الطبيعية.

٢- اعتراف بريطانيا بضم فرنسا لبلجيكا، وقسم من هولندا واراضى الضفة اليـسرى لنهـر الراين.

٣- بقاء النفوذ الفرنسى فى ايطاليا.

٤- تنازل بريطانيا عن جزيرة مالطة لأصحابها الشرعيين.

٥- تنازل بريطانيا عن المستعمرات التى أخذتها من فرنسا فى هولندا وأسبانيا.

٦- تعهد فرنسا بالانسحاب من مصر واعادتها للعثمانيين وبالجلاء عـن نـابلى والأراضـى البابوية.

وهكـذا أعطى هذا الصلح مكاسب ضخمة للفرنسيين، وجاءت نصوصه متفقـة مـع الأمر الواقع باستثناء تعديلات بسيطة، وإذا كان البعض قد اعتبر هذا الـصلح بمثابـة نهايـة لعصر الحروب بين بريطانيا، وفرنسا فانه فى الحقيقية لم يكن سوى هدنة مؤقتة بين الطرفين.

هذا عن المكاسب الخارجية التى جلبها بونابرت لبلاده، أما عن المكاسب الداخلية فقد عمل بونابرت على ارضاء جماهير الشعب الفرنسى مقتنعا بأن الاتحاد اساس العظمة القومية وأنه سر النظام الاجتماعى، فعمل على ايجاد اتفاق بين فرنسا والكنيـسة. وبعـد مفاوضـات طويلة أمكن التوصل إلى اتفاق "الكنكردات" فى ١٦ يوليو ١٨٠١م. فى عهد البابـا " بيـوس السابع" وبمقتضاه اعترفت فرنسا بالكنيسة الكاثوليكية وسيادتها الروحية مع السماح للـسلطات الحكومية بالتدخل لفرض النظام والأمن بالقوة إذا اقتضى الأمر، وفى مقابل ذلـك اعترفـت البابوية بالقوانين التى صدرت فى عهد الثورة الفرنسية والخاصة بالكنيـسة علـى أن تقـوم الحكومة الفرنسية بدفع مرتبات رجال الدين، ويقوم القنصل الأول بتعيين الأسـاقفة علـى أن يوافق البابا على ذلك التعيين.

وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقية اعتبرت تنازلا عن أحد مكاسب الثورة، فقد كان بونابرت أبعد نظرا، حيث ارضى جماهير الفلاحين الذين كانوا يرغبون فى التمسك بضرورة التقرب من الكنيسة. كما أنشأ بونابرت نظاما قوميا للتربية والتعليم، واهتم بالتعليم الفنى.

يضاف إلى ذلك أن أهم انجازات بونابرت الخالدة وأهمها كانت وضعه للقانون المدنى الفرنسى حيث شكل من أجل هذا الغرض لجنة تضم أكبر المشرعين الفرنسيين وقد وُضع بونابرت فى هذا القانون آراءه ونظرته للحياة والمجتمع من حيث تقديس سلطة الأب على أسرته، كما اعترف هذا القانون بالزواج المدنى وأبقى على الطلاق، وضمن جميع الحريات مثل حرية الفكر والقول والعقيدة والعمل، وقد عرف هذا القانون باسم قانون نابليون وتم اصداره فى عام ١٨٠٤.

ويعتبر هذا القانون من اشهر الموسوعات القانونية فى العالم من حيث التركيز على المساواة الاجتماعية والتسامح الدينى واحترام الحياة العائلية والملكية الخاصة وبمقتضاه نعمت فرنسا بتثبيت سلطة الأب فى مجال الأسرة كما تمتع الشعب الفرنسى بحق الملكية الخاصة وبحياة حرة مستقيمة فى ظل اطار تشريعى سليم، وإلى جانب ذلك أهتم بونابرت بقضايا التعليم، وعمل على ايجاد الحلول المناسبة لها وخاصة فى التعليم الثانوى والجامعى، وانشأ مدارس ثانوية رسمية تمولها الدولة واهتم بالتعليم الفنى كما أنشا جامعة رسمية فى عام ١٨٠٨م تدار مباشرة من قبل الدولة ويتعلم فيها الطلاب سائر ألوان العلوم والمعرفة وأناط بها الاهتمام بالثقافة والفنون والآداب وتشجيع روح الدقة العلمية فى الادارات والمصالح الحكومية.

كل هذه الاصلاحات جعلت للقنصل الأول بونابرت من الشعبية ما جعل الفرنسيين ينادون به قنصلا مدى الحياة، ثم امبراطورا لفرنسا على أمل أن يمنح بلاده التى انهكتها الحروب السلام والرفاهية، ولكن كل هذه الآمال قد تبددت نظرا لأن سياسة نابليون كانت دائما تثير مخاوف منافسيه وخاصة بريطانيا.

ونتيجة لرضاء الشعب الفرنسى عن أعمال بونابرت تقدم البعض باقتراح تجديد مدة قنصليته لفترة أخرى تبلغ عشر سنوات عرفانا بفضله فى اقرار السلام، والاصلاحات الداخلية التى أسعدت شعبه.

ورغبة فى استئثار بونابرت بالانفراد بدفة الحكم تم تعديل هــذا الاقتــراح بتجــاوب منقطع النظير من قبل الشعب الفرنسى ومجلس الشيوخ فتولى بونابرت القنصلية مدى الحيــاة كما أدخلت بعض التعديلات على الأجهزة الدستورية بحيث أصبحت فرنسا تعيش فــى ظــل حكومة فردية، وظلت شعبية بونابرت فى ازدياد خصوصا بعد أن ازدادت المؤامرات ضـــده واستمرت كراهية أوربا ولاسيما بريطانيا له ونتيجة لذلك أعلنت فرنسا عــن ثقتهــا التامــة ببونابرت ومنحته لقب امبراطور الفرنسيين فى ١٨ من مايو ١٨٠٤ وذلك بعد صدور قــرار من مجلس الشيوخ، وبعد استفتاء حصل فيه على اغلبية الأصوات، ولما كانت علاقة فرنــسا بالبابوية فى ذلك الوقت طيبة فقد حضر البابا "بيوس التاسع" من كرسيه بروما إلــى بــاريس ليتوج نابليون وزوجه جوزفين فى كنيسة نوتردام، وفى حفل مهيب اختطف نابليون التاج من يد البابا وتوّج نفسه بنفسه كما توج جوزفين أيضا ثم أقسم يمــين الامبراطورية. واســتمر امبراطورا حتى عام ١٨١٥ كان خلالها أكبر شخصية سياسية وعسكرية فى أوربــا، ومــن عمالقة التاريخ الذين يشار إليه بالبنان.

نعود إلى الظروف الخارجية التى أحاطت بفرنسا خلال هذه الفترة فنقــول أن صــلح "أميان" بين الفرنسيين والانجليز لم يستمر طويلا إذ سرعان ما اندلعت نيران الحرب من جديد بين فرنسا وبريطانيا، ثم بين فرنســا وأعضاء الحلف الثالث الأوربى[١] فقد قطعت العلاقــات بين بريطانيا وفرنسا فى مارس ١٨٠٣ على أثر القاء نابليون القبض على بعض الانجليز ثــم اندلعت نيران الحرب التى لم تقتصر على الدولتين المتنافستين بل حاولت كل منهما ربط دول أوربا بتحالفات معها لدرجة أن انغمست معظم هذه الدول تقريبا فى هذا الصراع.

وفى أعقاب ذلك أعاد نابليون احتلال نابولى وحول ايطاليا إلى ملكية وراثية يحكمهــا ابن زوجته يوجين، وأرسل جيشا إلى هولندا، وتوغلت قواته فى المانيا واستولت على هانوفر التى كانت تحت التاج البريطانى مما أدى إلى اضطرار الولايات الالمانية إلى محالفته، كمــا وضع أمراءها أنفسهم تحت حمايته. وإلى جانب ذلك حاول نابليون جر روسيا وبروسيا إلــى محالفته ولكنه لم ينجح فى ذلك.

---

[١] كان يتكون من بريطانيا وروسيا، والنمسا، والسويد، وبروسيا.

ونتيجة لاقتراب موعد المواجهة فكر نابليون فى توجيه ضربة إلى بريطانيا عن طريق غزوها وقهرها فى عقر دارها[١] وأخذ فى اعداد العدة لذلك خصوصا بعد وقوف أسبانيا إلىجانبه، ولكن سرعان ما اتضح له أن النجاح لايمكن أن يكون من نصيب خطته وذلك لقوة البحرية البريطانية، وصعوبة السيطرة على المانش وخاصة بعد قيام الأسطول الانجليزى بقيادة نلسن[٢] بمباغته الأسطول الفرنسى عند "الطرف الأغر" وهزيمته. مماُ أكد قوة الأسطول الانجليزى أمام منافسه.

وكرد فعل لذلك، وخشية من عواقب الأمور وجه نابليون قواته إلى المانيا حيث احرزت انتصارات رائعة على الجيش النمساوى فى أولم Ulm فى المانيا، فى ٢٠ من اكتوبر ١٨٠٥، أى بعد معركة "الطرف الأغر" بيوم واحد فقط، كما تمكن الفرنسيون من احتلال فينيا، وهزيمة جيشا روسيا نمساويا مشتركا فى معركة "اوسترلتز" التى يسميها بعض المؤرخين " موقعة الاباطرة الثلاثة". هذا إلىجانب هزيمتهم للبروسيين فى موقعة " جينا" ١٨٠٦ والوصول إلى برلين، ولما لجأ "فردريك وليم الثالث" طالبا حماية الروسيا، قام نابليون بتأديب القيصر "اسكندر الأول" وهزم الروس فى موقعة "فريدلند" ونتيجة لذلك طلب القيصر الصلح فعقد صلح "تليست Tilsit" فى يوليو ١٨٠٧، وبمقتضاه تخلت بروسيا عن أملاكها غرب نهر الألب، كما اعترف القيصر بالتغيرات التى أحدثها نابليون فى المانيا، وتعهد بالانضمام إليه فى تنفيذ الحصار القارى على بريطانيا، وفى نظير ذلك تعهد نابليون بمساعدة القيصر فى تحقيق مطامعه فى فنلنده وتركيا. كل ذلك دفع نابليون إلى ان يوجه كل جهوده ضد بريطانيا التى كانت العقبة الكئود أمام كل أطماعه، ولما كانت هزيمة الانجليز فى البحر فى حكم المستحيل فقد اتخذ الصراع مع بريطانيا طابعا جديدا كان له أعمق الأثر فى تغيير مجرى الحوادث فى أوربا فقد رأى نابليون أن قوة انجلترا تكمن فى صادراتها وبأن دول أوربا هىسوقها الرئيسى وأنه من الممكن بعد ان بسط نابليون سلطانة على أوربا محاصرة بريطانيا اقتصاديا بأن يفرض عليهاحصارا قاريا عن طريق أقصاء السفن الانجليزية عن

---

[١] جرانت، ص ٢٠٨.

[٢] من المعروف ان القائد "نلسن" هو الذى حطم الأسطول الفرنسى أيضا فى موقعة أبى قير البحرية ١٧٩٨، ولكنه لقى مصرعه هذه المرة

جميع موانئ أوربا مما يجعل الانجليز يموتون جوعا ولذلك أصدر "مرسوم برلين" ١٨٠٦ والذى يقضى بفرض حالة حصار دائم على جميع الثغور البريطانية وتحريم كل أنواع التجارة بينها وبين الأراضى التى تخضع لحكم نابليون أو نفوذه، كما حرمت السفن البريطانية من دخول ثغور فرنسا أو حلفائها والا تعرضت للأسر وردت الحكومة البريطانية على ذلك باتهام فرنسا بالخروج على تقاليد الحرب وضربت بريطانيا الحصار على الأراضى والأملاك الفرنسية.وهكذا أقصى نابليون بقوته البحرية بريطانيا عن التجارة مع أوربا فعزلت بريطانيا ببحريتها أوربا الفرنسية عن التجارة مع بقية العالم، ومما لاشك فيه ان بريطانيا قد تأثرت من هذا الخطر الذى سمى بالنظام القارى فقد تفشت البطالة وكسدت التجارة وكثرت حالات الافلاس غير أنه وان كانت للأسواق الأوربية أهمية بالنسبة لبريطانيا فان باقى العالم كان مفتوحا[١] مما جعلها تصمد أمام هذا الحصار بشكل لم يتوقعه نابليون وكان أسوا نتائج نظام نابليون القارى من نصيب الدول الأوربية الواقعة تحت السيطرة الفرنسية فقد وجدت هولندة[٢] فى هذا النظام قضاءا تاما على حياتها التجارية ولم تلق شكواها آذانا صاغية كما وجدت الدول الأخرى الحليفة لفرنسا أن فى تطبيق الحصار القارى على انجلترا ضررا كبيرا يمكن أن يؤدى إلى موت شعوبهم جوعا.

كل ذلك جعل هذه الدول تفكر فى الخروج على هذا الحصار، مما سبب لنابليون كثيرا من المتاعب وكانت البرتغال هى أولى الدول التى خرجت عنه خصوصا وأن حياتها **الاقتصادية تعتمد فى المقام الأول على التجارة مع بريطانيا وحتى لا تحذو الدول الحليفة لفرنسا حذو البرتغال اسرع نابليون بارسال حملة إلى أسبانيا فى محاولة لتأديب البرتغال، مما آثار الشعور القومى وكان ذلك فاتحة نهاية عصره حيث أصطبغت هذه الحرب بصبغة تختلف** تماما عن كل الحروب الأخرى حيث لم تقتصر الجيوش الفرنسية على محاربة الحكومات وجيوشها النظامية بل أصبحت فى مواجهة الشعوب التى أخذت تضطلع بدور تلقائى فى **محاربة الغزاة. فالجيوش الفرنسية التى لم تهزم من قبل على ايدى جيوش نظامية قبل عام ١٨١٣ أصبحت تواجه جيوشا شعبية فى أودية اسبانيا وجبال التيرول مما أنهك قواها بدرجة كبيرة وأدى إلى بث الرعب بين أفرادها، وأوقعها فى ورطة لم تكن فى حسبانها.**

---

(١) جرانت ، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) كانت يحكمها وقتئذ لويس بونابرت.





نابليون مع ملكة بروسيا في تلست

يضاف إلى ذلك تورط نابليون باصطدامه مع الشعور الديني فى أوربا خصوصا بعد أن قـام فى مايو ١٨٠٨ بضم أملاك البابا إلى فرنسا ورد البابا على ذلك بحرمانه من غفران الكنيسة، مما جعل نابليون يأمر بالقبض على البابا وسجنه فى بلده قريبة من مدينة جنوة ممـا أثـار ثائرة الشعوب الكاثوليكية ضده، وجعل البابا يرفض تثبيت الأساقفة المعينين فى فرنسا من قبل نابليون مما تسبب فى جعل ٢٧ أسقفية شاغرة فى فرنسا. وكان رد نابليون علـى ذلـك هـو اصدار قرار يخول لرؤساء الأساقفة حق تثبيت اساقفة فرنسا وأعطائهم السلطة الروحية طالما أصر الباب على عناده.

ونتيجة ذلك ظهرت بارقة الأمل فى امكان تحرر أوربا من سيطرة نابليون. لقد دفعت العاطفتان الرئيستيان عند الشعب الأسبانى وهما الدين والعزة القومية إلى مقاومة الفرنـسيين بعناد، وراحت الأقاليم والمدن الأسبانية تعلن تلقائيا رفضها لحكم نابليون، وأعلنـت بريطانيـا استعدادها لتقديم المعونة لكل من أسبانيا والبرتغال، وتمكن الاسبان من الحـاق أول هزيمـة جدية بجيوش نابليون عند " بايلان Baylen" وأرغموها على اخلاء مدريد كما أجبـروا أحـد القادة الفرنسيين على التسليم بقواته المكونة من ٢٣ الف جندى مما شحذ الهمم وأثار دهـشة أوربا وكان فاتحة عهد جديد لها. كل ذلك اضطر نابليون إلى الحضور بنفسه لتـولى زمـام الأمور ورد هيبة الجيوش الفرنسية فاحتل مدريد وبطش بأهلها حتـى دانـت لـه العاصـمة الأسبانية. ولكن ذلك لم يستمر طويلا حيث بدأ الاسبان حروبهم غير النظامية بطريقة ملفتـة للانظار خاصة بعد أن اظهر الرهبان والزراع منهم قدرة خارقة فى الدفاع عن بلادهم.(١) مما استنزف القوات الفرنسية، وجعل حروب اسبانيا بالنسبة لهم وكأنها السرطان الذى يـستنزف قواهم، ونتيجة لذلك لعبت الروح القومية بين الأوربيين دورهـا، فبـادرت أوربـا بمـساعدة اسبانيا، والانقضاض على حكم نابليون، كما انتهزت بريطانيا الفرصة فأرسلت جيـشا إلـى البرتغال لمساعدة الاسبان والبرتغاليين فى دحر القوات الفرنسية. كما واتت اوربـا الفرصـة للتخلص من الحصار القارى الذى فرضه نابليون عليها والذى أدى إلى الركـود الاقتـصادى وخفض مستوى المعيشة فحاولت النمسا فى عام ١٨٠٩ استفزاز القوات الفرنسية مما أدى إلى اعلان نابليون الحرب على النمسا، ومع أن القوات النمساوية أظهرت مقاومة مستميتة، فانهـا

(١) جرانت: المرجع السابق، ص ٢٣٩-٢٤٢.

لم تستطع الصمود أمام القوات الفرنسية، فسرعان ما حلت بها الهزائم وفتحت أبواب "فينا" أمام نابليون فى مايو ١٨٠٩.

وإلى جانب ذلك بدأت بروسيا استعدادتها لخوض غمار حرب التحرير كما أخذ الرأى العام الأوربى يتجه إلى مناوأه نابليون بصورة متزايدة، وأخذ الشعور القومى فى أوربا يقوى ويتزايد، وظلت الحرب الاسبانية مستعرة الاوار. وقبل ان يتمكن نابليون من اخماد هذه الحركات جاءه من الشرق خطر اشد فقد قرر قيصر الروسيا الانسحاب من الحصار القارى واستئناف علاقات بلاده مع بريطانيا مما أدى إلى فرط عقد التحالف بينه وبين فرنسا وبداية الاحتكاك مع نابليون الذى جهز جيشا قوامه ستمائة ألف مقاتل لغزو روسيا، وكانت خطة القيصر لمواجهة هذا الغزو تتركز فى استدراج الفرنسيين إلى داخل بلاده دون الاصطدام بهم فى معركة فاصلة ولتحقيق ذلك أمر جيوشه بالتقهقر أمام القوات الفرنسية، واخلاء المدن والقرى من الزاد والعتاد والسكان قبيل استيلاء الفرنسيين عليها، مما شجع القوات الفرنسية على التوغل فى الأراضى الروسية رغبة فى اللحاق بها وهزيمتها واجبار القيصر على الصلح وبعد أن زحفت القوات الفرنسية إلى موسكو وتوقعت الظفر، وجدت أن أحلامها قد باءت بالفشل حيث وجدت موسكو قاعا صفصفا إذ هجرها سكانها بعد أن احرقوا كل ما كان فيها من مؤن وجياد. ولما حاول بونابرت التفاوض مع قيصر الروسيا وعقد اتفاق للصلح رفض القيصر طلبه. ونظرا لضراوة الأحوال الجوية وقسوة شتاء موسكو اضطرت القوات الفرنسية إلى الارتداد والانسحاب من روسيا فى ١٩ من اكتوبر على أمل أن تعود إلى بلادها سالمة، ولكن القائد الروسى " كوتوزوف" سد الطرق أمامها وجردها من كل امكانات الحياة، فنزلت بها مصائب الجوع والمرض والبرد، والهلاك، ونتيجة ذلك خسر الجيش الفرنسى الآلاف من جنوده فى أكبر كارثة حاقت به لدرجة أن قدرت خسائر نابليون على الجبهة الروسية بحوالى ١٧٠ الف قتيل.

ونتيجة للانباء الواردة من موسكو والخسائر التى منى بها نابليون وجدت الدول الأوربية الرازحة تحت حكم نابليون الفرصة للتنفيس عما يجيش فى صدرها ضده، فسرت فى النفوس روح المقاومة وسرعان ما انضمت بروسيا والروسيا والولايات الألمانية الوسطى والشمالية لمواجهة قوات نابليون، وعلى الرغم من خطورة موقف نابليون فانه لم ييأس بل أخذ فى استعادة قواه بعد نكبته فى روسيا ودعا الشعب الفرنسى إلى بذل النفس والنفيس دفاعا عن

امجاد فرنسا حتى وصل عدد جنوده إلى ما يقرب من النصف مليون، وخـلال ذلـك حـاول نابليون أن يفرض على أوربا الصلح بنصر مؤزر، وكان يأمل فى ابقاء بروسيا والنمسا إلـى جانبه، ولكن الشعب الروسى أرغم مليكه فردريك وليم على الامتناع عن مساعدة الفرنـسيين، والانضمام إلى قيصر الروسيا حتى يتم القضاء على سلطان نابليون فى أوربا، وفعلت النمـسا ما فعلته بروسيا، ومع كل ذلك استطاع نابليون أن يهزم البروسيين والروس فـى معركتـى "لتزن" و"بوتزن" ولكن هذه الانتصارات لم تكن لها فاعليتها حيث أن اوربا قد تغيرت ودبـت فيها الـروح القومية فتراجع الحلفاء المنهزمين شرقا، ونظموا صفوفهم اسـتعدادا لمعـارك أخرى، وجمعوا ما يقرب من مليون رجل وقرروا استنزاف قوى نابليون بالدخول مع قواتـه فى سلسلة من الهجمات غير الحاسمة، ولما حاول نابليون عقد الهدنة مع خصومه طلبوا منـه عودة أملاكهم إليهم فرفض وقرر نابليون أن أعداءه يستعدون إلى مهاجمتـه فـسبقهم إلـيهم وأحرز نصرا كاملا ولكن ضباطه فشلوا فى تعزيز خططه. وفى ١٦ اكتـوبر ١٨١٣ بـدأت معركة ليبزج Leipzing" أو " حرب الأمم" ودار القتال فيها طوال ثلاثة أيام ولم يكن كله فى صالح الحلفاء فقد بلغت الخسائر حوالى ١٣٠,٠٠٠ رجل منهم حوالى ٥٠,٠٠٠ من الفرنسيين وفر هو والباقين من رجاله إلى الراين بعد أن فتك المرض بأفراده فتكا ذريعا وسـرعان مـا استسلمت الحاميات التى تركها نابليون وراءه فى المانيا وعددها حوالى ١٩٠,٠٠٠ رجل فلـم يبق أثر لسلطان نابليون شرقى الراين، وكانت الجيوش الفرنسية قد سحبت كلها تقريبـا مـن أسبانيا وأصبح على فرنسا أن تواجه أهوال الغزو التى أذاقتها للعديد من بلدان أوربا وكانـت فرنسا قد سئمت الحرب ونضب معينها من الرجال ولحق الخراب بتجارتها وتجاسر الـبعض على النطق مرة أخرى بشعارات الثورة ورأى الملكيون أن الفرصة سانحة لعودة آل بربـون إلى الحكم، ومع ذلك ظلت هناك طائفة تنظر إلى نابليون نظرة تقدير إذ كان يمثـل فـى رأى الكثير من الفرنسيين رمز الدفاع عن أرض الوطن، وخلال ذلك الوقـت العـصيب بالنـسبة لفرنسا تجلت عبقرية نابليون العسكرية كقائد استراتيجى يمتلك قوة خارقة، واعصاب حديديـة استطاع أن يحيل الهزيمة إلى نصر ويلحق بقوات الحلفاء الهزيمة على أرض فرنسا مـرتين ونتيجة لذلك اصبح نابليون شخصية شعبية من جديد، وهب الفلاحون فى أقاليم كثيـرة مـن فرنسا يحملون السلاح، ودارت مفاوضات بقصد تسوية الأمور ولكن الآمال سرعان ما تبددت

ولم يبق مفر سوى الاستمرار فى الحرب.(١)وأظهر نابليون جسارته المعهودة، وأحرز الكثير من النجاح ولكن مركزه بدأ يتزعزع خصوصا وأن قواته كانت تعانى الكثير من الأرهاق ولم تكن باريس على استعداد لتحمل ضربات العدو او رده على اعقابه على حين كـــان اعـــداؤه يملكون احتياطيا ضخما من العتاد والرجال، وبدأ الحلفاء يتقدمون نحو باريس، وهم يعلنـــون أنهم لا يحاربون الشعب الفرنسى وانما يحاربون نابليون ومع ذلك فقد دافع الشعب الفرنـــسى عن بلاده دفاعا مجيدا، وتبادلت القوات المتحاربة الانتصارات والهزائم، وفقد الطرفان الكثير من الأرواح، وفى نهاية الأمر تمكن الحلفاء من دخول باريس فى مارس ١٨١٤.

وعلى الرغم من ذلك فقد راودت نابليون فكرة المقاومة ومواصلة الحرب من خـــارج باريس ولكنه سرعان ما غير موقفه خاصة بعد ان وجد ان قواته قد سئمت القتال وان الروح المعنوية بين أفرادها آخذة فى الانهيار؛ فوقع فى ٦ من ابريل ١٨١٤ وثيقة تنازله عن العرش لابنه على ان يكون تحت وصاية زوجته "مارى لويز"،(٢) ولكن الحلفاء رفضوا ذلك، وطلبـــوا من نابليون التنازل عن العرش دون قيد أو شرط، ونتيجة للضغوط المتزايدة وقع نابليون وثيقة التنازل، وفحواها انه نظرا لأن الدول المتحالفة أعلنت أن الامبراطور نـــابليون هـــو العقبـــة الوحيدة فى طريق اعادة اقرار السلم فى اوربا فان الامبـــراطور وفاء منه لليمين الـــذى أداه يعلن تنازله هو وورثته من بعده عن عرش فرنسا وايطاليا.

ونتيجة لذلك أبرمت الدول المتحالفة اتفاقا مع حكومة فرنسا ينص على نفى نـــابليون إلى جزيرة "البا" Elba بالقرب من سواحل ايطاليا.(٣) على أن يقوم بحكم هذه الجزيرة وتكون ملكا له يقيم بها ولا يغادرها على أن تكون خاضعة لسيادته سياسيا واداريا ويتبعه اليها جـــيش صغير مؤلف من اربعمائه جندى يختارهم من بين فرقة الحرس الامبراطورى، وثلاثة قـــواد وقررت له مليونين من الفرنكات كنفقة سنوية تقدمها إليه الحكومة الفرنسية.

وقد حل نابليون بمنفاه فى الرابع من مايو ١٨١٤، حيث استقبله أهل الجزيرة بمظاهر العطف والترحاب ومع أن سقوط نابليون قد أدى إلى تسوية العديد من المشاكل فانـــه أوجـــد مشكلة جد خطيرة وهى: من الذى يحكم فرنسا من بعده، واخيرا استقر الرأى على عودة أسرة

---

(١) جرانت، ص ٢٦١-٢٦٣.

(٢) بعد ان طلق نابليون زوجته جوزفين تزوج من الارشيدوقة مارى لويز ورزق منها ولـــد ذكـــرا فـــى ٢٠ مارس ١٨١١.

(٣) جزيرة صغيرة تقع على الشمال الشرقى من جزيرة كورسيكا وكانت من املاك ايطاليا.

آل بربون إلى عرش فرنسا متمثلة فى شخصية لويس الثامن عشر[1] على أن يكــون حكمــه دستوريا، ونتيجة لذلك عاد الحكم الملكى إلى فرنسا فى مايو ١٨١٤.

كما تم الاتفاق بين الحلفاء فى مؤتمر فينا فى سبتمبر ١٨١٤ على عودة فرنــسا إلــى حدودها قبيل الثورة، يضاف إليها بعض البقاع عند حدودها الشمالية والشرقية مما يوضح أن الحلفاء لم يكونوا متشددين فى حكمهم نحو فرنسا خاصة وأنهم كانوا يرغبون فــى اســتقرار وعودة السلام إلى أوربا، ورغم كل ذلك فقد انتهز نابليون فرصة اختلاف الحلفاء فيما بيــنهم على تقسيم الغنائم، وعاد إلى فرنسا وسط ترحيب السواد الأعظم من الشعب الفرنسى بمقدمــه وفى مقدمتهم رجال جيشه مما اضطر الملك والنبلاء إلى مغادرة البلاد.

وبعد أن تجمع حول نابليون جيشه القديم دخل باريس فى ٢١ مــن مــارس ١٨١٥م وأخذ فى اعادة تنظيم قواته ثم توجه إلى جبهة القتال فى ١٢ من يونيو هادفا إلى توجيه ضربة قوية إلى القوات البريطانية والبروسية قبل أن يتمكنا من حشد قواتهما،واحرز نصرا محسوسا ضد البروسيين فى "لينى".

ونتيجة لذلك أوقف الحلفاء أعمال مؤتمرهم، وأعلنوا ان نابليون رجل معزول لايحميه قانون، وتحالفوا فى التخطيط لحرب بهدف القضاء عليه، وقرروا غزو فرنسا مــرة أخــرى، فقابلهم نابليون فى معركة " ووترلو Waterloo" فى ١٨ يونيو حيث دارت معارك ضــارية مزق فيها المتحالفون آخر من تبقى من جيوش نابليون فقد أصيبت قوات نابليون بهزيمة قاسية راح ضحيتها أكثر من ثلاثين الف قتيل وعلى اثر ذلك استسلمت بــاريس للحلفــاء، وحــاول نابليون الفرار إلى أمريكا، ولكن الانجليز تمكنوا من القبض عليه، وقاموا بنفيه إلــى جزيــرة القديسة "هيلانة" فى جنوب المحيط الأطلسى تلك الجزيرة النائية السحيقة الجرداء فــى وســط المحيط حيث قضى السنوات الست الأخيرة من حياته يقاسى آلام التعنت من حاكمهــا الــسير "هدسون لاو" الذى كانت مهمته الاجهاز على الامبراطور والتنكيل به، فتخير لسكن نــابليون منزلا حقيرا أكلت الرطوبة بياض جدرانه، واتخذت الجرذان جحورها فى زوايــاه وأركانــه فكانت إذ جن الليل تخرج لترتع فوق سريره وتأكل كتبه وأوراقه، ولم يدع فرصــة للتنكيــل بنابليون الا واغتنمها حتى مات الامبراطور المريض فى ٥ مايو ١٨٢١ وحيدا شريدا مجردا

---

[1] شقيق لويس السادس عشر، علما بأن لويس السابع عشر ابن مارى انطوانيت قد توفى فــى ســجنه اثنــاء الثورة.

من أبسط الحقوق الانسانية، ودفن فى نفس الجزيرة وأقيم حول قبره جنود لحراسة بقايا الميت الذى بلغ من احتقار حاكم الجزيرة له انه لم يأذن فى كتابه اسم نابليون على القبر مع أنه الرجل الذى ظل أسمه يرهب أوربا كلها حتى بعد وفاته.

وإلى جانب ذلك فقد ظلت بقايا أموال نابليون ووصيته فى حيازة الحكومة الانجليزية التى رفضت ان تسلمها لفرنسا.

وهكذا انتهت قصة حياة أحد عباقرة أوربا العسكريين وأكثر الشخصيات تأثيرا فى مجرى تاريخ أوربا، القرن التاسع عشر بعد أن قدم لبلاده كل ما يملك من جهود ليس فقط فى النواحى العسكرية بل فى النواحى السياسية والعلمية والادارية والتشريعية وغيرها.

وقد عبر نابليون عن ذلك فى مذكراته أبلغ تعبير حيث قال" أن الذى لم يمح أبدا هو قانونى المدنى، ومحاضر مجلس دولتى، ومكاتباتى مع وزرائى ، فقانونى ببساطة جلب الخير أكثر مما جلبت القوانين السابقة، ومدارسى والطرق التى ابتكرتها للتعليم أوجدت جيلا جديدا، كما نقصت الجرائم فى عهدى وزادت فى انجلترا.... وقد أردت تأسيس نظام واحد لأوربا، ووضع قانون واحد وانشاء محكمة نقض واحدة لها. ولو تم هذا لبات فى أوربا شعب واحد.[١]

وعلى كل حال فبعد ووترلو تغيرت معاملة الحلفاء لفرنسا وفرضت غرامات حربية عليها كما تم تضييق رقعة حدودها بحيث عادت إلى ما كانت عليه عام ١٧٩٠. وترتب على ذلك أن تؤول بعض المواقع العسكرية إلى ايدى اعداء فرنسا، وان تفرض عليها غرامة حربية، ويحتل اجزاء منها جيوش اعدائها.

والسؤال المطروح هو هل تنفست أوربا الصعداء بوفاة نابليون.

الواقع أنه بالرغم من أن دول أوربا قد استراحت من هذا الكابوس الذى أقض مضجعها نحو ربع قرن من الزمان فان رجال السياسة فيها ظلوا ردحا من الزمن وشبح نابليون يتمثل لهم اينما ساروا وكيفما توجهوا، كما ظلت المخاوف تساورهم خصوصا وان الامبراطورة "مارى لويز" ارملة نابليون كانت تطمع فى تنفيذ وصية زوجها بان يرتقى عرش

(١) أميل لودفيج: نابليون – ترجمة محمود ابراهيم الدسوقى، القاهرة، دار الكاتب المصرى، ص ٢٩٠.

فرنسا ابنهما " الملقب بالنسر" هذا إلى جانب ان عرش أسرة البربون التى عادت إلى حكم فرنسا لم تكن ركائزه وطيدة.

وعلى الرغم من عودة أسرة البربون إلى فرنسا بعد "وترلو" فان الأمور لم تتغير كثيرا فى نظام المجتمع الفرنسى، ولم يفكر أحد فى الغاء القوانين التى صدرت أيام الثورة أو أعادت امتيازات الملكية أو النبلاء، وإلى جانب ذلك ناهض العديد من الفرنسيين النظام الملكى، وكان محل كراهيتهم خصوصا وانه أعيد إلى فرنسا على أسنة حراب الحلفاء المنتصرين عليها ونتيجة لهذه الأمور كان مركز "لويس الثامن عشر" (١٨١٤-١٨٢٤) حرجا للغاية. ومع ذلك فقد استطاعت فرنسا فى عهده تنظيم ماليتها، ودفع الغرامة الحربية التى فرضتها الدول المنتصرة عليها، وان يسترجع مكانتها السياسية بين الدول الأوربية.

وبعد أن توفى لويس الثامن عشر خلفه على عرش فرنسا " شارل العاشر "[١] ذلك الملك الذى حاول العودة بفرنسا إلى نظام ما قبل الثورة، فأمر بالحد من حرية الصحافة، وحل البرلمان، ومنح تعويضات مالية للنبلاء المهاجرين، مما أدى إلى خلاف حاد بينه وبين الشعب انتهى باقصائه عن العرش، وتوليه لويس فليب مكانه.

وقد قبل الملك الجديد الانضواء تحت علم الثورة الفرنسية ذى الثلاثة ألوان، والسير بمقتضى النظم الديمقراطية مما جعله يحصل على رضا الشعب الفرنسى وتأييده[٢]. وبخاصة وأنه كان خبيرا بشئون الحكم ويملك من القدرة والذكاء ما مكنه من ادارة دفة الأمور بحكمة واقتدار، ومع ذلك فقد جلب تساهله الزائد مع بريطانيا، وعدم اهتمامه بأمر رجال الدين إلى اصطدامه مع التيار البونابرتى الذى كان يتزعمه لويس بونابرت، وأعاد فيه إلى الأذهان اسم نابليون وانتصاراته وأمجاده، وإلى اصطدامه ايضا مع التيار الجمهورى الاشتراكى الذى كان ينادى به أتباع سان سيمون، ويدعو إلى ضرورة تنظيم العمل والغاء مبدأ التوريث، واصلاح

---

[١] تم غزو الجزائر فى عهده، ويذكر رفاعه الطهطاوى الذى كان موجودا فى فرنسا خلال هذه الفترة أنه عندما جاء خبر وقوع الجزائر فى يد الفرنسيين إلى رئيس الوزراء "بولنياك" أمر باطلاق مدافع الفرح والسرور، ولكن سرعان ما تغيرت الأحوال حيث تم الاطاحة به وبمليكه فى العاشر من يوليو ١٨٣٠.
انظر: تخليص الابريز فى تلخيث باريز، طبعة ١٩٥٨، ص ٥٠.

[٢] تعرض رفاعه للخطوات الدستورية التى اتخذت لتولية " لويس فيليب" ملكا على الفرنسيين، وكيف قبض الشعب الفرنسى على وزراء شارل العاشر وكيف حاكمهم، ويذكرنا اعجاب رفاعه بنظام القضاء فى فرنسا بما سبق من اعجاب المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى به عند تعرضه لمحاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر.
أنظر :تخليص الابريز، ص ٢٦.

أحوال الطبقات ولما قاومت الحكومة هذه المطالب وجدت نفسها أمام عصيان شعبى، مما دفع الملك إلى التنازل عن العرش والهرب من انجلترا.

وخلال ذلك برزت فكرة الجمهورية على مسرح الاحداث وتزعمت باريس الدعوة إليها.

وفى الاستفتاء الشعبى الذى عقد فى العاشر من ديسمبر ١٨٤٨م، لانتخاب رئيس الجمهورية نال لويس بونابرت معظم أصوات الناخبين، ونتيجة ذلك دخلت فرنسا مرحلة جديدة من حياتها.



الأمبراطور نابليون الأول

الفصل الحادى عشر
الوحـدة الايطاليـة

كانت أيطاليا فى أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر عبارة عن اصطلاح جغرافى لا يرتبط بأى كيان أو وحدة سياسية، فقد كانت مقسمة إلى عشر ولايات نتجت من تفكك الامبراطورية الرومانية فى القرون الوسطى، وكان معظم الولايات فى الشمال وفى الوسط فى قبضة النمسا أما فى الجنوب فقد كانت ولاية نابلى وصقلية تدخل فى عداد الولايات المستقلة، وقد خضعت جميع هذه الولايات لنظام استبدادى يعتمد على تسلسل الطبقات الاجتماعية.

ولقد كانت هناك عدة معوقات تحول دون قيام وحدة ايطاليا وأهم هذه المعوقات هى:-

١- وقوف الباباوات فى روما كالعقبة الكأداء التى تعوق قيام مثل هذه الوحدة وبخاصة انهم كانوا يرون فى ذلك تقليصا لنفوذهم الزمنى وحرمانا لهم من سلطانهم السياسى، كما أنهم كانوا يستغلون فرصة هذا التفكك فى تثبيت نفوذهم، وقد شارك الباباوية فى ذلك سائر أمراء ايطاليا وحكامها حيث رأوا ان الاتحاد يفقدهم مالهم من نفوذ وسلطان.(١)

٢-الاختلافات الواضحة فى الجنس والعادات فى انحاء شبه الجزيرة الايطالية.

٣- رغبة النمساويين فى الابقاء على تسوية فينا عام ١٨١٥ والتى بمقتضاها فرضت على الايطاليين سيطرتها.

٤- وقوف النظام الاقطاعى فى ايطاليا حجر عثرة أمام قيام هذه الوحدة، خاصة وان أحدا من الاقطاعيين لم يحاول التخلى عن امتيازاته الطبقية.

٥- تمسك بعض المدن الايطالية مثل البندقية ونابلى وجنوة وغيرها بنظام المدن المستقلة خصوصا وان اشتغالهم بالتجارة الشرقية قد جلب عليهم العديد من الثروات التى أرادوا

---

(1) Berkeley, J. Italy in the Making . 1815-1848.

الاستئثار بها دون المدن الأخرى، وان قيام الوحدة قـد يحـول دون الاسـتئثار بهـذه الثروات.

وظل الحال على هذا المنوال حتى جاء بونابرت بحملته على ايطاليـا اثنـاء تـولى حكومة الادارة زمام الأمور فى فرنسا وأرسل نداءه المشهور للايطاليين بان حملتـه جـاءت لتحطيم هذه الأغلال.

ونتيجة لانتصارات بونابرت الحاسمة على النمساويين فى ايطاليا اعترفت النمسا فـى صلح " كامبو فورميو" بقيام جمهورية شمال ايطاليا التى اطلق عليها جمهورية الألب الشمالية، كما نجح بونابرت فى كسر قوة الجيش البابوى وأجبره على التنازل عـن بعـض الولايـات البابوية.

وهكذا نجح بونابرت فى ايقاظ الشعور القومى لدى الايطاليين، وان لم يكـن رحيمـا معهم طول الوقت فمع انه صادر كل ما وقع تحت ايدى جنوده، ووضع يـده علـى امـوال المصارف، وهدم الارضية الاجتماعية والثروة فى ايطاليا فان حررهم عن الحكم النمـساوى لبلادهم، كما دعاهم إلى اقامة دولتهم العصرية، وظهر بينهم فى صورة مجدد الأمانى فى بعث الوحدة الايطالية، والراغب فى ايجاد امة فى ايطاليا.

وقد نهج نابليون فى ايطاليا مناهج متناقضة هدفها الأول ان تكون خاضعة لـسيطرته، ومن هنا رغب فى تطبيق المبادئ التالية:-

١- تأسيس مملكة فى ايطاليا خاصة بشخصه اكثر من كونها مملكة فرنسية، على أن تـشمل كل الولايات الايطالية.

٢- انشاء مملكة فى نابولى لاخيه "جوزيف بونابرت" واخرى فى طوسكانيا وتحكمهـا اختـه "ليزا".

ومع أن هذه التغييرات فسحت المجال لبدء نظام جديد فانها لم تكون وحدة سياسية بل ادت إلى ضرب الحضارة الايطالية بشكل مؤثر.

ولكن ذلك لم يستمر طويلا فبعد رحيل بونابرت نجح النمساويون فـى هـدم ماشـيده الفرنسيون وقمع حركات التمرد التى قامت ضدهم، ولما كان على الايطاليين التخلص من هذه المعوقات فقد اضطروا إلى تكوين الجمعيات السرية، كما بدأ يظهر من بينهم من يدافع عـن

وحدة ايطاليا واستقلالها وكان ضمن هؤلاء ثلاثة من رجال ايطاليا، أحدهم ماتزينى روح هذه الحركة، وكان ثانيهم كافور مفكرها السياسى وعقلها المدبر، أما ثالثهم فهو غاريبالدى ساعدها القوى.

وفيما يلى سنوضح نشأة كل منهم ودوره فى اتمام الوحدة الايطالية:-

أولا: ماتزينى Mazzini

ولد ماتزينى فى مدينة جنوة فى عام ١٨٠٥ من اسرة برجوازية، فكان ابـوه طبيبـا مشهورا وامه من اسرة رفيعة الشأن، ودرس ماتزينى الحقوق فى جامعة جنوة، وحصل منها على الدكتوراه ثم اوقف نفسه لخدمة وطنه فانخرط فى العمل السياسى من اجل تحرير ووحدة ايطاليا، فكان من ابرز رواد هذه الحركة.

وقد أحسن ماتزينى بما يعانيه شعبه من فقر وشقاء، فأخذ يفكر فى الطريق التى تعيـد لابناء ايطاليا حقوقهم فى ظل حياة ديمقراطية سليمة، وعقد العزم على العمل من اجـل قيـام ايطاليا " حرة متحدة من الألب إلى المحيط" فانضم إلى جمعية " الكاربونارى"[1] التى تأسـست للعمل من اجل وحدة ايطاليا وبدأ يحرض الايطاليين على الصمود أمام النمساويين كما بدأ فى كتابة سلسلة من المقالات فى جريدة " دليل جنوة" وجريدة " دليل ليفورنه" مما أدى إلى غليان الافكار، وانتشار روح الثورة ضد النمساويين، ونتيجة ذلك قبض عليه بتهمة التآمر، والقى فى السجن لمدة ستة أشهر، ثم حكم عليه بمغادرة جنوة فذهب إلى مرسيليا ووضع تحت المراقبة، وخلال ذلك اخذ يفكر مليا فيما يحدث لبلاده، وساقه ذلك إلى التنبه إلى ضرورة الارتكاز على الشعب الذى هو عماد كل حرية قومية.

ومن أجل ذلك أسس جمعية " ايطاليا الفتاة" فى عام ١٨٣١ بهدف العمل على تحريـر ايطاليا من نير الحكم النمساوى واستقلالها ووحدتها، وقد استحوذت هذه الجمعية علـى افئـدة وعقول الشباب الايطالى، وقد استطاع ما تزينى عن طريق هذه الجمعية التى كانت لا تـضم رجالا سنهم دون الاربعين تولى زعامة الحركة القومية الثورية فى ايطاليا وأن يصل بتعاليمه

---

(١) هى جمعية الفحامين، وكان روحها مزيج من الصوفية المسيحية والاشتراكية. وقد قال احـد رجالهـا ان المسيح كان اول ضحايا الطغاة ونظرا لطابع هذه الجمعية السرى فقد تم تقـسيمها إلـى جماعـات ذات اختلافات متعددة فى المفاهيم السياسية.

إلى قلوب الناس وعقولهم حتى استجاب العديد منهم لمبادئه، وازداد عدد أعضاء الجمعية فـــي مدى عامين إلى ستين ألفا.

وقد نجحت الجمعية فى نشر المبادئ الحرة بين الشعب الايطالى بصورة نشطة، وفى اثارة الحماسة بين صفوفه واقناعه بأن الثورة العنيفة هى السبيل الوحيد لانقاذ ايطاليا وقد اثر عن مازينى قوله " ان الأفكار تنمو سراعا اذا ما روتها دماء الشهداء" كما أنه كان يعتقد أنـــه بامكان البشر تحسين أحوالهم إذا ما ساروا على هدى مثل عليا، وعلى هدى عقيـــدة تعلمهـــم الرغبة فى التضحية وكان متفائلا يثق بالنصر القريب لمثله الأعلى فى العدل والاصلاح ومن هنا كانت تأثيره عمقا فى الأخلاق الايطالية وفى نمو الوجدان القومى الايطالى ومن أجل ذلك ناشد الايطاليين السير على مبادئه لتوجيه ضربة قوية إلى الامبراطورية النمساوية التى كـــان وجودها فى ايطاليا عارا على الايطاليين ورمزا للجمود والسلبية، وإلى الحكم البـــابوى الـــذى طالما وقف حجر عثرة أمام وحدة ايطاليا.

وعلى كل حال فقد اكسبت اعمال القمع والوحشية التى اتبعها المستـــشار النمـــساوى "مترنيخ" الكثير من الانصار "لماتزينى" وجمعيته واشتعلت نفوس الناس حقدا وكراهيـــة ضـــد النمساويين وسياسة "مترنيخ" وقد وضح الشاعر الانجليزى " روبرت براوننج" أحاسيس الشعب الايطالى تجاه النمسا ومستشارها بقوله على لسان أحد الايطاليين " إذا كان لى أن أحقق لنفسى رغبات ثلاث فإنى اعرف على الاقل منها واحدة فأرانى ممسكا بمترنيخ حتى أحس بالـــدماء تقطر حمراء من عنقه البليل بين يدى هاتين".

ولقد رأى ماتزينى فى نهاية عام ١٨٤٧ ضرورة استثارة النمسا حتى يزداد تدخلها فى شئون ايطاليا مما يحفز همة الايطاليين على الثورة ضدها وقد شاءت الاقدار أن أنتخب فـــى تلك الفترة لمنصب البابوية "البابا بيوس التاسع" وهو من البابوات المـــشهود لهـــم بالوطنيـــة وكراهيته لاساليب البوليس النمساوى واحكام الاعدام والنفى والسجن مما دفع الأمانى القومية لدى الايطاليين دفعة كبيرة إلى الأمام حيث راح الناس يستبشرون فـــى حمـــاس شـــديد لـــه، خصوصا وأنه أعلن العفو عن المسجونيين والمشبوهين والـــسياسيين[1] وخففـــت مـــن قيـــود الصحافة كما عدل من طابع الحكومة الاستبدادى الكنسى غير أنه لم يكن يدرك مـــا تقتـــضيه متطلبات ايطاليا خاصة وأنه لم يكن ضليعا فى السياسة ولم يكن يدرك ما يحيط به من أخطار

---

[1] جرانت: المرجع السابق، ص ٣٢٥.

كما أنه لم يكن من طبيعته حب الثورة أو الميل إليها وأنما كانت نزعته هادئة كذلك فلا عجب من أن ينسحب هذا البابا من الميدان.

ونتيجة لأفكار ماتزينى حول الوحدة والاستقلال تهيأت أفكار الايطاليين للثورة ضد النمساويين وتشبع العديد منهم بمبادئ جمعية ايطاليا الفتاة، كما أصبح أفراد الطبقة الوسطى من المجتمع الايطالى يؤيدون قيام الوحدة وفى ١٢ يناير ١٨٤٨ أعلنت الثورة فى "بالرمو" حتى وافق حاكمها على اعلان الدستور، وعلى غرار ذلك تأثرت ايطاليا كلها بهذا النصر وتشجعت على اعلان الثورة ومع النجاح الذى تم فان مستقبل ايطاليا كله كان متوقفا على التخلص من الحكم النمساوى فى شمال شبه الجزيرة ولذلك كان مصير ايطاليا متوقفا على بيدمنت مركز مملكة سردينيا، وفى لمبارديا حيث كانت النمسا تتمتع بنفوذ كبير، وحيث كان السكان يتطلعون إلى التخلص من حكمها الجائر.[١]

كما اتجهت الأنظار نحو شارل البرت Charles Albert ملك سردينيا الذى اقتربت افكاره من أفكار ماتزينى بصورة واضحة خاصة بعد أن ارسل له ماتزينى رسالة باسم الايطاليين يوضح له فيها مفهومه لايطاليا الحرة، ويناشده ان يصغى لصوت ايطاليا ويطالبه بأن يضع نفسه على رأس هذه الأمة وان يضع على العلم الايطالى كلمات اتحاد ، حرية، واستقلال وان يحمى ايطاليا من البرابرة. وقد أخذ الملك على عاتقه تخليص ايطاليا من الحكم النمساوى كما أنه منح شعبه دستورا فى ٨ فبراير ١٨٤٨م، وفى ميلان امتد تيار الثورة وحدثت اشتباكات بين المتظاهرين والجنود النمساويين انتهت بانتصار الثوار وطرد النمساويين فى ميلان وامتد اثر ذلك إلى " بارما" و " مودينا" فسقط فيها الحكم النمساوى كما قامت أعنف الثورات على النمسا فى البندقية مما أدى إلى اشتداد غضب النمسا ورغبتها فى الانتقام من الثوار واخضاعهم ولما كان من المتعذر على أهالى "ميلان" و"البندقية" و"لمبارديا" مواجهة النمساويين بمفردهم فقد اتجهت أنظارهم إلى شارل البرت الذى استجاب لندائهم ولكن تفوق القوات النمساوية كان واضحا حيث أن القوات الايطالية لم تكن كاملة التنظيم أو جاهزة

(١) زينب راشد: تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر، ص ٣٤١ - ٣٤٢.

للمعركة كما أن الخلاف انتشر فى صفوف الايطاليين واشتد الصراع بين الملكيين والجمهوريين، وقصد ماتزينى إلى ميلان بغرض توجيه الحركة لصالح الجمهورية كل هذا أدى إلى هزيمة الايطاليين ودخول القوات النمساوية إلى ميلان والقضاء على حركتهم، كما أن الملك شارل أعلن عن تنازله عن العرش لابنه فيكتور عما نويل الثانى ومع ذلك فان تيار الثورة امتد إلى روما والبندقية، ففى روما انتشرت الفوضى بعد فرار البابا منها، وانتهى الأمر بقيام الجمهورية على يد الحزب الجمهورى الذى تزعمه "ماتزينى"، ولكن كان واضحا أن هذه الجمهورية لم تعمر طويلا حيث أن فرنسا ناصرت البابا وأرسلت جيشا استطاع القضاء على مركز الجمهوريين فى أوربا واعادة البابا إلىمركزه.

أما فى البندقية فقد اقيم فيها حكم جمهورى وظلت تقاوم النمسا حتى هزمت هزيمة فادحة عادت إلى أثرها إلى الحكم النمساوى من جديد.[١]

ثانيا: كافور Cavour ١٨١٠ – ١٨٦١:

ولد كافور فى منطقة تورينو من عائلة ارستقراطية كانت تمتلك الأراضى، والتحق على عادة أبناء العائلات بالمدارس العسكرية، وعمل فى الجيش برتبة ضابط ثم هجره لادارة مزارعه ولاشباع رغبته فى التنقل والاسفار فسافر إلى فرنسا وبريطانيا ودرس أصول الحياة السياسية هناك، وتعرف على بعض كبار الساسة ودعاة النظم البرلمانية مما اكسبه النضج السياسى والعديد من الخبرات والتجارب التى أهلته لتحمل مسئوليات الحكم فى بلاده، وجعلته من أبرز ساسة القرن التاسع عشر.

وعن دوره فى الوحدة الايطالية فقد شعر كافور منذ صباه بأن السبب فى محنة ايطاليا هو تقسيمها ونتيجة لذلك رأى أن بعث بلاده.لا يتم الا بوحدتها وأنه من الصعب تحقيق هذه الوحدة، واخراج بلاده من الوحل دون الاستعانة بقوة خارجية لذلك رأى وجوب الاستعانة بفرنسا لطرد النمسا من ايطاليا، وكانت هذه هى النقطة الاساسية فى سياسته فى سبيل توحيد ايطاليا وفى تلك الفترة أظهر "فيكتور عمانويل" عزما أكيدا على تحرير ايطاليا وتخلصها من

---

(١) نفسه، ص ٣٤٤-٣٤٦.

الحكم النمساوى ولاشك أن اسم "كافور" و"فيكتور عمانويل" سيبقيان خالدين كرمز للكفاح فـــى سبيل الوحدة الايطالية.

لقد عمل كافور منذ أن وصل إلى كرسى الحكم فى "بيدمنت" علـــى تـــشييد البنيـــان الداخلى لبلاده وبث روح الحرية فيها حتى تصبح نموذجا لغيرها من الولايات، وعمل علـــى تنظيم الاقتصاد والأمور العامة، كما عمل على الحد من امتيازات الكنيـــسة فقـــام بتخفـــيض ايرادات الأوقاف الكنسية والدخل الكبير لكبار رجال الكنيسة واغلاق اكثر من ثلثمائـــه ديـــر، وحد من سيطرة الكنيسة عن شئون التعليم كما أقر برلمان تورين التشريع الخـــاص بـــالزواج المدنى رغم معارضة الفاتيكان وإلى جانب ذلك اهتمت حكومـــة كـــافور بالـــسكك الحديديـــة والعناية بالجيش والاسطول وتدريبه على احدث النظم حتى يستطيع مواجهة النمساويين فـــى الوقت المناسب كما أشتهر كافور بآرائه الديمقراطية واخلاصه لقضية ايطاليـــا، وكـــان هـــو وماتزينى يتحدان فى الهدف وهو تحرير ايطاليا ووحدتها الا أنهما اختلفا فى كثير من الأمور فقد كان " كافور" عمليا فى سياسته فإدرك أن ايطاليا لن تستطيع وحدها الوصول إلى هـــدفها بدون مساعدة دولة أخرى، وأنها لو تولت أمرها بنفسها فلن تبلغ هدفها المنشود كما كان يرى أن الحماسة وحدها ليست كفيلة بتحقيق الهدف بينما كان "ماتزينى" يرى عكس ذلك.

سعى كافور إلى عقد محالفة مع فرنسا وبريطانيا لاكتساب عطف الرأى العـــام فيهـــا على قضية بلاده، ولما كان يعلم بعطف نابليون الثالث على قضايا ايطاليا القومية، وان فرنسا كانت واحة الأمل الذى يمكن الاعتماد على تأييدها فقد تودد إليه ثم قابل كـــافور الامبراطـــور الفرنسى فى " بلومبير Plombieres "بشرق فرنسا عام ١٨٥٨ ونجح فى الحصول على تعهد منه بمساعدة سردينيا فى حربها ضد النمسا على شرط أن تبدأ النمسا بالعدوان، نظير أن يعطـــى كافور لفرنسا "سافوى" و"نيس" من أملاك "بيدمنت" عند نجاحها فى الحرب.

وإلى جانب ذلك عمل كافور على طرح القضية الايطالية على بساط البحث بين الدول الكبرى، كما عمل على لفت أنظار العالم إلى مشكلات بلاده ليحصل على التأييـــد المطلـــوب مستغلا فى ذلك انعقاد أى مؤتمر دولى لعرض قضية بلاده عليه وقد نجح فى ذلك إلى حد ما، وعلى الرغم من أن الرأى العام البريطانى تعاطف مع القضية الايطالية وأعلن عن رغبته فى تحرير ايطاليا من الحكم النمساوى، فان كافور لم يستطع الحـــصول علـــى عـــون الحكومـــة

الانجليزية التى كانت تعمل على ان يكون الخط الرئيسى فى سياستها الخارجية هو المحافظة على استمرار السلام والاستقرار فى أوربا.

وإلى جانب ذلك فان روسيا لم تنظر إلى القضية الايطالية الا من خلال مصالحها التى كانت تتمثل فى التمسك بمقررات مؤتمر فينا لأنها أفضل السبل للمحافظة على الأوضاع فى أوربا من وجهة نظرها.

ونتيجة لذلك لم يجد كافور مساندة من الدول الكبرى سوى من فرنسا ونظرا لأن فرنسا اشترطت لتدخلها ظهور النمسا بمظهر المعتدى حتى تستطيع أن تبرر موقفها امام الدول الأوربية فقد حاول كافور استفزاز النمسا وذلك باثارة القلاقل على مناطق الحدود معها كما أوحى إلى الصحف أن تشن حملة على الحكومة النمساوية حتى يثير غضبها فتضطر إلى استعمال القوة، وتتمكن فرنسا من الوفاء بوعدها بالتدخل بحجة الدفاع عن صديقتها سردينيا.

ولما وجهت النمسا انذارا إلى سردينيا يقضى بتسريح جيشها ونزع سلاحه فىمدة لا تزيد عن ثلاثة أيام رفض كافور الانذار مما أدى إلى اعلان النمسا الحرب رسميا على ايطاليا فى ٢٦ من ابريل ١٨٥٩م، وتقدم قواتها نحو سهول ايطاليا الشمالية، ولم تتردد فرنسا فى مساعدة حليفتها سردينيا فأرسلت جيشا مكونا من ١١٥ الف جندى، نجح فى هزيمة النمساويين فى معركتى "ماجنتا" Magenta فى ٤ يونيو، وسولفرينو Solferino فى ٢٤ يونيو ١٨٥٩ وطردهم من لمبارديا مما ساعد على انفتاح الطريق أمام البندقية، ولما انكشف ضعف النمسا، وعدم مقدرتها على خوض الحرب أنهى نابليون الثالث الحرب فجأة والتقى مع امبراطور النمسا فى فلافرانكا Villafranca واتفق معه على عقد الهدنة دون استشارة بيدمنت واشترط تنازل النمسا عن مقاطعة "لمبارديا" لمملكة سردينيا على ان تحتفظ لنفسها بالبندقية وقد عرف هذا الصلح بصلح زيورخ ١٨٥٩ وهكذا طعن الامبراطور الفرنسى الايطاليين فى آمالهم وتخلى عنهم فى وقت كانوا فى أشد الحاجة إليه مما جعل الايطاليين يتهمونه بالخيانة، وقد رأى كافور ضرورة الاستمرار فى القتال بدون فرنسا، ولكن ملك سردينيا رفض هذه الفكرة مما اضطر كافور إلى الاستقالة بعد أن تبخرت آماله فى تربع عرش ملك سردينيا على عرش يشمل شمال ايطاليا كله.

والسؤال المطروح هو لماذا طعن "نابليون الثالث" الايطاليين فى آمالهم وتوقف فجأة عن القتال بالرغم من انتصارات قواته المتلاحقة؟

الواقع أن المؤرخين يختلفون فى سبب ذلك فيرجح بعضهم هذا الأمر إلى الظـروف الدولية، ويرجح بعضهم السبب إلى ان ابتعاد خطوط مواصلات الجنود الفرنسيين عن بلادهم هو الذى دفع نابليون الثالث إلى ايقاف الحرب، ويرى بعض ثالث ان كثرة عدد القتلـى فـى المعارك هو الذى جعل الامبراطور الفرنسى يأمر بايقاف القتال تاركا اعداءه يتراجعون دون الاجهاز عليهم ويقوم بتوقع الهدنة مع الامبراطور النمساوى وهناك رأى آخـر وهـو الـذى نعتبره أقرب إلى الواقع وهو أن الامبراطور الفرنسى رأى فى استكمال ايطاليا لوحدتها خطرا على البابوية وتهديدا لسلطانها وهو الأمر الذى رفضه نابليون الثالث.

وعلى كل حال فمهما يكن من شئ ينسب إلى تخلى نـابليون عـن الايطـاليين فـان مساهمته فى تحرير لمبارديا وضمها إلى مملكة بيدمنت انما كان خطوة هامة فى سبيل وصول ايطاليا إلى تحقيق وحدتها خصوصا وان الامارات الشمالية الصغرى من وسط ايطاليا أعلنت عن رفضها لصلح زيورخ ونيتها للانضمام إلى مملكة "بيدمنت"، كمـا أن بعـض الولايـات الأخرى اجتاحتها موجة من الحماس، وأعربت عن رغبتها فى الانضمام إلى مملكة بيـدمنت، ومع أن هذه المحاولات قد أثارت سخط النمسا، فقد حاول "كافور" وهو خارج الحكم الحصول على تأييد انجلترا الدبلوماسى باتحاد بعض الامارات مع بيدمنت وقد نجح فـى ذلـك حيـث أصدرت الحكومة الانجليزية العديد من التصريحات التى تدعو إلى ترك الحريـة للايطـاليين لتقرير مصيرهم كما أن فرنسا لم تمانع فى انضمام امارات وسط ايطاليا إلى "بيدمنت" بشرط استفتاء الاهالى فيما إذا كانوا يرغبون فى تحقيق وحدتهم مع "بيدمنت"، وفى ذلك الوقت عـاد "كافور" إلى رئاسة الوزارة فى "بيدمنت"، واجريت عملية الاستفتاء التـى اقترحتهـا فرنـسا كشرط لموافقتها على انضمام ولايات وسط ايطاليا إلى "بيدمنت"، واسفرت عن رغبة أهـالى هذه الولايات فى الانضمام إلى "بيدمنت".

ولم تتوقف مساعى كافور فى سبيل تحرير ايطاليا كلها من نفوّذ النمـسا والحـصول على تأييد نابليون الثالث فى ضم صقلية وجنوب ايطاليا إلى بلاده، وواتته الفرصة عندما قـام الثائرون فى هذه المناطق بدعوة "غاريبالدى" وجماعة ايطاليا الفتاة لمساندتهم فنزلت قواته من ذوى القمصان الحمراء فى مايو ١٨٦٠ إلى صقلية واقاموا فيها حكومة مؤقتة انـضم إليهـا الأهالى كما عبرت هذه القوات مضيق "مسينا"، واستولت على "نابولى"، ووضعت العالم أمـام الأمر الواقع، ونتيجة لتوتر العلاقات بين نابليون الثالث وبابا روما فكر الامبراطور الفرنـسى

فى سحب الحامية الفرنسية من روما ولكن البابا عارض هذه الفكرة بحجة حاجته الشديدة إلى تلك القوات ثم اضطر فى النهاية إلى الموافقة.[١]

ثالثا: غاريبالدى Garibaldy

كان "غاريبالدى" أحد أعضاء جمعية ايطاليا الفتاة البارزين وكـــان زعيمـــا حماســـيا، وقائدا للجند غير النظامين، كون جماعة القمصان الحمر، واشتهر بتطرفه فى وطنيته وتعصبه القومى ومناوأة الكاثوليكية ورغبته فى أن يجعل من بلاده جمهورية مستقلة وقــد عــاد إلـــى ايطاليا هو واتباعه بعد حياة النفى المليئة بالمخاطر فى أمريكا الجنوبية، وقد بشر بانجيل جديد وهو عبارة عن نسخة من افكار روسو فى التبشير، وانشأ عوضـــا عـــن " صـــدقة القـــديس بطرس"،"صدقة الحرية" وكان يجمع الصدقات ليشترى بها اسلحة تساعده على القيـــام بحملـــة عسكرية على روما.

ويرجع إليه الفضل فى الاستيلاء على صقلية بعـــد أن اتـــصل بـــه "كرســـبى" أحـــد الجمهوريين بصقلية وطلب منه المعاونة فى ضمها إلى مملكة سردينيا. كما يرجع إليه الفضل أيضا فى الاستيلاء على نابلى.

ولما أعلن "غاريبالدى" متابعته للزحف على الأملاك البابوية خشى كافور مـــن مغبـــة فقدان عطف الكاثوليك فطلب من الامبراطور نابليون الثالث العون والمساعدة حتى يتم لقوات سردينيا التحرك داخل الأراضى البابوية بحجة القضاء على الشغب هناك فسمح له الامبراطور الفرنسى بذلك شريطة الانتهاء منه باقصى سرعة، وقد تم لكافور ما أراد، والتقى غاريبالـــدى بالقوات السردينية ورحب بها ووافق على المناداة بالملك " فيكتور عمانويل" ملكا على ايطاليا كلها، وبذلك انضم الجنوب إلى الشمال فى ظل حكم فيكتور عمانويل.

وهكذا نجح الايطاليون بفضل حنكة كافور من تحرير القسم الأكبر من بلادهم، ولكـــن بقيت روما والبندقية بعيدتين عن السيادة الايطالية فكانت البندقية تحت سيادة النمـــسا ورومـــا تحت السيادة البابوية المحمية بقوات فرنسا.

---

[١] زينب راشد، المرجع السابق، ص ٣٥٥-٣٥٧.

ولما كان ضم البندقية وروما أمرا يتوقف على الموقف الدولى فى أوربـا لأن ضـم البندقية يلزمه ضرورة هزيمة النمسا فى أوربا، وضم روما يلزمه تغيير جذرى فى السياسة الفرنسية فقد نجحت ايطاليا فى ضم البندقية بعد تحالفها مع بروسيا ضد النمسا فى عام ١٨٦٦ وتقديم العون العسكرى لها فى نظير حصولها على البندقية فى حالة انتصارها على النمـسا، ولما تحقق ذلك فى معركة "سادوا" نجحت ايطاليا فى ضم البندقية اما عن روما فانه بهزيمـة فرنسا فى الحرب السبعينية مع بروسيا فى عام ١٨٧٠ تم سحب الحامية الفرنسية من رومـا وبذلك اصبحت الفرصة المواتية لضمها واتخاذها عاصمة لايطاليا.

وقد كتب فكتور عمانويل إلى البابا يطالبه بالانضمام إلى الوحدة مع ابقاء سلطته داخل حدود الفاتيكان فعرض عليه " قانون الضمانات" الذى يتيح له الاحتفاظ بوضع خاص ولكنه لم يقبل، واعتبر نفسه سجينا فى الفاتيكان وحكم بالحرمان على كل من يساند السلطة الزمنة مما جعل ايطاليا تعانى مشكلة النزاع بين الحكومة والكنيسة، مما دفع عمانويل على الالتجاء إلـى القوة، وفى ٢٠ سبتمبر استطاعت القوات الايطالية الوصول إلى روما، وبادر سكانها بـاعلان انضمامهم إلى حكومة "فكتور عمانويل" فى ٢ اكتوبر ١٨٧٠، وزالت بذلك اكبر عقبـة فـى طريق الوحدة التى كانت أساس الحركة الاستقلالية فى ايطاليا، وظل البابا على موقفه الرافض حتى عام ١٩٢٩ حيث تم عقد اتفاقية "لاتران" فى عهد الحكومة الفاشية والتى أعطـت للبابـا أرضا صغيرة داخل روما يكون له فيها السيادة، كما اعتبرت شخصه مقدس، وله الحق فـى استقبال الغراء الاجانب والمراسلة بحرية مع اساقفه العالم، وان يكون له دخل مستوى.

وهكذا كان "ماتزينى" و"كافور" و"غاريبالدى" الدور المؤثر والفعال فى قيام " الوحـدة الايطالية لدرجة قال عنها الزعيم الهندى "نهرو" لو تأخر احدهم عن الظهور فى حينه لربمـا تأخرت الوحدة بعض الوقت.

لقد نجح ماتزينى فى اضرام الحماس الروحى لدى الايطاليين ونجح غاريبالـدى فـى قيادة المدافعين كما نجح كافور فى أذكاء الايمان السياسى فى ضلوع الايطاليين.

حقيقة لقد اختلف هؤلاء الثلاثة حول الطريق الموصل للوحدة والاستقلال فقـد كـان ماتزينى يحلم بدنيا جديدة فلم يقدم له كافور سوى الدنيا القديمة ذاتها فى شكل جديـد، وكـان غاريبالدى يحلم بنظام جمهورى فقدمت له الملكية فى ثوب قشيب، ومع ذلك فقـد أوصـلتهم وحدة الهدف إلى غايتهم المنشودة فتحقق لايطاليا وحدتها واستقلالها.

وعلى كل حال فان بزوغ هذا الكيان السياسى الجديد كان ينقصه العديد من مصادر القوة، فقد كانت ايطاليا فى ذلك الوقت تفتقر إلى المصادر الاقتصادية الكافية خصوصا من ناحية الثروة المعدنية مثل الفحم، وكذلك من ناحية الانتاج الزراعى الذى لم يكن يتناسب مع معدلات الزيادة السكانية فى ايطاليا.

وإلى جانب ذلك فانه علىالرغم من قيام الوحدة السياسية بين اجزاء ايطاليا فان سكانها لم يتمكنوا من اقامة وحدة قوية حقيقية وذلك بسبب الخلافات والتناقضات القومية بين العديد من القطاعات فى ايطاليا وقد أوضح ذلك أحد الزعماء السياسيين الايطاليين بقوله " بعد أن تمت وحدة ايطاليا بقى أن تتم وحدة الشعب الايطالى".

ونتيجة لكل ذلك قطعت ايطاليا شوطا طويلا فى اصلاح حالتها الاقتصادية، كما وسعت حركتها التجارية وبذلت جهودا كبيرة لاصلاح أسطولها التجارى ورغم كل ذلك فقد كان أمام ايطاليا شوطا طويلا فى مجال التقدم الاقتصادى كما ظلت المشكلة الاقتصادية من أخطر المشاكل التى تعاقبت الحكومات الايطالية على محاولة علاجها. يضاف إلى هذه قضية الصراع الحزبى فى ايطاليا وخصوصا بين الاتجاهات اليمينية والاتجاهات اليسارية. ولأول مرة منذ الوحدة الايطالية نجح اليسار الايطالى فى الحصول على أغلبية فى انتخابات عام ١٨٧٦م، ومنذ ذلك الوقت ولعشرين سنة تالية ظل اليسار باستثناء فترات بسيطة هو المسيطر على الحكم فى ايطاليا.

أما عن مصادر الدخل لايطاليا فانها كانت ترتكز على مصدرين أساسيين الأول وهو المهاجرون الايطاليون، فمئات الألوف من الايطاليين كانوا فى الخارج يرسلون إلى ذويهم المساعدات المالية والثانى كان السياحة من أوربا وأمريكا خاصة وأن ايطاليا كانت ومازالت مركزا سياحيا هاما بسبب آثارها الفنية ووجود البابوية فيها، وعلى الرغم من ذلك فقد استمر العجز فى ميزانية الحكومة الايطالية الامر الذى دفع ايطاليا إلى الخروج للمجال الاستعمارى وقد اتجهت المحاولة الأولى للتوسع نحو تونس، ولكن فرنسا اسرعت إلى احتلال تونس مما أثار حفيظة الايطاليين ضد فرنسا، وظلت العلاقات متوترة بين البلدين بعد هذا الحادث ما يقرب من عشرين عاما، وساد الاعتقاد بعد ذلك أن ايطاليا لم تتمكن من الحصول على مستعمرات إلا إذا ارتبطت بتحالف دولى قوى، وقد جر هذا التفكير ايطاليا إلى الاشتراك فى التحالف الثنائى الالمانى النمسوى ونتيجة لفشل خطط ايطاليا التوسعية فى شمال أفريقية بدأت

تتحرك صوب شرق افريقية، فاستولت الشركة الايطالية البحرية على " عــصب" فــى عــام ١٨٨٥، كما احتل الايطاليون "مصوع" وأسسوا مستعمرة الصومال وتحالفوا مع الأدريسى فى عسير، ثم حاولوا الاستيلاء على الحبشة، وعلى الرغم من هزيمة الجيش الايطالى من موقعة "دوجالى" إلا أن ايطاليا نجحت فى عقد معاهدة مع أحد زعماء القبائل الحبشية وهو " منيليــك" لمساعدتها فى الوصول إلى عرش الحبشة، واطلق على هذه المعاهدة معاهدة "أوتشيالى" ولكن " منيليك" سرعان ما نقض المعاهدة بعد أن اتضح له ان النص الايطالى لها كان مخالفا للنص الحبشى ونتيجة لذلك أعلنت ايطاليا أنها تنوى فرض حمايتها على الحبشة، وفى عــام ١٨٩٥ بدأت طلائع الجيوش الايطالية تزحف على الحبشة، ولكن فى أوائل ١٨٩٦ أصيبت الجيــوش الايطالية بهزيمة ساحقة فى "عدوة"، وهى المعركة التى خسر فيها الايطاليون حوالى خمــسة آلاف قتيل وأسر منهم حوالى الفين، واضطرت ايطاليا إلى أن تدفع للحبشة تعويضا ماليا وأن تعترف باستقلالها، مما كان له أكبر الاثر على الحياة السياسية فى ايطاليا وكان بمثابة المنبــه الذى نبه جماعة الاستعماريين الايطاليين إلى الامكانيات الحقيقية للتوسع الاستعمارى الايطالى وحدد بالتالى مكانة ايطاليا فى العلاقات الدولية تلك العلاقات التى تحدد دورها ابان الحــرب العالمية الأولى حيث أعلنت ايطاليا الحياد فى بادئ الأمر، ثم دخلت الحرب ضــد النمــسا - المجر وهذه الحرب ساعدتها على تحقيق تطلعاتها القومية فى الادرياتيك، كما حققت للقوميــة الايطالية تطلعاتها نحو الشمال والشمال الشرقى وأعطت لايطاليا مناطق مأهولة بقوميات غير ايطالية.



الفصل الثانى عشر

الاتحـاد الألماني

ساعدت أفكار الثورة الفرنسية، وما أحدثه نابليون من تعديلات وإصلاحات فى ألمانيا أثناء حكمه لها على إنعاش الروح القومية بين الألمان.

كما ساعد انتصار الحركة القومية فى إيطاليا بعد تخلصها من الحكم النمساوى علـى أحياء الأمل فى إنشاء الاتحاد الألمانى خاصة وأن النمسا كانت الخصم المـشترك لكـل مـن إيطاليا وألمانيا، حيث تركزت جهودها فى العمل على كبت الحركات القومية فى أوربا وتحقيق أطماعها هناك لذلك قام المستشار النمساوى " مترنخ" بتوجيه الولايات الألمانية إلى اجتمـاع فى " كرلسباد" فى عام ١٨١٩م وحصل على موافقتها على قرارات رجعية ضد مبادئ الحرية والمطالبة بالدستور كما نجح فى تكميم أفواه الصحافة.

هذا فى الوقت الذى اتجهت فيه بروسيا إلى زعامة المانيا، واستطاعت أن تضع أسسا قوية لإقامة اتحاد ألمانى تحت زعامتها وساعدها على ذلك عدة عوامل هـى:-

١- ظهور السياسى الشهير " أوتوفـون بـسمارك Otto Von Bismarck" علـى مـسرح الأحداث وقدرته الفائقة على مواجهة المشاكل، ومقدرته الـسياسية الفـذة ونجاحـه فـى الوصول إلى إدارة الحكم فى بروسيا وهو يحمل برنامجا يسعى لتحقيقه بطريقة علمية ألا وهو اقامة الوحدة الألمانية والعمل على جعل بروسيا أكبر وأقوى مملكة فى المانيا ونتيجة لذلك جذب الأنظار إليه خاصة وأنه كان خطيبا مفوها ذرب اللسان لا يتراجع عن المضى فى تحقيق أهداف بلاده ولو كان ذلك على حساب المبادئ.

٢- تولية "وليم الأول William I" زمام الأمور فى بروسيا عام ١٨٥٨م وقيامه بالعمل على أن تصبح بلاده دولة قوية وذلك عن طريق تنظيم الجيش البروسى وزيادة إعداده، وإقامة حكومة أوتوقراطية.

٣- إدراك المسئولين فى بروسيا لأهمية الوحدة الاقتصادية بين الولايات الألمانيـــة، فقــاموا بتأسيس الاتحاد الجمركى (الزولفرين Zollevrein) فى عام ١٨١٩[1] مما كان له أكبــر الأثر فى تجميع شمل الولايات الألمانية المتفرقة وتخليصها من المكوس الجمركية التـــى كانت تشكل حاجزا بين هذه الولايات، فبعد أن كانت بروسيا مقسمة إلـــى عـــدة منـــاطق جمركية، وكل منطقة لها ضرائبها الخاصة، تم إلغاء هذه الحواجز مما ساعد علـــى رواج التجارة الداخلية، وأعطى بروسيا القدرة فى الدعوة لتشكيل اتحاد سياسى تم بعد ذلك فـــى عهد وليم الأول.

٤- اتجاه الحركة الثقافية فى الولايات الألمانية صوب أهـــداف قوميـــة، وعرضـــها لأفكـــار "هيجل"، و"نيتشه" عن الدولة التى يجب أن تتمثل فيها وحدة الثقافة، وعن دور الفرد فـــى خدمة الدولة، ونتيجة لذلك ظهرت جماعة من المثـــقفين تنادى بوحدة ألمانية عن طريـــق برلمان يضم الأمة الألمانية كلها.

٥- تنظيم الجيش البروسى وتجديده تحت قيادة " فون رون" Von Roon الذى يتمتـــع بقـــدر كبير من الكفاءة العسكرية، مما قلب التوازن العسكرى فى وسط أوربا رأسا على عقب.

ونتيجة للتنافس بين بروسيا والنمسا على تزعم الاتحاد الألمانى، اشتد العداء بينهما إلى حد النفور ومن أجل تفويت الفرصة على بروسيا فى قيادة الاتحاد الألمانى قامت النمسا بدعوة الأمراء الألمان لمؤتمر فى "فرنكفورت" للنظر فى الإصلاحات الدستورية المطلوبة حتى يـــتم تثبيت نفوذها فى ألمانيا، ونتيجة لذلك فكر بسمارك فى إحباط هذه الفكرة، فاعترض على قيام النمسا بالدعوة لمثل هذا المؤتمر ورأى ألا تمثل بلاده فيه. ولما افتتح المؤتمر فى الرابع عشر من أغسطس ١٨٦٣م رأى بسمارك ضرورة توجيه ضربة إلى النمـــسا، فأرســـلت حكومتـــه بمذكرة إلى المؤتمر اقترحت فيها بأنه يجب عند قيام أى إصلاح للاتحاد ان تكون بروسيا على قدم المساواة مع النمسا فى مسألة رئاسة الاتحاد، وفى رفض التصديق على إشهار الحـــرب. وخلال ذلك الوقت حدثت ثورة فى بولندا ضد الروس، قامت روسيا بإخمادها بقسوة وعنـــف مما أدى إلى استنكار معظم شعوب أوربا لذلك العمل ومطالبتها للروسيا بمنح بولندا اســـتقلالا

[1] اكتمل تكوينه الرسمى فى الأول من يناير ١٨٣٤، وما أن أتى عام ١٨٥٢ حتـــى انـــضمت إليـــه جميـــع الولايات الألمانية عدا النمسا.

ـاخليا، ولما دعيت بروسيا للاشتراك فى هذا الاستنكار، ظهرت براعة بسمارك السياسية حيث انتهز هذه الفرصة فى العمل على التقرب من الروسيا وعدم مضايقتها حتى تقف بجانبه أثناء تنفيذ خططه خلال عمله على توحيد بلاده، ضاربا بذلك اتجاه الرأى العام فى بريطانيا وفرنسا ومعظم دول أوربا عرض الحائط فعقد تحالفا مع روسيا حتى يضمن حدود بلاده الشرقية آمنة فى حالة إعلانه الحرب على النمسا أو فرنسا، اللذين كان يجد فيهما خصمين للوحدة الألمانية يجب قهرهما، ومع أن هذا الموقف أغضب الدول الأوربية وأثار المعارضة فى البرلمان البروسى فقد صمد بسمارك للعاصفة وظل على موقفه.

مسألة الشلزويج Schleswig والهولشتين Holstein

منذ أن استلم بسمارك زمام الأمور فى بروسيا كان يدرك مقدار العداء الذى تكنه النمسا للوحدة الألمانية، مما جعله يعد العدة لمواجهتها حربيا، وقد واتته الفرصة فى عام ١٨٦٠، عندما حدث الخلاف بين النمسا وبروسيا حول مقاطعتى الشلزويج والهولشتين.

وموضوع هاتين الدوقيتين هو أن ملوك الدنمارك كانوا يحكمونها منذ عام ١٤٩٠م، ولما أثرت قضية الوراثة داخل الأسرة المالكة الدنماركية صارتا مكان خلاف بين الدنمارك من جهة وبروسيا والنمسا من جهة أخرى، خصوصا وان سكان هاتين المنطقتين خاصة الألمان منهم كانوا يرغبون فى الانفصال عن الدنمارك وإعلان الاستقلال عنها، وربط أنفسهم باتحاد جرمانى، وكانت الدنمارك تتوق إلى ضم هاتين الدوقيتين بصفة قاطعة إلى ممتلكاتها ومن أجل ذلك حاولت بتأثير من المدرسة وتأثير الكنيسة أن تنمى استعمال اللغة الدنماركية فيهما، كما كانت بروسيا والنمسا يتوقان أيضا إلى ضمهما دون أى حق شرعى أو تاريخى لهما فيها. وإنما اندفاعا وراء حمية العاطفة القومية وقد أدى ذلك إلى ظهور نذير الحرب ومع أن بسمارك كان يرغب فى ضم هاتين الدوقيتين إلى بلاده، فانه خشى ان يتورط فى مشكلة سياسية قد تلحق الضرر بمستقبله السياسى، ومن هنا رأى ان يشرك النمسا معه، ونتيجة لذلك اشتركت النمسا بقواتها مع بروسيا فى محاربة الدنمارك وتمكنا من هزيمتها. مما اضطر الدنمارك إلى التخلى عن الدوقيتين فى صلح فينا فى اكتوبر ١٨٦٤، فأخذت بروسيا دوقية الشلزويج، وأخذت النمسا دوقية الهولشتين، وذلك طبقا لمعاهدة جاستين Gastein ١٨٦٥م، وقد اعتبر بسمارك هذه المعاهدة مؤقتة، واخذ فى اعداد العدة لاستفزاز النمسا وإجبارها على

الحرب، حيث كان يعتقد أنها العقبة الكبيرة أمام وحدة ألمانيا، ولما قام البروسيون بحفر قناة تصل بين بحر البلطيق وبحر الشمال، اعترضت النمسا على ذلك لاعتقادها ان فيه تقوية لنفوذ بروسيا على حساب مصالحها، وتعقدت الأمور، واتضح لبسمارك ان المشكلة لن تحل الا عن طريق الحرب خاصة وأنه كان يثق فى قوة جيشه، ومع ذلك فانه أراد ان يضم إيطاليا إلى جانبه حتى يشغل القوات النمساوية على جبهتين كما أراد ان يضمن حياد فرنسا خلال حروب بلاده مع النمسا.

وبالنسبة لإيطاليا فقد وجه بسمارك جهوده لعقد محالفة معها، وقد نجح فى أن يحصل منها على تعهد بأن تنضم إلى بلاده فى حالة وقوع حرب بينها وبين النمسا بشرط أن تساعد بروسيا إيطاليا فى الحصول على البندقية.

وبالنسبةُ لفرنسا فقد قابل بسمارك الامبراطور الفرنسى نابليون الثالث[1] وحصل منه على موافقة بحياد بلاده إذا وقعت الحرب بين بروسيا والنمسا وبذلك تمكن بسمارك فى تطويق النمسا، وبقى أمامه القيام باستثارتها حتى تبدأ بإعلان الحرب على بلاده لذلك بدأ فى إثارة المشاكل معها، وفى نفس الوقت حاول أن يظهر أمام الولايات الألمانية والرأى العام الأوربى بمظهر المدافع عن حرية الشعوب، وإظهار النمسا من جهة ثانية بمظهر الدولة المعادية لحقوق الشعوب والديمقراطية فاقترح على المجلس الاتحادى "الدايت Diete" ان تكون وفود الدول ممثلة لشعوبها لا لحكوماتها، مما أثار النمسا فأعلنت معارضتها لهذا الاقتراح، كما قطعت علاقاتها مع بروسيا فى ١٥ يونيو ١٨٦٦ وبدأت فى الاستعداد للحرب، وهذا ما كان يسعى إليه بسمارك.

وقد بدأت الحرب بين الدولتين فى منتصف يونيو ١٨٦٦ ولم تدم سوى سبعة أسابيع فأرسلت النمسا قوات قوامها مائتان وثلاثون ألف جندى لمواجهة القوات البروسية، وفى ٣ يوليو ١٨٦٦ حدثت معارك حاسمة بين الطرفين ظهرت فيها براعة الجيوش البروسية، وتميزها بالدقة العسكرية، فاستطاعت سحق القوات النمساوية التى واجهتها من الشمال الغربى فى الأسبوع الأول من بداية الحرب كما سحقتها مرة أخرى فى معركة "سادوا Sadowa" فى ٣ يوليو ١٨٦٦ وأصبح الطريق إلى العاصمة النمساوية مفتوحا، ولكن بسمارك لم يرغب فى

[1] ابن أخو نابليون بونابرت.

إذلال النمساويين بدخول عاصمتهم وخاصة وأنه كان يريد وقوفهم على الحياد فيما إذا حارب فرنسا ومن هنا قبل الوساطة الفرنسية التى طلبتها النمسا، وتم عقد صلح "براغ" فى ٢٣ أغسطس ١٨٦٦ وفيه تم الاتفاق على ضرورة المحافظة على سلامة الأراضى النمسوية فى نظير ان يتم حل الاتحاد الجرمانى الذى تتزعمه النمسا ويكون لبروسيا الحق فى إنشاء إتحاد شمالى الماين كمايصبح لها الحق فى حكم الدوقيتين شلزويج وهولشتاين،وقد وافق بسمارك على هذه الشروط،لأنه هدفه الرئيسى كان اقامة الوحدة الألمانيةوليس اذلال النمسا أكثرمن ذلك

نعود إلى موقعة سادوا ونتائجها. الواقع ان انتصارات الجيش البروسى فى هذه الموقعة قد قلب التوازن الدولى فى وسط أوربا وأثبتت نجاح خطط بروسيا الحربية، وتفوق مدفعيتها، والمهارة فى سرعة التعبئة ودقة الحركات، مما أزعج الفرنسيين الذين أصبح الخطر يتهددهم خصوصا وانهم شعروا بأن وجود دولة ألمانية موحدة على حدودهم الشمالية يهدد سلامة بلادهم وباتوا يطالبون امبراطورهم نابليون الثالث بإحراز بعض المكاسب للفرنسيين، مما اضطره إلى ان يطالب بروسيا بجزء من الأراضى الألمانية كثمن لجياده، ولكن بسمارك رفض التنازل عن أى شئ وعلى كل حال فما أن انتهى بسمارك من النمسا الا وأخذ يستعد لمواجهة فرنسا، ومع ذلك فقد كان يهمه أن تكون فرنسا هى البادئة بالعدوان، أو تظهر أمام الرأى العام الأوربى أنها المعتدية، حتى يوجد المبررات التى تجعله يخوض الحرب ضدها سريعا حتى لاتستطيع النمسا ان تثار لنفسها بالاشتراك مع فرنسا فى الحرب ضد بلاده.

ونتيجة لفشل سياسة نابليون الثالث فى حل مشاكل بلاده الداخلية بدأ يفتش عن انتصارات عسكرية او سياسية يستطع بها تقوية أركان حكمه وهذا ما جعله يغامر بالدخول فى حروب خارجية حتى يشغل الرأى العام الفرنسى عن الاهتمام بمشاكل فرنسا الداخلية.

ولما أثيرت مسألة وراثة العرش الأسبانى الشاغر بعد فرار ايزابيلا "ملكة أسبانيا من بلادها، نتيجة لقيام الثورة ضدها عام ١٨٦٨م عرض على بساط البحث اختيار الأمير ليوبولد قريب قيصر بروسيا، وكان ذلك مخالفا لرغبة فرنسا لأنه قد يؤدى إلى إحاطتها بالأعداء مما جعل أمبراطورها يعترض على ذلك الترشيح بصورة علنية، ويسعى لدى ملك بروسيا كى يحول دون ذلك.

ولما عرض الأمر على الأمير ليوبولد تردد فى القبول، ولكن بسمارك انتهـز هـذه الفرصة ونجح فى إقناع الملك والأمير بالقبول، ولما علمت فرنسا بمـا حـدث زاد فـوران الغضب لدى الرأى العام الفرنسى وكلفت الحكومة الفرنسية سفيرها فى برلين بمقابلـة ملـك بروسيا الذى كان يقضى فصل الصيف فى " أمز Ems" ليطلب منه التدخل لوقف الترشـيح، وقد تمكن من ذلك، ولكن الحكومة الفرنسية طالبت بالحصول على تعهد كتـابى، والا يـسمح للأمير " ليوبولد" بقبول هذا المنصب فى المستقبل، ولما حاول السفير الفرنسى مقابلـة ملـك بروسيا للمرة الثانية رفض الملك وليم إجابة هذا الطلب.

وقد انتهز بسمارك هذه الفرصة وسعى لإحباط اى محادثات تقرب بين الدولتين كمـا قام بعقد محالفة بين بلاده وأسبانيا، وعندما أرسل الملـك البروسـى إلـى بـسمارك برقيـة بخصوص مقابلته مع السفير الفرنسى، نشرها فى الصحف بأسلوب آثار الشعور الوطنى فـى كل من الدولتين فقام بحذف بعض ألفاظها بحيث يبدو لمن يقرأها ان السفير الفرنسى قد أهـان الملك، وان الملك رد هذه الأهانة أضعافا، مما آثار الشعب الفرنسى وطالب بالحرب، واضطر الإمبراطور الفرنسى، إلى استدعاء قوات الاحتياطى. وإعلان الحرب على بروسـيا فـى ١٩ يوليو ١٨٧٠ وهى ما تعرف بحرب السبعين وكان هذا ما يسعى إليـه بـسمارك. وبالنـسبة لموقف أوربا من هذه الحرب فقد وقفت أوربا تقريبا على الحياد مما جعل فرنسا تقف وحـدها أمـام بروسيا، ومع أن جيش فرنسا كان منظما فقد كان الجيش البروسى أكثر تنظيما، وبـدلا من أن ينقل الجيش ساحة القتال إلى جنوب ألمانيا انقض الجيش البروسـى عليـه وحطمـه تحطيما خلال شهر واحد من قيام الحرب وتقدمت القوات البروسية داخل الأراضى الفرنـسية بعد هزائمها للقوات الفرنسية فى مواقع متتالية اضطرتها إلى الانسحاب من اقليمى الألـزاس واللورين فى ١٤ أغسطس ١٨٧٠ والارتداد إلى الخلف، ولما تقدمت القوات البروسية نحـو باريس اضطر الإمبراطور نابليون الثالث إلى التنازل عن القيـادة العليـا للجنـرال "بـازين Bazaine" الذى أظهرت الأحداث انه لم يكن مؤهلا لهذا المنصب حيث كـان دائـم التـردد والتباطؤ مما أفقد الجيش الفرنسى توازنه، وأدى إلى نجاح القائد البروسى " فون ملتكة" فـى تطويق الجيش الفرنسى فى " سيدان" وإنزال هزيمة ساحقة به مما أرغم حوالى مائة ألف مـن القوات الفرنسية على الاستسلام، ووقوع الإمبراطور نابليون الثالث فى الأسر، وإجباره علـى التسليم فى ٢ سبتمبر ١٨٧٠.

ولقد كان لكارثة سيدان اثر سريع على تطور الموقف فـانفجرت الثـورة وسـقطت الإمبراطورية الثانية وتعالت الأصوات تطالب بإعلان جمهورية مؤقتة كى تتولى الدفاع عـن فرنسا وتحاول إخراجها من أزمتها ونتيجة لذلك تألفت حكومة برئاسة " جمبتا" كان جل همها إنهاء حالة الحرب بأسرع ما يكون، على أن لاتفقد فرنسا شيئا من أراضيها. ونظرا لإصرار المانيا على ضرورة تنازل فرنسا عن بعض أراضيها استأنفت الحرب وانتهت بحصار الألمان لباريس وتعرض سكانها للمجاعة، ونتيجة لذلك نقلت القيادة الحربية الفرنسية مقر قيادتها إلى مدينة "تور" حتى تتمكن من إدارة المعارك ضد الغزاة من هناك، وخلال ذلك تمكـن الـزعيم الفرنسى "جمبتا Gambetta" من جمع جيش بلغ تعداده حوالى مائة وثمـانين ألـف جنـدى لمحاربة الغزاة ودارت رحى المعارك حتى أجبرت باريس على الاستسلام فى ٢٨ من ينـاير ١٨٧١، واضطر الباريسيون إلى فتح باب المفاوضات مع الألمان والتى أصر بسمارك مـن خلالها على أن يقوم الفرنسيون بانتخاب جمعية وطنية يكون فى مقدورها ان تقبل أو تـرفض الصلح مع الألمان مقابل فقدها لبعض أراضيها.

ونظرا لاصرار "جمبتا" على عدم التنازل عن شبر واحد من أراضى بلاده، ورغبـة من الفلاحين الفرنسيين فى إحلال السلام فقد عقدت الجمعية الوطنية اجتماعا فى مدينة بوردو قررت فيه الموافقة على الصلح مع الألمان وانتخاب " تيير Thiers" رئيسا للسلطة التنفيذيـة فى فرنسا ومنحه تفويضا بإجراء مفاوضات الصلح على ان الموقف فى فرنسا سـرعان مـا اشتعل فجأة، وخرج من يد الجمعية الوطنية حيث قامت ثورة فى فرنسا تزعمتها الطبقة العاملة والمتوسطة وأقامت حكومة جديدة فى باريس، وهى الحكومة التى يطلق عليها البعض "كومون باريس" والتى يعتبرها بعض المؤرخين أول محاولة فى التـاريخ الحـديث لإقامـة حكومـة اشتراكية بأسلوب الفهم الماركسى. وقد أعلن كومون باريس الثورة على الجمعيـة الوطنيـة وناشد المدن الفرنسية الأخرى ان تحذو حذوه ليس فقط من اجل الدفاع عن اسـتقلال فرنـسا ضد الغزو الألمانى ولكن أيضا للكفاح من أجل بناء نظام اشتراكى وابعاد القوى الملكية عـن الحكم، وبالفعل تكونت فى فرنسا كومونات متعددة. ولكن الجمعية الوطنيـة بزعامـة "تييـر" استطاعت القضاء على هذه الكومونات بسرعة حيث قررت استخدام جيـشها المنهـزم أمـام ألمانيا فى القضاء على هذه الحركة. فدخل الجيش الفرنسى باريس واسـتعمل كافـة أنـواع البطش والقتل فى الثوار حتى قضى فى باريس وحدها على ما يقرب من ١٣ الف من الثوار.

وإبان هذه المعارك كان "تيير" يقوم بالمفاوضات مع بسمارك تلك المفاوضـــات التـــى انتهت بصلح فرنكفورت فى ١٠ مايو ١٨٧١ والتى بمقتضاها أجبرت فرنسا على التنازل عن الألزاس بما فيها من صناعات وشطر كبير من اللورين بما فيه من خام الحديد إلـــى ألمانيـــا وكذلك مدينة " متز" وفرض عليها غرامة حربية قدرها خمسة مليون فرنك تجمع فى خـــلال ثلاث سنوات ثم تدبير ما يحتاج إليه الجيش الألمانى حتى يتم دفع هذه الغرامة ومعنى ذلك أن نهر الرين اصبح يجرى وسط أراضى ألمانية.

ولثقل وطأة الاحتلال الألمانى الجاثم على صدر أراضى فرنسا الشمالية، قـــام "تييـــر" بالتعجيل فى دفع الغرامة عن طريق القروض الداخلية واستطاع أن يدفعها فى ظـــرف ســـتة أشهر ويخلص فرنسا من استمرار إذلال ألمانيا لها لدرجة أن أطلق عليه الفرنـــسيون محـــرر الوطن.

وقد استغل بسمارك انتصارات بلاده على فرنسا، وبدأ فى التفاوض مع ملوك وأمراء الولايات الألمانية من أجل تحقيق وحدة ألمانيا تحت زعامة بروســيا، وتـــم اختيـــار النظـــام الاتحادى كنظام للدولة الألمانية الجديدة، واختيار الملك " وليم الأول" إمبراطورا لألمانيا.

وفى قصر المرايا بفرساى أعلنت الإمبراطورية الألمانية، وتم من خلالها إقامة دولـــة ألمانية موحدة فى الشئون الخارجية والعسكرية برئاسة وليم الأول ملك بروسيا الذى حمل لقب قيصر ألمانيا، كما أعلن دستور الإمبراطورية الجديدة، وبذلك دخلت ألمانيا فى عـــداد الـــدول العظمى.

وبعد أن حقق بسمارك لألمانيا وحدتها، وأصبحت الإمبراطورية الألمانيـــة الجديـــدة مركز الثقل فى دائرة توازن القوى السياسية الأوربية وغدت تملك نهر الـــرين مـــن الحـــدود السويسرية إلى الحدود الهولندية، بدأ بسمارك يغير سياسته التى كانت تستند علـــى ضـــرورة دخول بلاده الحروب حتى يتحقق لها الوحدة إلى سياسة الحيلولة دون وقوع حرب فى أوربـــا خصوصا وانه كان يعتقد أن ألمانيا تحتاج إلى السلم حتى تستطيع الاحتفاظ بالانتصارات التى أحرزتها وقد ساعده على ذلك أن أوربا كانت منشغلة بالمشكلات التى أعقبت الثورة الصناعية وما نتج عنها من آثار سياسية واقتصادية واجتماعية، ونتيجة لذلك استمر السلام فـــى أوربـــا لاطول فترة فى تاريخها الحديث، وهى الفترة ما بين ١٨٧٠-١٩١٤.

ولما كانت عملية توحيد ألمانيا قد تمت على حساب انتزاع الألزاس واللورين من فرنسا وضمها للاتحاد الألمانى وهو ماظل الفرنسيون يعتبرونه جريمة مزقت شمل أمة تمزيقا وحشيا وكان بسمارك على قناعة تامة بأن الفرنسيين، وان رضوا مؤقتا بالأمر الواقع فان كبريائهم سيؤدى إلى إحباط كل سعى للسلام، وانهم سيحاولون استرجاع ما أخذته منهم ألمانيا عن طريق إقامة تحالف دولى معاد للإمبراطورية، ومن هنا بذل بسمارك شتى الجهود لعزل فرنسا دبلوماسيا وإفشال مخططها فى تكوين أي تحالف ضد ألمانيا فبدأ الاتصال بامبراطوريتى النمسا والمجر، والروسيا وفى عامى ١٨٧٣،١٨٧٢، تم الالتقاء مع زعماء هذه القوى فى برلين، ودخلت العلاقات بين ألمانيا والإمبراطوريتين الكبيرتين مرحلة الاتفاقات والمواثيق فعقدت اتفاقية سرية بتبادل المساعدات العسكرية بين ألمانيا وروسيا إذا هوجمت إحداهما من جانب دولة ثالثة، كما عقد اتفاق آخر وقعته فى روسيا وألمانيا والنمسا ويتضمن تشاور هذه الدولة فى الوصول إلى تفاهم مشترك حول خطة العمل الحربى فى حالة الاعتداء من جانب دولة أخرى على إحدى دول التحالف.

وقد أطلق على هذا الوفاق والتفاهم اسم " عصبة الأباطرة الثلاثة" ويبدو أن هذه العصبة كانت تحمل معول هدمها فى يدها حيث اصطدمت مصالح روسيا القيصرية فى البلقان مع مصالح النمسا مما أحرج وضع ألمانيا وفرض عليها أن تختار بين إرضاء النمسا أو إرضاء الروسيا، ولما رأى بسمارك أن ارتباط مصالح بلاده بالنمسا اكثر منها مع الروسيا سارع بتوثيق تحالفه مع فينا، وعقد معها اتفاقا فى أكتوبر ١٨٧٩ يقضى بأن تقدم كل من ألمانيا والنمسا المساعدة للأخرى بكل قواها العسكرية إذا هوجمت إحداهما من جانب روسيا القيصرية أما إذا هوجمت إحدى الدولتين من جانب دولة أخرى غير الروسيا، فان الدولة الثانية تقف موقف الحياد المشوب بالتعاطف تجاه حليفتها وقد ظل هذا التحالف يمثل حجر الزاوية فى سياسة ألمانيا الخارجية، كما كان محورا للارتكاز الذى قصد به بسمارك عزل فرنسا عن الدول الأوربية الكبرى.

ولما حاول بسمارك ضم إيطاليا إلى التحالف الثنائى ليصبح تحالفا ثلاثيا لم يجد فى ذلك صعوبة نظرا لأن إيطاليا كانت حريصة على أن تتحالف مع دولة كبرى مثل ألمانيا يمكن أن تساندها فى التخلص من مشكلاتها الداخلية وخاصة مع البابوية التىتعتمد على ولاء العالم الكاثوليكى لها وأيضا فى تحقيق أحلامها التوسعية بعد أن خاب أملها فى الاستيلاء على تونس

حيث سبقتها فرنسا واستولت عليها فى عام ١٨٨١ لذلك رحبت ايطاليا بالانضمام إلى التحالف الثنائى فى عام ١٨٨٢، فنشأ التحالف الثلاثى من برلين – فينا – روما ثم اتسع بعد ذلك فشمل رومانيا والصرب.

هذه كانت سلسلة التحالفات التى أوجدها بسمارك بغرض عــزل فرنــسا واضــعاف موقفها، وقد مكنت هذه التحالفات من عزل فرنسا عزلا يكاد يكون تاما.

وعند تحليلنا لمصادر القوة والضعف فى هذه التحالفات يتضح ما يلى:-

أولا: نواحى القـــوة:

١- سهولة الاتصال بين القوى المتحالفة حيث أنها تتمركز فى منطقة متقاربة.

٢- ضخامة القوة الاقتصادية للدول المتحالفة.

ثانيا: نواحـــى الضعف:

١- أن هذا التحالف ضم دولتين متنازعتين هما النمسا والصرب، مما أدى إلى إثارة المشاكل القائمة بينهما داخل التحالف.

٢- وجود ثغرات واضحة داخل نصوص المعاهدات تمكن بعض دول التحالف مــن عــدم الالتزام بالمواثيق عند اللزوم وتفسيرها بالطريقة التى تتلاءم مع مصلحتها.

فعلى سبيل المثال استخدم ضمن النصوص تعبير " العدوان غير المستفز" بمعنى أن آي دولة داخلة فى الحلف ليست ملزمة بالدخول فى الحرب إلا إذا اعتدى على حليفتها من قبــل دول أخرى أما إذا استفزت حليفتها دولة أخرى مجاورة لدرجة تدفعها إلى الحرب فان دخول دول الحلف لمساعدتها ليس ملزما ولنضرب أحد الأمثلة لتوضيح ذلك.

إذا اعتدت فرنسا على ألمانيا فان على ايطاليا أن تسارع لمساندة ألمانيا أما إذا عمدت ألمانيا إلى استفزاز فرنسا إلى الدرجة التى تدفع فرنسا لمهاجمة ألمانيا فان إيطاليا ليست ملزمة فى هذه الحالة بالدخول فى الحرب.

وعلى أى حال قد تمكن بسمارك بهذه التحالفات من عزل فرنسا عــن بقيــة الــدول الأوربية ويبقى أن نتحدث عن جانب آخر من سياسة بسمارك الدولية وهو دخول ألمانيا فـــى

المجال الاستعمارى لقد حاول بسمارك فى بداية الأمر أبعاد بلاده عن المجـال الاستعمارى خارج أوربا حتى لا يزعج بريطانيا، ويدفعها إلى التقارب مع فرنسا، ولكن ظـروف النمـو الصناعى داخل بلاده كانت أقوى من أن يقف بسمارك أمام الرغبة فى تكـوين مـستعمرات للحصول منها على المواد الخام اللازمة للصناعة وأيضا لتـصريف المنتجـات التـى تقـوم المصانع الألمانية بتصنيعها ونتيجة لذلك تأسست الجمعية الألمانيـة الاسـتعمارية فـى عـام ١٨٨٢، كما بدأت فكرة تكوين مستعمرات ألمانية خارج أوربا تسير إلى حيز التنفيـذ فأسـس الألمان أربع مستعمرات فى جنوب غرب وشرق أفريقية (مثل الكامرون وتوجلاند) كما امتد نفوذهم ناحية الشرق الأقصى فوصلوا إلى غينيا الجديـدة (ايريـان الغربيـة) واسـتطاعوا الحصول على قاعدة بحرية فى جزر مارشال بمنطقة الباسفيك، كل ذلك جعل الدول الأوربية تعترف بالمانيا كدولة استعمارية واكبر دليل على ذلك أن المؤتمر الذى عقدته الدول الأوربية بشأن تسوية نزاعها حول أفريقية عقد فى برلين عام ١٨٨٤، ورأس المؤتمر بسمارك نفسه.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان بسمارك يعمل على إرضاء بريطانيا والتقرب منها، لدرجة أن علاقات بلاده معها كانت طيبة للغاية، غير أن ذلك لم يستمر طويلا، فعندما تـوفى الإمبراطور الألمانى "وليم الأول" فىعام ١٨٨٨ بدأت سياسة بسمارك الخارجية فى الانهيار، وبخاصة عندما وصل الامبراطور الشاب "وليم الثانى" إلى الحكم وقيامه بتنحية بسمارك مـن منصب المستشارية فى عام ١٨٩٠ وتولية " فون كابريفى" Von Caprivi مكانـه، وذلـك للخلاف بينهما حول الموقف من روسيا القيصرية وزيادة التوسع الاستعمارى.

ونتيجة لعدم ارتياح بريطانيا والروسيا من سياسة الامبراطور الألمانى الجديـد، بـدأ التقارب البريطانى الفرنسى يأخذ طريقه، مما نتج عنه عقد الاتفاق الودى بينهمـا فـى عـام ١٩٠٤، كما مهد الطريق لظهور التحالف الروسى الفرنسى فى عام ١٨٩٤، وأدى أخيرا إلى قيام التحالف الانجليزى الروسى الفرنسى فى عام ١٩٠٧ فيما يعرف الوفاق الثلاثى.

ثم أخذت علاقات إنجلترا مع ألمانيا طريقها إلي التـدهور خـصوصا بعـد أن قـام الإمبراطور الألمانى بمساندة البرتغال ضد بريطانيا فى حرب البوير، ومحاولاتـه المتكـررة للحصول على المزيد من المستعمرات والقواعد البحرية، ورغبته فى إنشاء بحرية ألمانية قوية تنافس القوى البحرية البريطانية، وإيجاده للعديد من المشاكل والتى نجم عنها على سبيل المثال الأزمة المراكشية ووقوف بريطانيا بجانب فرنسا خلال هذه الأزمة.

وعند تحليلنا لمجمل الإنجازات التى تحققت فى عهـد "ولـيم الثـانى" فـى المجـال الاستعمـارى نجدها ضئيلة فعلى الرغم من أن "وليم الثانى" كان صاحب فكرة نزول ألمانيـا بكل ثقلها إلى المجال الاستعمارى فان محصلة المستعمرات التى حصلت عليها ألمانيـا فـى عهده كان أقل من المستعمرات التى حصلت عليها فى أيام بسمارك، وإلى جانب ذلـك فـان بلاده فقدت الكثير من المجال الدولى عما كان عليه الحال خلال تواجد بسمارك، كمـا أنهـا فقدت صداقة إنجلترا وأدى إلى تقاربها مع فرنسا.

وعلى أى حال فقد حاولت ألمانيا ممارسة ظاهرة استعمارية جديدة تمثلت فى الرغبـة فى الحصول على الثروات الاقتصادية التى تحتاج إليها دون أن يكـون ذلـك عـن طريـق الاستعمار المباشر، وهذا ما يطلق عليه اسم الإمبريالية ولتحقيق ذلك عملت ألمانيا على تنفيـذ عدة مشروعات من أهمها:

١- مشروع وسط أوربا Mittle Europa

٢- مشروع الاتجاه نحو الشرق Drang Nach Osten

وقد قصد "وليم الثانى" بالمشروع الأول تكوين اتحاد جمركى فى وسط أوربا لزيـادة الروابط الاقتصادية بينها مما يتيح لألمانيا اجتذاب الناطقين بالألمانية الذين يعيـشون خـارج حدودها، واستغلال هيكلها الاقتصادى الكبير فى الهيمنة على تلك المنطقة.

أما المشرع الثانى وهو الاتجاه نحو الشرق فالهدف منه الوصول إلى ممتلكات الدولة العثمانية فى الشرق عن طريق بناء سكك حديدية، وربط اقتصادها بألمانيا عن طريق المـواد الخام بها، وجعل هذه البلاد سوقا لتصريف المنتجات الصناعية الألمانية.

وقد عارضت إنجلترا والروسيا هذه المشروعات معارضة شديدة ثم جاء قيام الحـرب العالمية الأولى فأوقفها تماما.[١]

(تستكمل الموضوعات الخاصة بتاريخ أوروبا المعاصر

فى الجزء الثانى من الكتاب)

[١] محمد أنيس: تاريخ أوربا المعاصر.

فهرست الموضوعات